فقه الوسطية الإسلامية والتجديد

معالم ومنارات

بقلم: الأستاذ الدكتور

يوسف القرضاوي

من إصدارات

مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد

1430هـ / 2009م

من الدستور الإلـهي
القرآن الكريم

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}

[الفاتحة:6، 7]

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}

[الأنعام:153]

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}

[البقرة:143]

{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}

[البقرة:201]

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}

[القصص:77]

{وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}

[الإسراء:110]

{وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً}

[الإسراء:29]

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}

[الفرقان:67]

{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}

[الرحمن:7–9]

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }

[الحديد:25]

{وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}

[الكهف:28]

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}

[المائدة:77]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}

[المائدة:88،87]

من مشكاة النبوة
قبسات من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"إن لبدنك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا" قاله لعبد الله بن عمرو حين بالغ في التعبد.

متفق عليه، وفي رواية: "فاعط كل ذي حق حقه".

"هلك المتنطّعون" قالها ثلاثا.

رواه مسلم عن ابن مسعود

"عليكم هديا قاصدا – ثلاث مرات – فإنه من يشادّ الدين يغلبه".

رواه أحمد وابن خزيمة والحاكم والطبراني عن بريدة الأسلمي

"إن الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا".

رواه البخاري عن أبي هريرة

"يا حنظلة ساعة وساعة".

رواه مسلم

"قيّدها وتوكل".

رواه الترمذي وابن حبان عن أنس

"أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

متفق عليه عن أنس

"إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط".

رواه أبو داود عن أبي موسى الأشعري

"اقرأوا القرآن واعملوا به، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به".

رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى والبيهقي عن عبد الرحمن بن شبل

"إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة

"إن الإيمان ليَخْلَق في جوف أحدكم، كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم".

رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة

من هدي الصحابة والتابعين

(خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي)
والنمط: الطريقة أو الصنف أو الجماعة من الناس طريقهم واحد.

علي بن أبي طالب

(ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يؤيس عباد الله من روح الله، ولم يؤمنهم من مكره).

علي بن أبي طالب

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا. واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

عبد الله بن عمرو بن العاص

وقال رجل لأبي الدرداء: إن إخوانك من أهل الكوفة من أهل الذكر يقرئونك السلام! فقال: وعليهم السلام. ومرهم فليعطوا القرآن خزائمه، فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويجنّبهم الجور والحزونة.

رواه الدارمي

(اطلبوا العلم طلباً لا يضرّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضرّ بالعلم، فإنّ العامل بغير علم يُفسد أكثر ممّا يُصلح، وإن قوماً طلبوا العبادة قبل العلم، فخرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم). (يعني الخوارج).

الحسن البصري

(خير الأمور أوساطها)

مطرف بن عبد الله بن الشخير

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، وبفضله تتنزل الخيرات والرحمات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأزكى صلوات الله وتسليماته على صَفْوة خلقه، وخاتم رسله، محمد بن عبد الله، الذي أرسله رحمة للعالمين، وحجة على الناس أجمعين، ونعمة على المؤمنين، كما قال تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}** [آل عمران:164].

ورضي الله عن آله وأصحابه الذين **{آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون}** [الأعراف:156، 157]، ورضي الله عمن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فقد وفقني الله تعالى – منذ دخلت ميدان الدعوة والإفتاء والتعليم – بفضله ومنَّته، إلى الالتزام بالمنهج الوسطي المجدِّد المتوازن، الذي يمثل منهج الأمة الوسط، كما سمَّاها كتاب الله الكريم: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** [البقرة:143] بعيداً عن تحريف الغالين المتنطعين، وتزييف المتسيّبين المفرّطين. وهو منهج النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[1]، الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}** [الفاتحة:6، 7]، وهو الدعاء القرآني الذي يجب على كل مسلم أن يكرره في صلواته كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل إذا اقتصر على الفرائض.

---

[1] – إشارة إلى قوله تعالى في سورة النساء: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً}** [النساء:69]، ففسرت هذه المراد بقوله تعالى: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}**.

كما أشار إليه القرآن مرة أخرى، في حديثه تعالى عن (الميزان العام) الذي غرسه الله في الفطر والعقول، وقرنه تارة بإنزال الكتاب، وتارة برفع السماء. فقال تعالى: {**اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ**} [الشورى:17]، {**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**} [الرحمن:7-9]. فهنا نبّه القرآن إلى المنهج الذي لا طغيان فيه ولا إخسار في الميزان. أي لا غُلوَّ ولا تقصير، لا إفراط ولا تفريط. وهو المنهج الوسط الذي ندعو إليه.

وهو منهج تلاءم مع فطرتي وعقلي، وانسجم مع فهمي للإسلام من ينابيعه الصافية، كما تواءم مع منطق العصر، وحاجات الأمة فيه، وعلاقتها بغيرها من الأمم في عصر تقارب الناس فيه حتى غدا العالم قرية واحدة.

وقد نذرت لهذا المنهج نفسي وعمري، وأعطيته فكري ووجداني، ودعوت إليه بلساني وقلمي: إذا حاضرت أو خطبت، وإذا فقّهت أو أفتيت، وإذا علَّمت أو ربَّيت، في كل آليات اتِّصالي بالناس: على المنبر في المسجد، أو في قاعة المحاضرة، أو في حلبة التأليف، أو على شاشات الفضائيات، أو على الأنترنت.

وقد كنت من عدة سنين كتبت مشروعاً تحت عنوان (الأمة الوسط) يُعنى بهذا المنهج، على أن تنشأ له مؤسسة تقوم عليه، قدَّمته لسمو الشيخة موزة بنت ناصر المسند حرم سمو أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة حفظهما الله، بيَّنت فيه مَدَى الحاجة إلى هذا المنهج، ولماذا طلبتُ من قطر أن تتبنّاه؟ واخترت الشيخة موزة بالذات لما أعلم من شجاعتها في تبنِّي المشروعات الكبيرة، وقدرتها على التنفيذ. وقد ساعدتني من قبل في مشروع (إسلام أون لاين نت) في الفترة الحرجة في بداية تأسيسه، ولا غرو أن تتبنَّى هذا المشروع.

وبعد مشاورات معها، انتهينا إلى أنَّ من الخير البدء بمشروع كلية الدراسات الإسلامية، التي طالبتني بوضع فلسفتها، وبيان أهدافها واتجاهها، وتأسيس لجنة عليا، للتخطيط لها، والإشراف عليها، وأكَّدت لي أن من خلال هذه الكلية يمكن أن

يقوم مشروعك الطموح، باعتباره جزءاً فعّالاً من مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع.

والحمد لله، قامت الكلية المنشودة، بعد دراسات واجتماعات، وتحضيرات، استمرت فترة غير قصيرة، قامت بها اللجنة الاستشارية العليا، التي أتشرف برئاستها[1]، وأثبتت الكلية وجودها على الساحة بحمد الله.

وفي العام الماضي (2008م) في احتفال المؤسسة بتخريج أول دفعة لها، أمرت الشيخة موزة بالإعلان عن (مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد) فأعلن ذلك عميد كلية الدراسات الإسلامية الأستاذ الدكتور حاتم القرنشاوي حفظه الله، وسط ترحيب الحضور، وعلى رأسهم سمو الأمير الشيخ حمد وحرمه.

ومنذ ذلك الوقت بدأ العمل الجاد لإخراج المركز إلى عالم التنفيذ، وعُيِّن له مدير كفء ذو خبرة يعتد بها، هو الأخ الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن من مصر، وعُيِّن معه الشاب الباحث المتفتح النابه الدكتور محمد المختار الشنقيطي من موريتانيا، ثم لحق بهما العالم الباحث الداعية النابه الشيخ مجد مكي من سورية، ثم عُيِّن اثنان آخران، من شباب العلماء الواعين.

هذا وقد كنت كتبت كلمات في مفهوم الوسطية ومعالمها المميّزة لمنهجها، الذي أصبح اليوم يمثِّل تياراً قوياً يسنده جمهور الأمة، ويتبنَّى جملة من المفاهيم والمبادئ والقيم الأساسية، التي تقدِّم الإسلام الحيّ المتوازن المنشود في خطوط عريضة، ولكنها واضحة التقاسيم، بيّنة الملامح.

ذلك أن من أشدِّ الأمور خطراً: ترك المصطلحات الكبيرة مثل الوسطية أو التجديد دون توضيح للمقصود، ودون شرح لمعناها وماهيتها، شرحاً يلقي الضوء الكاشف على مُقوِّماتها وخصائصها، وأهدافها ومناهجها، ويُزيح الغبار عن حقائقها، ويردّ على أباطيل خصومها، ويفنّد شبهات معارضيها.

---

[1] ـ هذه اللجنة تضم مع الرئيس:
أ.د. عز الدين إبراهيم.
أ.د. فتحي سعود.
أ.د.عبد الحافظ حلمي.
أ.د.هيثم الخياط.
أ.د.عبد الحكيم جاكسون.
أ.د. عائشة المناعي.
أ.د. عبد الحكيم وينتر.

وبذلك يتَّضح صراط المؤمنين، وتستبين سبيل المجرمين كذلك، كما قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}** [الأنعام:55].

وبعبارة أخرى: يتبيَّن لنا صراط الله المستقيم، وتتبيَّن السبل العُوج الأخرى عن يمينه وعن شماله، كما قال تعالى: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [الأنعام:153]، وكما جاء في حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال: "هذا سبيل الله"، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: "هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه"، ثم تلا: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [الأنعام:153][1].

وقد نشر مركز الوسطية بالكويت هذه الكلمات في طبعتها الأولى، وقدم لها الأمين العام للمركز في ذلك الوقت أخونا العالم الداعية المعروف الدكتور عصام البشير حفظه الله.

والآن أعيد النظر فيها مرة أخرى، – وخصوصاً بعد أن غدا مركز القرضاوي يحمل عنوان الوسطية والتجديد – لأضيف إليها معالم جديدة، رأيتها غايةً في الأهمية، ودمجتُ بعض المعالم في بعض، وقمتُ بما يسَّر الله من إضافة وتحسين ومزيد من الشرح النسبي، مستفيدا مما كتبته من قديم في عدد من كتبي، إلى أن يُهيئ الله لي شرحها بإفاضة وتفصيل. كما أني رتَّبتها ترتيباً جديداً أقرب إلى المنطق من ترتيبها القديم، لتظهر على الصورة المُثْلى، ما أمكن ذلك. والمؤمن يجتهد أن يرتقي أبداً من حسن إلى أحسن، ومن أحسن إلى الأحسن، كما هو توجيه القرآن، الذي علَّمنا أن الله خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة ليبلونا: أينا أحسن عملا!

---

[1] – رواه أحمد في المسند (4142) وقال مخرّجوه: إسناده حسن، والدارمي في المقدمة (202)، وابن حبان في المقدمة (6)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، والحاكم في المستدرك (318/2) وصححه ووافقه الذهبي.

وبهذا أصبحت كتاباً جديداً، بعنوان جديد، أضعاف الأول في حجمه، يقوم بنشره مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد بالدوحة، لتكون المنشور الثاني للمركز بعد نشر كتابي الكبير (فقه الجهاد).

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الدراسة، وبهذا المركز، وأن يجعله منارةَ هدى للحق، ومنبر دعوة إلى الخير، وقلعة دفاع عن الدين، ولسان صدق لرسالة الوسطية الإسلامية، والتجديد الإسلامي، على ضوء كتاب الله الكريم، وسنة رسوله ذي الخلق العظيم **{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [آل عمران:101].

كما أسأله سبحانه أن يجعل ما يقدمه هذا المركز من خير للأمة في ميزان دولة قطر وأميرها وحرمه، بارك الله في جهودهما، وجزاهما الله خيراً عن الإسلام ودعوته وأمته. إنه سميع مجيب.

الفقير إلى عفو ربه
يوسف القرضاوي

الدوحة في: شوال 1430هـ

أكتوبر 2009م

تمهيد

صلتي بالوسطية

تركيزي على الوسطية من قديم:

لقد أكرمني الله تعالى بتبنِّي تيار الوسطية، ومنهج الوسطية من قديم، ولم يكن ذلك اعتباطاً، ولا تقليداً لأحد، أو اتباعاً لهوى، ولكن لما قام عندي من الدلائل الناصعة، والبراهين القاطعة، على أنَّ هذا المنهج هو الذي يُعبِّر عن حقيقة الإسلام. لا أعني إسلام بلد من البلدان، ولا فرقة من الفرق، ولا مذهب من المذاهب، ولا جماعة من الجماعات، ولا عصر من العصور. بل عَنَيْتُ به (الإسلام الأول) قبل أن تشوبه الشوائب، وتلحق به الزوائد والمبتدعات، وتُكدِّر صفاءه الخلافات المُفرِّقة للأمة، ويُصيبه رَذاذٌ من نِحَل الأمم التي دخلت فيه، والتصقت به أفكار دخيلة عليه، وثقافات غريبة عنه. وقبل أن تصنّف أمّته إلى فرق وجماعات شتى، تنتسب إلى زيد أو عمرو من الناس، فحسبنا أنها تنتمي إلى القرآن الحكيم، وإلى الرسول الكريم.

الإسلام الأول:

أعني بهذا الإسلام الأول: إسلام القرآن الكريم، والسنة النبَّوية الصحيحة، الإسلام الذي دَعَا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما أوحي إليه من ربه، وبما بيَّنه بقوله وفعله وتقريره وسيرته. إسلام أصحاب رسول الله، الذين تتلمذوا على يديه، وشاهدوا أسباب نزول القرآن، وورود الأحاديث، وكان لديهم من صفاء الفطرة، وصدق الإيمان، وتذوُّق اللغة: ما أعانهم على حُسْن فَهم هذا الدين، الذي أخذوه بقوة من مُعلِّمه الأول، وطبَّقوه على حياتهم تطبيقاً دقيقاً.

هؤلاء الصحابة، الذين أثنى عليهم القرآن في أواخر سورة الأنفال[1]، وفي أواسط سورة الفتح[1]، وآخرها[2]، وفي سورة التوبة حين قال تعالى: **{وَالسَّابِقُونَ**

---

[1] - اقرأ الآيات ذات الأرقام: 74-75.

الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة:100]. فشمل الثناء من اتّبعهم بإحسان، وشملهم قوله تعالى: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}.**

كما أثنى عليهم رسوله في أحاديث مستفيضة: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[3].

هذا الإسلام النقيُّ من الإضافات والمُبْتَدَعات الذي أتمَّ الله به النعمة على الأمة، وامتنَّ عليها بإكماله، فقال: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً}** [المائدة:3].

كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) ومنهجي فيه:

لقد تَبَنَّيْتُ منهج الوسطيَّة منذ أكثر من نصف قرن، ولعل أول كتاب لي في هذا المجال هو كتاب (الحلال والحرام في الإسلام)، الذي وضح فيه هذا المنهج بجلاء في مقدمة طبعته الأولى التي ظهرت سنة 1960م، وكان مما قلت فيها:

(رأيت معظم الباحثين العصريين في الإسلام والمتحدِّثين عنه يكادون ينقسمون إلى فريقين:

فريق خطف أبصارهم بريق المدنية الغربية، وراعهم هذا الصنم الكبير، فتعبَّدوا له، وقدَّموا إليه القرابين، ووقفوا أمامه خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، هؤلاء الذين اتَّخذوا مبادئ الغرب وتقاليده قضية مُسلَّمة، لا تُعارض ولا تُناقش، فإن وافقها الإسلام في شيء هلَّلوا وكبَّروا، وإن عارضها في شيء وقفوا يحاولون التوفيق والتقريب، أو الاعتذار والتبرير، أو التأويل والتحريف، كأنَّ الإسلام مفروض عليه أن يخضع لمدنية الغرب وفلسفته وتقاليده. ذلك ما نلمسه في حديثهم عما حرَّم الإسلام من مثل: التماثيل، واليانصيب، والفوائد الربوية، والخلوة بالأجنبية، وتمرُّد المرأة على أنوثتها، وتحلِّي الرجل بالذهب والحرير ... إلى آخر ما نعرف.

---

[1] - اقرأ الآية: **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}** [الفتح:18].

[2] - اقرأ الآية: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً}** [الفتح:29].

[3]– متفق عليه: رواه البخاري في فضائِل أَصحَابِ النبِي (3651)، ومسلم في فضائل الصحابة (3594)، كما رواه أحمد في المسند (2533)، والترمذي في المناقِب (3859)، وابن ماجه في الأحكام (2362) عن ابن مسعود.

وفي حديثهم عمَّا أحل الإسلام من مثل: الطلاق، وتعُّدد الزوجات ... كأن الحلال في نظرهم ما أحلَّه الغرب، والحرام ما حرَّمه الغرب. ونسُوا أن الإسلام كلمة الله، وكلمة الله هي العليا دائما، فهو يُتَّبع ولا يَتَّبع، ويَعلو ولا يُعلَى، وكيف يتَّبع الربُ العبدَ، أم كيف يخضع الخالق لأهواء المخلوقين؟ **{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}** [المؤمنون:71]، **{قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}** [يونس:35]. هذا فريق.

والفريق الثاني جمد على آراء معينة في مسائل الحلال والحرام، تبعا لنص أو عبارة في كتاب، وظنَّ ذلك هو الإسلام، فلم يتزحزح عن رأيه قِيد شعرة، ولم يحاول أن يمتحن أدلة مذهبه أو رأيه، ويزنها بأدلة الآخرين، ويستخلص الحق بعد الموازنة والتمحيص.

فإذا سُئل عن حكم الموسيقى، أو الغناء، أو الشطرنج، أو تعليم المرأة، أو إبداء وجهها وكفيها... أو نحو ذلك من المسائل، كان أقرب شيء إلى لسانه أو قلمه: كلمة (حرام). ونسي هذا الفريق أدب السلف الصالح في هذا، حيث لم يكونوا يطلقون الحرام إلا على ما عُلم تحريمه قطعاً. وما عدا ذلك قالوا فيه: نكره، أو لا نحب، أو نحو هذه العبارات.

وقد حاولت ألا أكون واحداً من الفريقين. فلم أرضَ لديني أن أتخذَ الغرب معبوداً لي، بعد أن رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. ولم أرضَ لعقلي أن أقلِّد مذهبا معيناً في كل القضايا والمسائل أخطأ أو أصاب، فإن المقلد، كما قال ابن الجوزي: على غير ثقة فيما قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر. وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة[1].

أجل، لم أحاول أن أُقيِّد نفسي بمذهب فقهيّ من المذاهب السائدة في العالم الإسلامي، ذلك أنَّ الحق لا يشتمل عليه مذهب واحد. وأئمة هذه المذاهب المتبوعة

---

[1]– تلبيس إبليس صـ81.

لم يدَّعوا لأنفسهم العصمة، وإنما هم مجتهدون في تَعرُّف الحق، فإن أخطؤوا فلهم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران. قال الإمام مالك: كلُّ أحد يُؤْخذ من كلامه ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم. وقال الإمام الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

وغير لائق بعالم مسلم يملك وسائل الموازنة والترجيح: أن يكون أسير مذهب واحد، أو خاضعاً لرأي فقيه معيَّن. بل الواجب أن يكون أسير الحُجَّة والدليل. فما صحَّ دليله، وقويت حُجته، فهو أوْلى بالاتِّباع. وما ضعف سنده، وَوَهَت حُجَّته، فهو مرفوض مهما يكن مَن قال به، وقديماً قال الإمام علي رضي الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله)[1].

تأكيدي على منهج الوسطية منذ طلوع فجر الصحوة الإسلامية المعاصرة:

هذا ما ذكرته من قديم في مقدمة الطبعة الأولى من كتابي (الحلال والحرام). وزاد تأكيدي لهذا المنهج وتركيزي عليه ما لمسته من الضرورة إليه، منذ طلع فجر الصحوة الإسلامية المعاصرة منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين، أي منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان. وما شاهدته من خلال رحلاتي في أنحاء العالم الإسلامي ولقاء الأقليات الإسلامية، في الشرق والغرب، من ضياع الأمة بين الغلاة والمتطرفين وخصومهم من المتحلّلين والمتسيّبين.

وكان من دلائل هذا الاتجاه: ما لاحظه بعضهم في عناوين عدد من كتبي: أنَّ فيها كلمة (بَيْن) مثل: (الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد)، (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف)، (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم)، (الفتوى بين الانضباط والتسيب)، (الاجتهاد بين الانضباط والانفراط)، (ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق)، (ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة)، وغيرها. وكلها تدل على أن هناك موقفاً وسطاً بين طرفين.

حديثي في عدد من كتبي عن ملامح منهج الوسطية:

---

[1]- انظر: كتابنا (الحلال والحرام) صـ10-12.

وقد تحدَّثت في عدد من كتبي عن ملامح هذا المنهج، أو عن بعضها بإيجاز، كما في كتبي: (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف)، و(الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي)، و(أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة)، و(الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد)، و(خطابنا الإسلامي في عصر العولمة)، وغيرها. ولكن لم أُفصِّلها في كتاب مستقل. وحسبي هنا أن أذكر نموذجا لاهتمامي بالوسطية ما جاء في كتابي (أولويات الحركة الإسلامية) عن الفكر الذي ننشده للحركة الإسلامية في العالم، فهو فكر علمي سلفي تجديدي، وسطي، وما قلته آنذاك في تجلية معاني هذه الوسطية هذه الفقرات:

ومن معالم الفكر الذي ننشده: أنه فكري وسطي الوجهة والنزعة، فهو فكر تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة المتكاملة للناس وللحياة، النظرة التي تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط، بعيداً عن الغلو والتقصير.

فهو وسط بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللامذهبية المفرطة.

وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف وإن التزم واتبع.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

وسط بين المحكِّمين للعقل وإن خالف النص القاطع، والمغيِّبين للعقل ولو في فهم النص.

وسط بين المقدِّسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر، والمُلْغين للتراث، وإن تجلَّت فيه روائع الهداية.

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية، والمهملين للسياسة كليَّة بدعوى التربية.

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها، والغافلين عنها حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها.

وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرؤونه.

وسط بين المقدّسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تُعبد، والمتحلِّلين من أي عمل منظَّم كأنهم حبات عقد منفرط.

وسط بين الغلاة في إطاعة الفرد للشيخ والقائد، كأنه الميت بين يدي الغاسل، والمسرفين في تحرره كأنه ليس عضواً في جماعة.

وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية، والدعاة إلى الإقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية.

وسط بين المسرفين في التفاؤل، متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم، فلا يرون إلا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجراً.

وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدين شيء حرام.

هذه هي الوسطية التي يتبناها هذا الفكر، وإن كان الغالب على مجتمعاتنا اليوم السقوط بين طرفي الإفراط والتفريط، إلام مَن رحِم ربك، وقليل ما هم.

رفض بعض المتدينين منهجنا الوسطي وعودتهم إليه وتبنيهم له:

وكان بعض المتدينين قبل عدة سنين يرفضون هذا المنهج، ويتهموننا – نحن دعاة الوسطية – بالتساهل في الدين، والتفريط في أحكام الشرع، على حين يتهمنا العلمانيون والحداثيون والماركسيون وأمثالهم بالتشدد والتطرف! وهذا شأن (الوسط) دائماً، يرفضه الطرفان: الغلاة والمقصرون.

واليوم قد أصبح الكثيرون ممن كانوا ينتقدوننا بالأمس، ينادون بنفس منهجنا اليوم: الوسطية، حتى كثير من الحُكام، باتوا يذكرون الوسطية وينوهون بها. لأن هذا الاتجاه إنما يؤكده منطق العصر، ومنطق الأوضاع العالمية، والظروف

الإقليمية، ومنطق المحن التي تمر بها الأمة.. وكلها تدل على ترجيح منهجنا، وضرورة التشبُّث به. وقد أنشئت مراكز للوسطية في أكثر من بلد، وغدا هناك تنافس على احتضان هذا المنهج. فلله الفضل والشكر، ولله الحمد والمنة.

الفصل الأول

مفهوم الوسطية ودلالتها

مفهوم الوسطية في اللغة:

يجدر بنا هنا أن نمهّد ببحث لغوي موثّق عن مفهوم (الوسطية) في لغتنا العربية.

والمعروف أن لفظة الوسطية هي مصدر صناعي منسوب إلى كلمة (الوسط). و(الوسط) اسم مشتق من: وسَط يسِط سِطة، على وزن: وعد يعد عدة.

والمادة (و س ط) قد وردت في القرآن: اسماً وفعلاً، وصفة، قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143] **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى}** [البقرة:238] **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}** [القلم:28] **{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً}** [العاديات:5] **{مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ}** [المائدة:89].

في معجم ألفاظ القرآن:

وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة:

وسَطَ الشيءَ يِسِطه وسْطاً وسِطَة: كان بين طرفيه. تقول: وسطت الطريق، ووسطت القوم.

وسَطْن: **{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً}** [العاديات:4،5].

الأوسط اسم تفضيل من وَسَط. وأنثاه الوسطى. والأوسط يأتي في معنى الأقرب إلى الاعتدال والقصد والأبعد عن الغلوّ في الجودة والرداءة ونحوها. ويأتي في معنى الأفضل إذ كان أوسط الشيء محميّاً من العوارض التي تلحق الأطراف.

والوُسطى تأتي في معنى الواقعة بين شيئين، وبمعنى الفضلى، كما قيل في الأوسط.

أوْسَط: **{فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ}** [المائدة:89]. المراد: أن يكون أقربَ إلى الاعتدال بين الإسراف والتقتير.

أوسطهم: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}** [القلم:28]، أوسطهم أفضلهم رأيا.

الوسطى: **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى}** [البقرة:238]، الوسطى المتوسطة، فقيل هي صلاة العصر لتوسّطها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل، وقيل غيرها، أو الوسطى الفضلى، وقد اختلف في تعيينها أيضاً.

الوسط للشيء: ما بين طرفيه. ويستعمل الوَسَط في الفضائل إذ كانت وسطاً بين الرذائل. فالشجاعة وسط بين الجُبن والتّهور، وكذا سائر الفضائل. ثم جعل الوسط وصفاً للمتّصف بالفضائل فصار معناه الخيّر الفاضل. ومن شأن هذا أن يكون عدلاً في قضائه وشهادته. وهذا الوصف نظراً إلى أصله يستوي في موصوفه فلا يتغير لتغيّر موصوفه. يقال: رجل وسط وأمّة وسط.

وسَطاً: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143])[1].

في مفردات القرآن:

وقال الراغب في (مفردات القرآن):

وسط الشيء: ما له طرفان متساويا القدر. ويقال ذلك في الكميّة المتّصلة، كالجسم الواحد إذا قلتَ: وسطُه صَلْب، وضربتُ وسَط رأسه (بفتح السين).

ووَسْطٌ (بالسكون) يقال في الكمية المنفصلة، كشيء يَفصِل بين جسمين، نحو: وسْطُ القوم كذا.

---

[1] - معجم ألفاظ القرآن (848/2) طبعة مجمع اللغة العربية الطبعة الثانية.

والوسَط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان.. فيستعمل استعمال القصد المَصُون عن الإفراط والتفريط، فيُمدح نحوُ السواء والعدل، نحو: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143] وعلى ذلك قوله تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ}** [القلم:28].

وتارة يقال فيما له طرف محمود وطرف مذموم كالخير والشر[1]. الخ

كلام ابن الأثير:

وقال ابن الأثير في مادة (و س ط) في النهاية في غريب الحديث والأثر:

(وفيه: (خير الأمور أوساطها)[2] كل خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان، فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه والبعد عنه، فكلما ازداد منه بُعداً ازداد منه تعرياً. وأبعد الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما، وهو غاية البعد عنهما، فإذا كان في الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان)[3] ا هـ

معاجم اللغة الكبرى:

وقد أطال العلاّمة الزبيدي النفس في شرح المادة (وسط) من القاموس، بحيث استغرقت في كتابه (تاج العروس) ست عشرة صفحة بحسب طبعة الكويت، ونقل عن أئمة اللغة والشرّاح نقولاً مهمّة تجلّي المفهوم وتزيده وضوحاً. قال رحمه الله نقلاً عن ابن برّي:

(اعلم أن الوسط بالتّحريك: اسم لما بين طرفي الشيء، وهو منه، كقولك: قبضتُ وسط الحبل، وكسرتُ وسط الرمح، وجلستُ وسط الدار، ومنه المثل: (يرتقي

---

[1] – مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صـ 868،869 نشر دار القلم.

[2] – ذكره ابن الأثير على أنه حديث، ولم يثبت لدى أهل الشأن، والصواب: أنه من قول مطرِّف بن عبد الله بن الشخير من التابعين: رواه ابن أبي شيبة في الزهد (36276)، والطبري في تفسيره (300/19) من قول يزيد بن مرّة الجعفي، وابن سعد في الطبقات بإسناد صحيح من قول مطرف (142/7)، والبيهقي في الشعب (3888).

[3] - النهاية في غريب الحديث(184/5).

وسطاً ويربِض حجرة) أي يرتعي أوسط المرعى وخياره ما دام القوم في خير، فإذا أصابهم شرّ اعتزلهم، وربض حَجرة، أي ناحية منعزلاً عنهم. وجاء الوسط محرَّكاً أوسطه على وزان نقيضه في المعنى وهو الطَّرَف؛ لأن نقيض الشيء يتنزل منزلة نظيره في كثير من الأوزان، نحو: جوعان وشبعان وطويل وقصير...

قال: (واعلم أن الوسط قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسماً من جهة أنّ أوسط الشيء أفضله وخياره، كوسط المرعى خير من طرفيه، وكوسط الدابّة للركوب خير من طرفيها لتمكن الراكب. ومنه الحديث: "خيار الأمور أوساطها". وقول الراجز:

إذا ركبتُ فاجعلاني وسطاَ

فلمّا كان وسط الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة، وذلك مثل قوله تعالى: {**وَكَـذَٰلِكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَّـةً وَسَـطاً**} [البقرة:143] أي عدلاً، فهذا تفسير الوسط وحقيقة معناه، وأنه اسم لما بين طرفي الشيء وهو منه)[1].

قال الزّجاج في قوله تعالى{**وَكَـذَٰلِكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَّـةً وَسَـطاً**} [البقرة:143]: فيه قولان: قال بعضهم: أي عدلاً، وقال بعضهم: خياراً، واللّفظان مختلفان والمعنى واحد؛ لأن العدل خير والخير عدل.

قال في القاموس: وسط الشيء (محرّكة): ما بين طرفيه. قال:

إذا رحلتُ فاجعلوني وسطاَ   إني كبير لا أطيق العُنَّدا

أي اجعلوني وسطاً لكم ترفقون بي وتحفظونني، فإني أخاف – إذا كنت وحدي، أومتقدما عليكم، أو متأخرا عنكم – أن تفرُط دابّتي أو ناقتي، فتصْرَعَني.

وفيه: الوسيط: المتوسّط بين المتخاصمين. وفي العباب: بين القوم.

[1] - تاج العروس (175،174/20).

وُسُوط الشمس: توسّطها في السماء.

وواسطة القلادة: الدرة التي في وسطها، وهي أنفس خرزها.

ودين وسوط كصبور: متوسط بين الغالي والتالي.

و(واسط) بلد بناه الحجاج بن يوسف الثقفي بين الكوفة والبصرة، ولذلك سميت (واسطا) لأنها متوسطة بينهما؛ لأن منها إلى كل منهما خمسين فرسخا[1].

وفي (لسان العرب) نحو ما في (تاج العروس).

وقال الزمخشري في (أساس البلاغة): خلاصة ما ذكرناه هنا: وسط، جلس وسَطَ الدار، وضرب وسَطه وأوساطهم، وهو أوسط أولاده، وهي وُسْطى بناته.

ووسَط القوم، وتوسَّطهم: حصل في وَسَطِهم. وتوسّطت الشمسُ السماءَ. ووسَّطته القوم. وتوسّط بين الخصوم. ووسَّطتُه. وهي واسطة القلادة، ووسائط القلائد.

ثم قال: ومن المجاز: هو وسَطٌ في قومه، وسِطَةٌ ووسِيط فيهم. وقد وُسِط وساطة، وهم وسَطٌ ووساط: خيار.{**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**} [البقرة:143]. وقال زهير:

همُ وسطٌ يرضى الأنامُ بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظَمِ!

وقال أعرابي للحسن: علّمني ديناً وسُوطاً، لا ذاهباً فروطاً، ولا ساقطاً سقوطاً[2]!

ومن المعاني التي وردت في كتب اللغة عن الوسط والتوسّط، قولهم: توسّط فلان: أي أخذ الوسط بين الجيد والردئ. وهذا المعنى يستخدم عرفا. وهذا بعيد عن الوسطية التي نريدها؛ لأن وسطيتنا تعني خيار الشيء وأمثله وأفضله. فهي أشبه

---

[1] – انظر: تاج العروس (183/20-167) طبعة الكويت.

[2] - أساس البلاغة (505/2) نشر دار الكتب المصرية.

بالنجاح بدرجة ممتاز أو جيد جدا، بخلاف الوسط بالمعنى الذي أشرنا إليه، فإنه أشبه بدرجة (مقبول).

ومن خلال ما سجّلنا هنا من كلام اللغويين، وشعر الشعراء، وتعليقات الأدباء والعلماء: يتبيّن لنا: أن معنى (الوسط) – ومنه: الوسطية – في الأساس، هو الوجود في المكان الوسَط، بعيدا عن الطرفين أو الأطراف، لأن الوسط محمي ومحروس ومحاط من الجانبين، ولا يتعرّض لما يتعرّض له الطرف باستمرار من خطر وآفة، وما عدا ذلك، مثل: العدل، والخيار، فهو – كما قال الزمخشري – مجاز، متفرّع عنه، ومترتّب عليه.

وهذا المعنى الذي تجلّى لنا من خالال هذه الرؤية اللغوية البصيرة، هو لب المعنى الشرعي الإسلامي للوسطية، الذي اخترناه، والذي تشهد له كل الأدلّة الشرعية المعتبرة من كتاب الله وسنة رسول الله، كما سيتّضح لنا ذلك من خلال الفصل القادم.

مفهوم الوسطية كما أدعو إليها:

بعد أن اتّضح لنا مفهوم الوسطية من الناحية اللغوية، يجب علينا أن نبيّن ما نريده بالوسطية في المفهوم الشرعي أو الإسلامي.

ومن قديم قد تعرّضت لبيان مفهوم (الوسطية) وخصائصها ومظاهر تجليها، وذلك في كتابي (الخصائص العامة للإسلام) باعتبار (الوسطية) من أبرز خصائص الإسلام، ويُعبَّر عنها أيضا بـ(التوازن) أو (الاعتدال)، ونعني بها: التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة: الربانية والإنسانية، الروحية والمادية، الأخروية والدنيوية، الوحي والعقل، الماضوية والمستقبلية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية،

الحقوق والواجبات، الثبات والتغيُّر، النص والاجتهاد، الظاهرية والمقاصدية، الأثر والرأي، وما شابهها.

ومعنى التوسط أو التوازن بينها: أن يُفسح لكل طرف منها مجاله، ويُعطى حقه {**بِالْقِسْطِ**} أو {**بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**}، بلا وَكْس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار. كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: {**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**} [الرحمن:7–9]. فالوسطية هي التي تقيم الوزن بالقسط بين المتقابلات، بلا طغيان ولا إخسار. بحيث يمكن الجمع بينها، دون أن يطغى أحد المتقابلين على الآخر، كالذي يجمع بين حسنتي الدارين، الدنيا والآخرة، والذي يجمع بين النورين: الوحي والعقل {**نُورٌ عَلَى نُورٍ**} [النور:35].

عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن:

وهذا التوازن العادل في الحقيقة أكبر من أن يَقْدر عليه الإنسان؛ بعقله المحدود، وعلمه القاصر، فضلاً عن تأثير ميوله وأهوائه، ونزعاته الشخصية، والأُسْرية والحزبية، والإقليمية والعنصرية، وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر. ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يضعه بشر – فرد أو جماعة – من الإفراط أو التفريط، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ.

إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود – مادياً كان أو معنوياً– حقه بحساب وميزان، هو الله؛ الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً، وأحاط بكل شيء خبراً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً. ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعاً، فهو صاحب الخلق والأمر، فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به وشرعه من الهُدى ودين الحق، أي: في رسالة الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

ظاهرة التوازن في الكون كله:

ننظر في هذا العالم من حولنا من أصغر ما نعرفه في الكون وهو الذرّة، إلى أكبر ما نعرفه، وهو المجرّة، فنجد كل شيء فيه بمقدار وميزان، لا يتعدى مداره، ولا يجاوز مقداره، ولا يخبط خبط عشواء، بل هو كما قال تعالى: **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}** [الفرقان:2] **{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}** [الرعد:8] فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، والأفلاك الدوارة، والكواكب السيارة، والجمادات والنباتات، والحيوان والإنسان، والزواحف والطيور والحشرات، والأحياء المائية، وغيرها، كلها تسير بقَدَر وميزان وحساب، لا يطغى شيءٌ منها على مقابله، ولا يخرج عن حدِّه المُقدَّر له[1]. وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية في فضاء الله الفسيح، إنَّ كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته. وصدق الله العظيم إذ يقول: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}** [القمر:49]، **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** [الملك:3]، **{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}** [الرحمن:5]**{لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}** [يس:40].

الوسطية الخصيصة البارزة لهذه الأمة:

والإسلام يريد من الأمة المسلمة: أن تعكس ظاهرة التوازن الكونيَّة في حياتها وفكرها وسلوكها، فتتميَّز بذلك عن سائر الأمم. وإلى هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالى مخاطباً أمة الإسلام: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** [البقرة:143].

ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مُستمدَّة من وسطية دينها ورسالتها، أو وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط. منهج الاعتدال والتوازن الذي سَلِم – كما ذكرنا – من الإفراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير، في عقائده

[1] - تنبّه إلى ذلك الأديب العربي الكبير توفيق الحكيم، وأقام عليه نظريته التي سمّاها (التعادلية) وأسّس عليها مذهبه في الأدب والفن والثقافة. وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن خصيصة الوسطية في كتابنا (الخصائص العامة للإسلام) نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة.

وأحكامه، في شعائره وشرائعه، في قيمه وأخلاقه، في مفاهيمه ومعاييره، في آدابه وتقاليده، في مشاعره وعواطفه، في روابطه وعلاقاته.

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية شعارًا مميزًا لهذه الأمة التي هي آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم أنبيائه، رسولاً للناس جميعًا، ورحمة للعالمين.

الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:

فقد يجوز في رسالة مرحلية محدودة الزمان والإطار: أن تعالج التطرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغة في الدعوة إلى الواقعية قوِّمت بمبالغة مقابلة في الدعوة إلى المثالية، وإذا كان هناك غُلو في النزعة المادية، رُدَّ عليها بغلو معاكس في النزعة إلى الروحيَّة، كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان، فإذا أدَّت الدعوة المرحلية دورها الموقوت، وحَدَّتْ من الغُلوّ – ولو بغلوّ مثله – كان لا بد من العودة إلى الحد الوسط، وإلى الصراط السوي، فتعتدل كفتا الميزان. وهذا ما جاءت به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة. إذ ليس بعد محمد رسول ولا نبي، ولا بعد القرآن كتاب سماوي، ولا بعد الإسلام دين أو شريعة إلهية، ولا بعد أمّة الإسلام أمّة أخرى تحمل رسالة ربانية للناس.

دلالة الوسطية على معاني أخرى:

على أن في الوسطية معاني ودلالات أخرى، يلحظها أولو العلم والبصيرة، تميّز منهج الإسلام، ورسالة الإسلام، وأمّة الإسلام، وتجعلها أهلاً للسيادة والخلود.

أ _ الوسطية تعني العدل:

فمن معاني الوسطية التي وُصفت بها هذه الأمة في الآية الكريمة، ورُتبت عليها شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقَبول شهادة الشاهد، فما

لم يكن عدلاً، فإنَّ شهادته مرفوضة مردودة، أما الشاهد العدل، والحكم العدل فهو المرضي بين الناس كافة.

وتفسير الوسط في الآية بالعدل ثابت عن النبيρ: فقد روى الإمام أحمد والبخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي ρ فسر الوسط هنا بالعدل[1]، والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى، فالعدل في الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين، أو الأطراف المتنازعة بدون ميل أو تحيز إلى أحدهما أو أحدها. وهو بعبارة أخرى: موازنة بين هذه الأطراف بحيث يعطَى كل منها حقه دون بخس ولا جَوْر عليه. ولا محاباة له، ومن ثم قال زهير في المدح:

همُ وسطٌ يرضى الأنامُ بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظَمِ

يصفهم بالعدل والقسط وعدم التحيُّز.

وقال المفسرون في قوله تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}** [القلم:28]، أي: أعدلهم[2]. يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره بقوله: إن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء، وعلى اعتدال[3].

ويقول المفسر أبو السعود: الوسط في الأصل اسم لما تستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة، لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفَيْ الإفراط والتفريط[4].

فالوسط يعني إذن العدل والاعتدال. وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو ولا إلى التقصير.

ب- الوسطية تعني الاستقامة:

---

[1]- رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3339)، وأحمد في المسند (11271)، والترمذي في تفسير القرآن (2961) عن أبي سعيد الخدري.

[2]- انظر: تفسير الطبري (193/12)، وتفسير ابن كثير (521/4)، وتفسير القرطبي (148/2).

[3]- انظر: تفسير الفخر الرازي (109/4،108) المطبعة المصرية 1354هـ (1935م).

[4]- تفسير أبي السعود (123/1) طبعة صبيح.

والوسطية تعني كذلك: استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف. فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: **{الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم}** هو –كما عبَّر أحد المفسرين– الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة: أن تكون الأمة المهدية إليه وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة[1].

ومن هنا علَّم الإسلام المسلم أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة. وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعيا ربه: **{اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}** [الفاتحة:6، 7].

والإسلام وحده ينفرد بهذه المزيَّة (الوسطية) دون غيره من الملل. التي حرفت وبدلت عن أصلها المنزل، والتي وضعها البشر بتصورهم الذاتي. جاء في التفسير المأثور التمثيل للمغضوب عليهم باليهود، وللضالين بالنصارى[2]. والمعنى في ذلك: أن كلا من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا، فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصارى ألَّهوهم ... اليهود أسرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في التحليل، حتى قالوا: كل شيء طيب للطيبين ... اليهود غلوا في الجانب المادي، والنصارى قصَّروا فيه ... اليهود تطرفوا في اعتبار الرسوم والطقوس في الشعائر والتعبدات، والنصارى تطرفوا في إلغائها.

وإنما اعتبر اليهود مغضوباً عليهم لما اقترفوا من موبقات، حتى إنهم تطاولوا على الله، وقالوا: يد الله مغلولة، واعتدوا على الأنبياء، فكذبوا منهم من كذبوا، وقتلوا منهم من قتلوا. وأما النصارى فإنهم تاهوا عن الحق، وشردوا عنه فيما اقتبسوه من

---

[1]– المصدر نفسه.

[2]– رواه أحمد في المسند (20351)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير صحابيه، ولا تضر جهالته، وأبو يعلى في المسند (101/13)، والبيهقي في الشعب (61/4)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى وإسناده صحيح (206/1).

وثنية الرومان وغيرها، فلهذا اعتبرهم ضالين. والإسلام يُعلِّم المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين، وأن يلتزم المنهج الوسط، أو الصراط المستقيم، الذي سار عليه كل مَنْ رضي الله عنهم، وأنعم عليهم من النبيّين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية هنا كلام جيد متين في وسطية الأمة المسلمة بعيدا عن غلوّ مَنْ قبلها وتقصيرهم، قاله في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح):

(وقد خصّ الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص ميّزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجاً، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين.

كما جعل أمّته خير أمّة أُخرجت للناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً.

فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه، من الأمر والنهي والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وأحلّ لهم الطيّبات وحرّم عليهم الخبائث.

لم يحرّم عليهم شيئا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحلّ لهم شيئا من الخبائث كما استحلتها النصارى.

ولم يضيّق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيّق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتى يقال في فضائل الراهب: (له أربعون سنة ما مسّ الماء)[1] ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه الصلاة السلام وأتباعه.

[1] - ذكر العلّامة أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين؟) من عجائب الرهبان وقسوتهم على أنفسهم ومن حولهم، وخصوصا في باب البعد عن النظافة والطهارة ما تقشعرّ منه الأبدان.

واليهود عندهم إذا حاضت المرأة، لا يواكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرّمون وطء الحائض.

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة. بل إذا أصاب ثوب أحد منهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم شيء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه[1].

وكذلك المسلمون وسط في الشريعة، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ، كما فعلت اليهود، ولا غيّروا شيئا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعاً لم يأذن به الله، كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق سبحانه متصفاً بخصائص المخلوق ونقائضه ومعايبه – من الفقر والبخل والعجز – كفعل اليهود، ولا المخلوق متّصفاً بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى. ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدا كفعل النصارى[2]). ا هـ

جـ الوسطية دليل الخيريَّة:

والوسطية كذلك دليل الخيريَّة، ومظهر الفضل والتميّز، في الماديات والمعنويات. ففي الأمور المادية نرى أفضل حبات العِقْد واسطته، ونرى رئيس القوم في الوسط، والأتباع من حوله ... وفي الأمور المعنوية نجد التوسط دائماً خيرا من التطرف.

ولهذا قال العرب في حِكَمهم: (خير الأمور الوسط)، وقال أرسطو: (الفضيلة وسط بين رذيلتين). ومن هنا قال ابن كثير في قوله تعالى: **{أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143]. الوسط ههنا: الخيار والأجود. كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً. ومنه: الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات[3]. ولا غرو أن يمدح الله أمّة الإسلام بالوسطية، ومدحها كذلك بالخيريّة، فقال مخاطبا لها في خاتمة كتبه: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ**

---

[1] – وكذلك مما خالف فيه النصارى: تذكية الحيوان، وإباحة أكل لحم الخنزير.

[2] - الجواب الصحيح (6،7/1) مطبعة المدني بمصر.

[3] – تفسير ابن كثير (190/1).

بِـاللَّهِ} [آل عمران:110]. فوصفها الله تعالى بالخيريّة، لأنها أمّة أُخرجت، لم تنبت بنفسها، بل أنبتها مُنبت وأخرجها مُخرج، وهو الله، وهي لم تخرج لنفسها، بل أُخرجت للناس، كل الناس، لا للغرب، ولا لأهل الشرق، لهداية الناس، ونفع الناس، وإصلاح الناس، وإسعاد الناس.

د- الوسطية تمثل الأمان:

كما أن الوسطية تُمثِّل منطقة الأمان، والبعد عن الخطر، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد أكثر من غيرها، بخلاف الوسط، فهو محمي ومحروس بما حوله، وفي هذا قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفًا

وكذلك شأن النظام الوسط، والمنهج الوسط، والأمة الوسط.

وكذلك شأن النظام الوسط، والمنهج الوسط، والأمة الوسط.

ولذلك نجد الحكم والامثال تحذّر من التطرف لأنه سبب الضياع، وتوصي بالتوسط لأنه سبب الحفظ والبقاء! فقالوا: لا تكن رطبا فتقصر، ولا جامدا فتكسر! فلا تكن حلوا فتبلع، ولا مرا فتلفظ!

هـ- الوسطية دليل القوة:

والوسطية أيضا دليل القوة، فالوسط هو مركز القوة، ألا ترى الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطاً بين ضعفين: ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة؟! وإليه الإشارة بقوله تعالى: {**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً**} [الروم:54]، والشمس في وسط النهار أقوى منها في أول النهار وآخره؟!

و- الوسطية مركز الوحدة:

والوسطية تمثِّل مركز الوحدة ونقطة التلاقي ... فعلى حين تتعدَّد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى، يبقى الوسط واحداً، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده، فهو المنتصف، وهو المركز. وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري والمعنوي على سواء.

ومركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده، والفكرة الوسط يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما، هي نقطة التوازن والاعتدال. كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتمياً كلما وجد التطرف، وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف. أما التوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة.

لهذه المزايا والفوائد التي ذكرناها للوسطية: حرصت على أن تكون إحدى الخصائص العامة للإسلام، وأن تتجلى في كل مقوِّماته بوضوح[1]، كما يتبيَّن لنا ذلك في الصفحات التالية.

---

[1] – انظر: كتابنا (الخصائص العامة للإسلام) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة في بيروت.

الفصل الثاني

مظاهر الوسطية في الإسلام

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا، فلا عجب أن تتجلَّى واضحة في كل جوانب الإسلام، نظرية وعملية، تربوية وتشريعية. كما بيَّنتُ ذلك في كتابي (الخصائص العامة للإسلام). فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصوُّر، وسط في التعبُّد والتنسُّك، وسط في الأخلاق والآداب، وسط في التشريع والنظام.

أولا: وسطيَّة الإسلام في الاعتقاد:

1. فهو وسط في الاعتقاد: بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد، فيصدقون بكل شيء، ويؤمنون بغير برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، ولا دلالة المعجزة. فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي، والبرهان اليقيني، وما عدا ذلك يرفضه، ويعدُّه من الأوهام والظنون التي وصف القرآن بها عقائد المشركين حين قال: **{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً}** [النجم:28]، نداؤه دائمًا لكل مخالفيه: **{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** [البقرة:111].

2. وهو وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، خانقين صوت الفطرة في صدورهم، مُتَحدِّين منطق العقل في رؤوسهم ... وبين الذين يُعدِّدون الآلهة، حتى عَبَدوا العجول والأبقار، وقدّسوا الجبال والأنهار، وعبدوا النبات والأشجار، وألَّهُوا الأوثان والأحجار! فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا احد، ليس كمثله شيء، ولا يعجزه شيء، وهو خالق كل شيء، وكل من عداه وما عداه: مخلوقات لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، لا لنفسها ولا لغيرها. فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ**

دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف:5]، **{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً}** [الفرقان:3].

3. وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده، وما عداه – مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد– خرافة ووهم، وهم الماديون الذين ينكرون كل ما وراء الحس، وبين الذين يعتبرون الكون بكل من فيه وما فيه وهمًا لا حقيقة له، وسرابًا بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. فليس هناك إلا وجود واحد هو الله، ولا شيء غيره. وهم القائلون بوحدة الوجود. فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها، ولكنه يَعبُر من هذه الحقيقة إلى حقيقة أكبر منها، وهي من كوَّنه ونظَّمه ودبَّر أمره، وهو الله تعالى، فهو الدليل على وجود الله، وإلا كان مخلوقا من دون خالق: **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً}** [آل عمران:190، 191].

4. وهو وسط بين الذين يُؤَلِّهون الإنسان، ويُضْفُون عليه خصائص الربوبية، ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كريشة في مهب الريح، أو دُمية يحرك خيوطها المجتمع، أو الاقتصاد أو القدر. فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مُكلَّف مسؤول، سيد في الكون، عبد لله، استخلفه في الأرض، ليعبده فيها، ويعمُرها ويُجمّلها، ويقيم فيها الحق والعدل. وهو الذي يصنع مصير نفسه بيده، وبما أودع الله فيه من طاقات، وما منحه من مواهب: **{مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}** [الإسراء:15]، وقادر على تغيير ما حوله بقدر ما يُغيّر ما بنفسه: **{إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** [الرعد:11].

5. وهو وسط بين الذين يُقدِّسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنوة للإله ... وبين الذين كذَّبوهم واتَّهموهم، وصبُّوا عليهم كؤوس العذاب. فالأنبياء بشرٌ مثلنا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ولكثير منهم أزواج وذريَّة، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق: أن الله مَنَّ عليهم بالوحي، وأيَّدهم بالمعجزات: **{قَالَتْ لَهُمْ**

رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:11].**

6. وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرًا لمعرفة حقائق الوجود، وإثبات القيم، ومعايير الحق والخير، وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام، أو النص الديني، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات. فالإسلام يؤمن بالعقل، ويدعوه للنظر والتفكر، وينكر عليه الجمود والتقليد، ويخاطبه بالأوامر والنواهي، ويكلفه فهمها والاستنباط منها، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود، وهما: وجود الله تعالى[1]، وصدق دعوى النبوة، ولكنه يؤمن بالوحي مكمِّلاً للعقل ومُعيناً له، فيما تضل فيه العقول وتختلف، وما تغلب عليه الأهواء، وهادياً له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو في مقدوره، من الغيبيَّات والسمعيَّات وطرائق التعبد لله، بما يحبه ويرضاه.

ثانيا: وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته، وشعائره: بين الأديان والنِّحل التي ألغت الجانب (الرباني) -جانب العبادة والتنسُّك والتألُّه- من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده حتى قالوا: إن بوذا سئل عن حكمة الإله، وأمر الإله فقال: أنا لا أعرف كثيراً عن حكمة الإله، ولكن أعرف كثيراً عن بؤس الإنسان! ... وبين الأديان والنِّحل التي طلبت من صفوة أتباعها التفرُّغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج، كالرهبانية النصرانية، التي حرَّمت على أتباعها الزواج، والتمتُّع بزينة الله التي أخرج لعباده، والطيِّبات من الرزق.

فالإسلام يطلب من المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلوات الخمس، أو في الأسبوع كصلاة الجمعة، أو في السنة كالصوم، أو في العمر مرة كالحج، فلا يُرهقه من أمره عُسراً بالتكاليف الشاقة المجهدة، ولا يدعه فارغاً من الصلة بالله، بل يجعله سائر يومه على موعد مع ربه، ليظلَّ دائماً موصولا بالله، غير مقطوع عن رضاه، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً، يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق

---

[1]- هذه الحقيقة الأولى والكبرى لم تثبت بطريق الوحي إلى رسول، فإن الوحي والرسالة فرع عن ثبوت المُوحِي والمُرسِل وهو الله، وإنما ثبتت هذه الحقيقة بضرورة العقل، وغريزة الفطرة معا. ولكن في مواجهة المنكرين لا تثبت إلا بالعقل.

الله، زارعاً، أو صانعاً، أو محترفاً، أو تاجراً، أو عاملاً في أي مجال، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها. وحسبنا هذا الحديث النبوي: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة صغير) فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها"[1]. فلم يغرسها ولن يأكل منها أحد؟ للإشارة إلى التعبّد بالعمل لذات العمل.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا: الآيات الآمرة بصلاة الجمعة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [الجمعة:9،10]. فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة، حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعيٌ إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وتركٌ للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة، ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال، فهو أساس الفلاح والنجاح.

ثالثا: وسطية الإسلام في الأخلاق:

1. والإسلام وسط في الأخلاق: بين غُلاة المثاليين الذين تخيَّلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غُلاة الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، حتى قال بعض الفلاسفة: إنه ذئب مقنّع! فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدُّوها شراً خالصاً، وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسانُ في نظر الإسلام مخلوقٌ مُركَّب: فيه العقل، وفيه الشهوة. فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك. قد هدي للنجدين، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، إما شاكراً وإما كفوراً. فيه استعداد للفجور، استعدادَه للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** [الشمس:7-10].

---

[1] – رواه أحمد في المسند (12512) والبخاري في الأدب المفرد (479) عن أنس.

2. وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان: بين النِّحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سجن في جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه، كالبرهمية والمانوية والرواقية والرهبانية وغيرها ... وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسداً محضاً، وكياناً مادياً صِرْفاً، لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأيّ نفحة سماوية.

أما الإنسان في الإسلام، فهو كيان روحيٌّ وماديٌّ، كما يشير إلى ذلك خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، فقد خلقه الله من تراب أو طين أو صلصال، وكلها تومئ إلى الأصل المادي لبدن الإنسان، ثم أودع الله في هذه المادة شيئاً آخر، هو سر تميُّز الإنسان، ومنبع كرامته، ومصدر تكريمه. وفيه يقول للملائكة: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}** [الحجر:29].

وما دام الإنسان مُؤلَّفا من قبضة الطين ونفخة الروح، أو بلفظ أخصر: من الروح والبدن، فإن لروحه عليه حقاً، ولبدنه عليه حقاً، وعليه أن يُعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، فلا يجوز أن يغفل عن جانبه الروحي حتى يصدأ ويظلم، ولا جانبه البدني حتى يضعف ويسقم. وبهذا يرفض الإسلام موقف عبَّاد البدن، الذين ليس لهم هدف إلا إشباع غرائزهم، ويرفض موقف الذين اعتبروا الجسد عدو الروح، ولا ترقى الروح وتصفو إلا بتعذيب البدن وتجويعه وإتعابه، وقد قامت على ذلك ديانات وفلسفات. ومن هنا كانت نصيحة الرسول لمن غلا في تعبّده: "إن لبدنك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا"[1].

3. والإسلام وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية: **{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** [الأنعام:29]، وبهذا غرقوا في الشهوات، وعبّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفاً يركضون وراءه غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة ... وهذا

---

[1] - متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (1975) ومسلم في الصيام (1159) كما رواه أحمد في المسند (6867) والنسائي في الصيام (2391) عن عبد الله بن عمرو.

شأن الماديين في كل زمان ومكان ... وبين الذين رفضوا هذا الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم، واعتبروها شراً يجب مقاومته، والفرار منه، فحرَّموا على أنفسهم طيباتها وزينتها، وفرضوا على أنفسهم العزلة عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها.

فالإسلام يعتبر الحياتين، ويجمع بين الحسنتين، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غُلاة المتدينين تحريم الزينة والطيّبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات، يقول الله تعالى في كتابه: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ}** [محمد:12]، ويقول تعالى: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ }** [الأعراف:31،32].

ويذكر القرآن: أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين فيقول: **{فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [آل عمران:148]، ويعلم المؤمنين هذا الدعاء القرآني الجامع لِحَسَنتي الدارين: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [البقرة:201]. وكذلك الدعاء النبوي:" اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر"[1].

رابعا: وسطية الإسلام في التشريع والنظم:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي. ومن تأمّل فيه وقارن بين الأمم المختلفة في ذلك وجده أبدا وسطا. وسنضرب لذلك بعض الأمثلة:

وسط في التحليل والتحريم:

1- رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2720) عن أبي هريرة.

فهو وسط في **التحليل والتحريم** بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المُحرَّمات، مما حرَّمه إسرائيل على نفسه، وممَّا حرَّمه الله على اليهود، جزاء بغيهم وظلمهم، كما قال الله تعالى: {**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**} [النساء:160،161]. وبين النصرانية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلَّت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله[1]. ومع هذا أعلن رجال المسيحية أنَّ كل شيء طاهر للطاهرين[2].

فالإسلام قد أحلَّ وحرَّم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حقِّ الله وحده، ولم يُحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يُحل إلا الطيب النافع، ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه: {**يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**} [الأعراف:157].

وقد وسَّع دائرة الحلال، وضيَّق دائرة الحرام، وشدَّد النكير على الذين حرَّموا ما أحلَّ الله، فقال تعالى: {**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**} [يونس:59]، وعاب على العرب ما تعبَّدوا به في جاهليتهم من تحريم بعض الأنعام، في حين استحلوا قتل أولادهم بغير حق، قال تعالى: {**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**} [الأنعام:140].

وسط في شؤون الأسرة:

والتشريع الإسلامي وسط في **شؤون الأسرة**، كما هو وسط في شؤونه كلها، وسط بين الذين شرعوا تعدّد الزوجات بغير عدد ولا قيْد، وبين الذين رفضوه وأنكروه

1- إنجيل متى (17/5).

2- رسالة بولس إلى تيطس (15/1).

ولو اقْتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة، ناهيك عن الذين رفضوا الزواج كله من أصله.

فقد شرع الإسلام: الزواج بامرأةٍ أخرى بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق، والثقة بالعدل بين الزوجتين، فإن خاف ألا يعدل، لزمه الاقتصار على واحدة، كما قال تعالى: **{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً}** [النساء:3]. وقد كان التعدُّد في الجاهلية بلا قَيْد ولا شرط، فوضع الإسلام له شرطاً وهو العدل، ووضع له قيداً، وهو ألا يزيد على أربع بحال، على خلاف ما في (العهد القديم) من أن داوود كان له ثلاثمائة امرأة، وسليمان كان له أكثر.

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرَّموا الطلاق، لأيِّ سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، كالكاثوليك، وقريب منهم الذين حرَّموه إلا لعلة الزنى والخيانة الزوجية كالأرثوذكس ... وبين الذين أَرْخَوا العِنان في أمر الطلاق، فلم يقيّدوه بقَيْد، أو شرط، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل، كان أمره بيده، وبذلك سهل هدم الحياة الزوجية بأوهى سبب، وأصبح هذا الميثاق الغليظ أوهى من بيت العنكبوت.

إنما شرع الإسلام الطلاق، عندما تخفق كل وسائل العلاج الأخرى، ولا يُجْدي تحكيم ولا إصلاح، ومع هذا فهو أبغض الحلال إلى الله، ويستطيع المُطلِّق مرة ومرة أن يراجع مطلَّقته ويعيدها إلى حظيرة الزوجية من جديد. كما قال تعالى: **{الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}** [البقرة:229].

وسط في السّلم والحرب:

وهو وسط في قضية السلام والحرب: بين النصرانية التي تدعو إلى السلام، ولو مع من اعتدى عليك في نفسك أو مالك، فليس المطلوب منك أن تمنعه وتدافع عن نفسك وأهلك وحقك ومالك، بل الذي يأمر به المسيح هنا بصريح عبارته ألا تقاوم الشر بالشر، ولا السيئة بالسيئة.

وهذا ما صرح به الإنجيل حيث يقول: (لا تقاوموا الشر بالشر، باركوا لاعنكم، وأحبّوا أعدائكم. من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر، ومن أخذ قميصك، فاعطه إزارك، ومن سخّرك لتمش معه ميلا، فامش معه ميلين)[1].

وبين اليهودية التي شعارها القوة والعنف في مقابلة الخصوم والأعداء، بل إن التوراة لتدعو إلى إبادة الأعداء واستئصالهم، حتى لا يبقى لهم من باقية!

فالتوراة تقول بالنسبة للبلاد البعيدة: ادعهم إلى الصلح، فإن هم استجابوا لدعوتك ولم يصبحون عبيدا لك رجالهم ونسائهم، وصغارهم وكبارهم، وأما ديارهم دوأرضهم وممتلكاتهم فكلها تصبح غنيمة لك، أعطاها لك الرب الملك.

وأما البلاد القريبة – ويسمّونها أرض الموعد – ويعنون بها أرض فلسطين ومن سكنها من أقوام، فإن التوراة تأمر أن تباد عن بكرة أبيها، ولا تستبقي بها نسمة حيّة. هكذا أمر الرب إليك!!

أما الإسلام فقد وقف هنا موقفا وسطا بين سماحة النصرانية ومسالمتها المفرطة، وقسوة اليهودية وعنفها المتجبّر الذي لا يرحم. فأجاز المعاملة بالمثل، ومقابلة العدوان بالعدوان، وهي مرتبة (العدل) وشرع العفو والمسامحة عند التمكّن والقدرة وهي مرتبة (الفضل) أو (الإحسان).

وفي هذا يقول القرآن: {**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**} [الشورى:39،40].

ويعود لذلك مرة أخرى فيقول: {**وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**} [الشورى:41-43].

[1] - انظر: كتابنا (فقه الجهاد) نشر مكتبة وهبة، وكتابنا (العنف في الإسلام) نشر دار الشروق.

وإذا دخل الإسلام الحرب، فإنما يدخلها مضطرا للدفاع عن الحرمات والمقدّسات والدماء والأموال والأعراض، كما قال تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ}** [البقرة:216]. وإذا انتهت المعركة بغير دماء وقتال علّق القرآن بقوله: **{وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}** [الأحزاب:25].

على أن الحرب لها أحكامها الشرعية وأصولها الأخلاقية، التي لا التي لا تسمح بقتل من لا يقاتل، ولهذا يحرم قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء والرهبان في الصوامع وقتالهم.

ولا يجوز قطع شجر مثمر، ولا تخريب عامر، ولا فساد في الأرض، إلى آخر آداب الحرب وأخلاقياتها التي عرفت عند المسلمين دون غيرهم من الأمم[1].

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين (الليبراليين) أو (الرأسماليين) الذين يُدلِّلون الفرد على حساب المجتمع، بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها، وقلة ما يفرض عليه من واجبات يسأل عنها، فهو دائما يقول: لي، وقلما يقول: عليَّ ... وبين الماركسيين والجماعيين الذين يضخِّمون دور المجتمع، بالضغط على الفرد، والتقليل من حقوقه، والحجر على حريته، ومصادرة نوازعه الذاتية. فالأولون أعطوه حقَّ التملك المطلق بلا قيود ولا ضوابط ولا تكاليف تذكر، تحد من طغيان التملك، ولاسيما إذا اتسع، والآخرون يحرمونه من التملك، ويدعونه كأنما هو أجير لدى الدولة أو كأنهم يعتبرونه كما قال القرآن: **{عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}** [النحل:75]، ولماذا لا يقدر على شيء؟ لأنه لا يملك أي شيء.

التوازن بين الفرديَّة والجماعيَّة:

[1] - انظر: كتابنا (فقه الجهاد) نشر مكتبة وهبة، وكتابنا (العنف في الإسلام) نشر دار الشروق.

وفي النظام الإسلامي تلتقي الفرديَّة والجماعيَّة في صورة مُتَّزنة رائعة، تتوازن فيها حريَّة الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، وتتوزَّع فيها المغانم والتَّبِعات بالقسطاس المستقيم.

تخبط الفلسفات القديمة وتناقضها في القضية:

لقد تخبَّطت الفلسفات والمذاهب من قديم، في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارئ مفروض عليه، لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد؟ والفرد له كيانه المستقل وشخصيته المتفردة، ومواهبه وملكاته وحوافزه. أو المجتمع هو الأساس والفرد نافلة، لأن الفرد بدون المجتمع مادة غفل (خام)، والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورتها، فالمجتمع هو الذي يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك؟ وبغير المجتمع لا يملك الفرد أن يبيع أو يشتري أو ينتج أو يربح؟

من الناس مَن جَنَح إلى هذا، ومنهم مَن مال إلى ذلك، واحتدَّ الخلاف بين الفلاسفة والمشرِّعين والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين في هذه القضية من قديم، فلم يصلوا إلى نتيجة. كان (أرسطو) يؤمن بفردية الإنسان، ويُحبِّذ النظام الذي يقوم على الفرديَّة، وكان أستاذه (أفلاطون) يؤمن بالجماعية –الاشتراكية– كما يتَّضح ذلك في كتابه (الجمهورية).

وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية – أشهر الفلسفات البشرية القديمة– أن تَحُلَّ هذه العقدة، وأن تخرج الناس من هذه الحَيْرة، كشأن الفلسفة دائماً في كل القضايا الكبيرة، تُعطي الرأي وضدَّه، ولا يكاد أقطابها يتَّفقون على حقيقة، حتى قال أحد أساتذتها[1]: الفلسفة لا رأي لها!! لأنها تقول الشيء ونقيضه!

مذهبان متناقضان في فارس القديمة:

[1] – هو أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين، وشيخ الأزهر بعد ذلك.

وفي فارس – أو في إيران القديمة – ظهر مذهبان متناقضان: أحدهما فردي ويدعو إلى التقشُّف والزهد، والامتناع عن الزواج، ليعجِّل الإنسان بفناء العالم، الذي يعُجُّ بالشرور والآلام، وهذا هو مذهب (ماني) ويمثل أقصى الفردية. وقام في مقابله مذهب آخر يمثل أقصى (الجماعية) هو مذهب (مزدك) الذي دعا إلى شيوعية الأموال والنساء، وتبعه كثير من الغوغاء، الذين عاثوا في الأرض فساداً، وضجَّت منهم البلاد والعباد.

تناقض اليهودية والنصرانية في القضية:

وقد جاءت الأديان السماوية – منها اليهودية والنصرانية – لتقيم التوازن في الحياة، والقسط بين الناس، كما قرَّر ذلك القرآن الكريم، {**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** } [الحديد:25]، ولكن أتباعها سرعان ما حرَّفوها وبدَّلوا كلمات الله، وغيَّروا شرائع الله، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله. ففقدت هذه الأديان بذلك كثيراً من وظيفتها في الحياة، حين فقدت ميزتها الأولى وهي: ربّانية المصدر. وتركت لرجال كهنوتها يُحلّون لها ويُحرّمون عليها دون إذن من الله تعالى:{**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة:31).**

لهذا، لم تُقدِّم الأديان السابقة قبل الإسلام حلاًّ لهذه المشكلة، فقد كان اليهود الذين تفرَّقوا في الأرض يؤيدون الفردية، بل الفردية الطاغية، بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية والعزلة عن المجتمعات: {**وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**} [النساء:161]، كما سجَّل عليهم القرآن العزيز. وأجازت لهم توراتهم أن يبيحوا لأنفسهم من المعاملات ما لا يباح لغيرهم، مثل أن يعاملوا غيرهم بالربا، على حين لا يعامل بعضهم بعضا بالربا، كما في سفر (التثنية)[1] بناء على فلسفتهم الخبيثة في استحلال ما عند غيرهم من أموال وحرمات، كما نقله القرآن عنهم بقوله: {**وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**} [آل عمران:75].

---

1 – سفر التثنية: 23.

فهم وحدهم أصحاب الكتاب وحملة التوراة، وكل الأمم الأخرى أميون لا يستحقون الاحترام، بل لا يستحقون الحياة.

وجاءت المسيحية أيضاً تهتم بنجاة الفرد وتخليصه من الخطيئة الموروثة عن أبيه آدم، قبل كل شيء، تاركة شأن المجتمع لقيصر، ودولة قيصر، أو على الأقل[1]، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح، حين قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله[2] !! فقسم الحياة بين الله وقيصر، وجعل قيصر شريكاً لله الواحد القهار.

تناقض المذاهب المعاصرة وصراعها حول القضية:

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع، فماذا نرى؟

إنَّ عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي. فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي، فهي تُدلِّله بإعطاء الحقوق الكثيرة، التي تكاد تكون مطلقة، فله حرية التملك، وحرية العمل، وحرية القول، وحرية التصرف، وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه، وإضرار غيره، مادام يستعمل حقه في (الحرية الشخصية)، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمُعْوِزين، ولا سلطان لأحد عليه، لأنه (حر فيما يملك)، أشبه بما حكى القرآن عن قوم شعيب الذين أنكروا عليه أن ينهاهم عن تطفيف الكيل والميزان، وأن يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يعثوا في الأرض مفسدين: **{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ}** [هود:87]، فهم يرون أن المالك صاحب الحق المطلق في ماله، يتصرف فيه كيف يشاء، ولا يطالب بشيء.

---

1 - انظر: محاضرة الدكتور السلجوقي: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ضمن الموسم الثقافي الأول للإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر.

2- إنجيل لوقا (25/20)، ومتى (21/22).

والمذاهب الاشتراكية – وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية– تقوم على الحط من قيمة الفرد، والتقليل من حقوقه، والإكثار من واجباته، واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل. وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك (الآلة) الجبارة، التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم، وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب، وربما تركزت في النهاية – في حقيقة الأمر – في شخص واحد، هو زعيم الحزب فحسب، أو هو الدكتاتور!!

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات، وليس له حق المعارضة، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته، وإذا حدَّثتْه نفسه بالنقد العلني أو الخفي، فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!

موقف الإسلام الفريد:

ذلك هو شأن فلسفات البشر، ومذاهب البشر، والديانات التي حرَّفها البشر، وموقفها من الفردية والجماعية، فماذا كان موقف الإسلام؟

لقد كان موقفه فريدا حقا، لم يَمِل مع هؤلاء ولا هؤلاء، ولم يتطرف إلى اليمين ولا إلى اليسار.

إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الأحكام والنظم ما يُعطِّل فطرة الإنسان أو يصادمها. وقد خلقه سبحانه على طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد. فالفردية جزء أصيل في كيانه، ولهذا يحب ذاته، ويميل إلى إثباتها وإبرازها، ويرغب في الاستقلال بشؤونه الخاصة.

ومع هذا نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره، ولهذا عُدَّ السجن الانفرادي عقوبة قاسية للإنسان، ولو كان يتمتع داخله بما لذَّ وطاب من الطعام والشراب. ولهذا قال الحكماء من قديم: الإنسان مدني بطبعه، وقال فلاسفة الاجتماع المحدثون: الإنسان حيوان اجتماعي.

والنظام الصالح هو الذي يراعي هذين الجانبين في حياة البشر: الفردية والجماعية، ولا يُطغي أحدهما على الآخر. فلا عجب أن جاء الإسلام –وهو دين الفطرة– نظاماً وسطاً عدلاً، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد، لا يُدلِّل الفرد بكثرة الحقوق التي تُمنح له، ولا يُرهقه بكثرة الواجبات التي تُلقى عليه، وإنما يكلِّفه من الواجبات في حدود وُسْعه، دون حرج ولا إعنات، ويقرِّر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويُلبِّي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته، ولا يجور على غيره.

ولذلك تطبيقات كثيرة، وأحكام شتّى، تمثل هذا التوازن، أو هذه الوسطية: في حياة الفرد، وفي حياة الأسرة، وفي حياة المجتمع، وفي حياة الأمة، وفي حياة الدولة، وفي العلاقات الدولية والإنسانية بصافة عامة. لا يتسع المجال لإيرادها هنا. فلتراجع في مظانّها[1].

---

1 – انظر: كتابنا (الخصائص العامة للإسلام) فصل: (الوسطية) صـ 125 وما بعدها. نشر مكتبة وهبة.

الفصل الثالث

منزلة الوسطية في الإسلام

1 - القرآن يشيد بالوسطية ويهدي إليها:

لا شك أن المصدر الأول للوسطية هو المصدر الأول لمعرفة الإسلام كله، أصوله وفروعه، كلياته وجزئياته، عقائده وأعماله. وذلك هو القرآن الكريم.

ومن قرأ القرآن العظيم وجد هذه الوسطية واضحة بينة في كثير من آياته في القرآن المكي والمدني.

وقد ذكر الحافظ السيوطي في كتابه الشهير **(**الإتقان في علوم القرآن**)**: أن أحد العلماء كان يستخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فقيل له: هل تجد في كتاب الله المثل القائل: خير الأمور أوسطها؟ قال: نعم في أربع مواضع.

1 – في سورة البقرة، في قوله تعالى في وصف البقرة المطلوبة: **{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}** [البقرة:68].

2 – وفي سورة الإسراء: **{وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً}** [الإسراء:29].

3 – وفي نفس السورة: **{وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}** [الإسراء:110].

4 – وفي سورة الفرقان: **{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}** [الفرقان:67].

وأستطيع أن أضيف إلى ذلك آيات أخر:

5 – وفي سورة القصص: **{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}** [القصص:77].

6 – وفي سورة الرحمن: **{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن:7،8،9].

7 – وفي سورة البقرة: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [البقرة:201].

8 – وفي السورة نفسها: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** [البقرة:143].

9– وفي سورة الفاتحة: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}** [الفاتحة:6،7].

10 – وفي سورة الأنعام: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}** [الأنعام:153].

11 – وفي سورة الكهف **{وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}** [الكهف:28].

12 – وفي سورة الأعراف: **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** إلى أن قال: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}** [الأعراف:31–33]، فأثبتت هذه الآيات وسطية الإسلام في التحليل والتحريم، خلافا لليهود الذين أسرفوا في التحريم، كما عاقبهم الله

بتحريم طيّبات أحلّت لهم. وللنصارى الذين أسرفوا في التحليل، وإن دخلوا في التحريم أيضا بابتداع الرهبانية التي حرّمت الطيبات وحرّمت الزواج.

كما ينكر القرآن طريق الغلو والتجاوز، سواء كان في العقائد أم الأعمال، كما قال في خطاب أهل الكتاب: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ}** [النساء:171]. وهذا غلو في العقائد، وفي سورة أخرى يقول: **{مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ}** [المائدة:75]. ثم يقول: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}** [المائدة:77]. وهذا غلو يشمل العقائد والأعمال.

وبيّن القرآن أن الرسل جميعاً جاءوا بهذه الوسطية؛ لأنهم جاءوا بالقسط، أي العدل الذي قامت به السماوات والأرض **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}** [الحديد:25]. ومنه: التوحيد؛ لأنه قمّة العدل، فإن الشرك ظلم عظيم. ولهذا كان النداء الأول لكل رسول إلى قومه، أن **{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}** [الأعراف:59]. كما جاءوا جميعا برسالة الإصلاح وعمارة الأرض، قال صالح لقومه: **{هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}** [هود:61] وقال لقومه: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}** [الشعراء:150-152].

وقال شعيب: **{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}** [هود:88].

وقال موسى لقومه: **{كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}** [البقرة:60].

وقال موسى لأخيه هارون: {**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**} [الأعراف:142].

وقال الله تعالى لأمة محمد: {**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**} [الأعراف:56].

فكلّ رسالات السماء دعت إلى الإصلاح، ونهت عن الإفساد، واعتبرته من (الإسراف) وهو البعد عن الوسط المحمود.

2 – السنّة تؤكد الدعوة إلى الوسطية وتثبّتها:

ومن تدبّر السنة النبوية الصحيحة، والسيرة النبوية الثابتة، تبيّن له أنها على منهج القرآن نفسه في تبنّي الوسطية المتوازنة، وتأكيد مكانتها، وتثبيت ركائزها في الحياة الإسلامية كلها، خاصة وعامة، فردية وأسرية، واجتماعية وسياسية.

ونرى وسطية السنة تتجلى في مظاهر شتى:

أ – في رفض مظاهر الرهبانية وما تمثل من غلو وتشديد على النفس، في الحرمان من طيبات الحياة، ومن الرواج، ومن العمل لعمارة الأرض. وقد روى الطبراني عن عثمان بن مظعون أنه قال: يا رسول الله، ائذن لي في الاختصاء (ليقطع الشهوة الجنسية)، فقال له: "يا عثمان إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنفية السمحة"[1]، وروى البيهقي عن أبي أمامة: "تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، ولا تكونوا كرهبانية النصارى"[2]. وفي الصحيح: أن سعد بن أبي وقاص قال: ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا[3]. وكذلك لم يأذن لابن مسعود ولا لأبي هريرة بالاختصاء. وقاوم بشدة النزعة إلى الغلو والامتناع عن الطيبات، مثل أكل اللحم ونحوه، فأبى عليهم. وأنزل

---

[1] – رواه الطبراني في الكبير (62/6) عن عثمان بن مظعون، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن زكريا وهو ضعيف.

[2] – رواه البيهقي في النكاح (78/7) وصححه الألباني في صحيح الجامع (2941).

[3] – متفق عليه: رواه البخاري

الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}** [المائدة:87].

ب – كما رفض التزمّت في الموقف من اللهو والترويح والضحك والمزاح ونحوها، فكان عليه السلام يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ورويت عنه مزحات في غاية من اللطف، وكان أصحابه يتمازحون ويتضاحكون، فإذا جد الجد كانوا كآساد الشرى[1].

جـ – وأذن في الأعراس والأعياد والمناسبات السارة أن يروّحوا عن أنفسهم ببعض الألحان والأغاني والرقصات، حتى إنه سمح للحبشة أن يرقصوا بحرابهم يوم العيد في مسجده الشريف، وقال: "حتى يعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني بعثت بحنيفية سمحة"[2]، فهي حنيفية في العقيدة، وسمحة في الأحكام.

وأنكر عليهم أن يزُفّوا عروسا إلى زوجها دون أن يكون معها لهو.

د – وأحلّ لهم أن يتجمّلوا مما يحبّون من الملابس والطيب وغيرها، قائلا: "إن الله جميل يحب الجمال"[3].

وأنكر على بعض أصحابه ممن آتاه الله المال أن لا ترى آثار النعمة عليه في ملبسه ومظهره، وقال: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[4].

هـ – وكان عليه الصلاة والسلام يقاوم نزعة التشديد على النفس في التعبّد صياما وقياما وذكرا وتلاوة، بحيث يجور على حقّ نفسه، وحقّ أهله، وحقّ مجتمعه. ويرى أن العدل أن يعطى كل ذي حق حقه، بلا طغيان ولا إخسار في الميزان، كما فعل ذلك مع عبد الله بن عمرو حين بالغ في التعبد فقال له: "إن لبدنك عليك حقا،

---

[1] - انظر: الدين والضحك من كتابنا (فتاوى معاصرة) جـ 2 وكتابنا (فقه اللهو والترويح).

[2] – رواه أحمد في المسند (24855)، وقال مخرّجوه: حديث قوي وهذا سند حسن،

[3] – رواه مسلم في الإيمان (91)، وأحمد في المسند (3789)، والترمذي في البر والصلة (1999) عن ابن مسعود.

[4] – الترمذي في الأدب (2819)، وقال: حديث حسن، والحاكم في الأطعمة (135/4)، وصحّح إسناده ووافقه الذّهبي، والطبراني في الكبير (135/18)، والبيهقي في الشعب (6196) عن عبد الله بن عمرو، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (1887).

وإن لعينك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا"[1]. وفي رواية للترمذي: "فاعط كل ذي حق حقه"[2].

كما ينكر على من يرفض رخصة الله له إذا كان مسافراً أو مريضاً، ومَنْ حقّه أن يفطر، ويقضي عدة من أيام أخر.

و – ولا تكاد توجد كلمة (وسط) في السنّة[3]، ولكن توجد كلمة بديلة عنها، وهي كلمة (القصد) ومعناها: الاعتدال والتوسط، كما في القرآن في وصايا لقمان لابنه: **{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}** [لقمان:19] أي أمشي مشياً معتدلاً بين الهرولة والبطء. من ذلك الحديث الصحيح: "فسددوا وقاربوا وأبشروا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا "[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى بعض الناس يطيل في العبادة: "عليكم هدياً قاصداً – ثلاث مرات – فإنه من يشادّ الدين يغلبه"[5]. ومعنى (قاصدا) أي وسطاً معتدلاً.

عن جابر ابن سَمُرة قال: كنت أصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الصلوات، فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا[6]. أي ليست بالطويلة المملّة، ولا بالقصيرة المخلّة.

وجاءت عدة أحاديث ما بين صحيح وحسن، تثني على القصد في الفقر والغنى، أي التوسط والاعتدال فيه، كما في حديث عمار بن ياسر: "وأسألك القصد في الفقر والغنى"[7].

---

[1] – سبق تخريجه.

[2] – رواه البخاري في الصوم (1968)، والترمذي في الزهد (2413) عن أبي جحيفة عن أبيه.

[3] - إنما قلنا: لا تكاد توجد؛ لأنه وجد بالفعل بعض أحاديث، مثل حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: الوسط العدل {جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:143]. والحديث سبق تخريجه.

[4] - رواه البخاري في الرقاق (6463)، وأحمد في المسند (10677) عن أبي هريرة.

[5] – رواه أحمد في المسند (19786)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح، وابن خزيمة في الصلاة (199/2)، والحاكم في صلاة التطوع(312/1) وصحّح إسناده وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في الشعب (401/3) عن بريدة الأسلمي.

[6] – رواه مسلم في الجمعة (866)، وأحمد في المسند (20885)، والترمذي (507)، والنسائي (1418)، كلاهما في الجمعة، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (1106) عن جابر.

7 – رواه النسائي في الصلاة (1305)، وابن حبان في الصلاة (1971)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1301).

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات! شحّ مطاع، وهوى متّبع، و إعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضا والغضب"[1].

وعن حذيفة قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "ما أحسن القصد في الغنى، وأحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة[2].

ز – وعن عبد الرحمن بن شبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأوا القرآن واعملوا به، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به"[3].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط"[4].

وهذان الحديثان أصل مهم في مدح الوسطية وتفسيرها، وأنها بين الغلو والجفاء كما جاء في القرآن، ومثله في السنة.

ح – وكانت التوجيهات النبوية كلها تحثّ على القصد والاعتدال، مراعاة للطاقة الإنسانية، وحتى لا يملّ المكلّف وينقطع نهائيا في وسط الطريق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا"[5].

---

[1] - رواه الطبراني في الأوسط (5452)، والبيهقي في الشعب (745)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (3039).

[2] – رواه البزار في المسند (2946)، وقال الحافظ ابن حجر في زوائده: إسناده حسن (324)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (4984).

3 - رواه أحمد في المسند (15529)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح وهذا إسناد قوي، والطبراني في الأوسط (2574)، وأبو يعلى في مسنده (1518)، والبيهقي السنن (17/2) عن عبد الرحمن بن شبل.

4 – رواه أبو داود في الأدب (4845)، والبزار في مسنده (3070)، والبيهقي في الكبرى (163/8) مرفوعا، وحسّن إسناده: العراقي في تخريج الإحياء (196/2)، وابن حجر في تلخيص الحبير (277/2)، وحسنه النووي في رياض الصالحين (191) باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل، والذهبي في الميزان (416/7) في ترجمة أبو كنانة، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (2199). وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (371/4): ما مثله صُحِّح. ورواه ابن المبارك (388) وابن أبي شيبة في البيوع والأقضية (22353)، والبخاري في الأدب المفرد (130/1) موقوفا.

[5] – رواه البخاري في الإيمان (39)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (5034) عن أبي هريرة.

وقال: "عليكم من العمل ما تطيقونه، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا"[1].

وقال لمعاذ حين أطال بالناس الصلاة: " أفتّان أنت يا معاذ؟"[2] كرّرها ثلاثا.

وقال: "هلك المتنطّعون"[3] كرّرها ثلاثا.

وعن أنس قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[4].

ساعة وساعة:

وقال صلى الله عليه وسلم لحنظلة، حين جاءه يعدو، وهو يقول: نافق حنظلة! نافق حنظلة! وذلك لأنه في بيته ومع أولاده يكون في حالة غير الحالة من السمو الروحي التي يكون عليها مع رسول الله. فقال له النبي: "والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة"[5] كرّرها ثلاث مرات. أو كما يقول المثل: ساعة لقلبك، وساعة لربك. على نحو ما حكى الأصمعي: أنه رأى فتاة في البادية تصلي في خشوخ على سجادتها، فلمّا فرغت من الصلاة، قامت إلى مرآتها تتجمّل وتتعطّر. فقلت لها: أين هذا من هذا؟ فأنشدت:

ولله منّي جانب لا أضيّعه ... وللهو مني والبطالة جانب!

---

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في اللباس (584)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (782)، كما رواه أحمد في المسند (24540)، وأبو داود في الصلاة (1368)، والنسائي في القبلة (762)، وابن ماجه في الزهد (4238).

[2] – متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (701)، ومسلم في الصلاة (465)، كما رواه أحمد في المسند (14190)، وأبو داود في الصلاة (790)، والنسائي في الإمامة (835) عن جابر.

[3] – رواه مسلم في العلم (2670)، وأحمد في المسند (3655)، وأبو داود في السنة (4608) عن ابن مسعود.

[4] – متفق عليه: رواه البخاري (5063)، ومسلم (1401) كلاهما في النكاح، كما رواه أحمد في المسند (13534)، والنسائي في النكاح (3217)، عن أنس.

[5] – رواه مسلم في التوبة (2750)، وأحمد في المسند (19045)، وابن ماجه في الزهد (4239) والترمذي في صفة القيامة (2514) عن حنظلة بن الربيع.

قال: فعرفت أنها امرأة صالحة لها زوج تتجمّل له.

قيّدها وتوكل:

ط – كما حرص الرسول الكريم أن يعلم المؤمنين برسالته: الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم للأعرابي في شأن ناقته حين قال له: أرسلها وأتوكل أم أقيّدها وأتوكل؟ فقال: "قيّدها وتوكل"[1] فجمع بين الأسباب المادية والأسباب الروحية.

3- الصحابة وتابعوهم بإحسان يدعون إلى الوسطية:

وإذا كان الرسول الكريم يدعو إلى الوسطية، فلا غرو أن نجد صحابته من بعده يدعون إليها. وكيف لا، وهم تلاميذ المدرسة المحمدية المخلصون؟ وقد اتخذوا رسولهم أسوة حسنة، كما قال الله لهم: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}** [الأحزاب:21]. وقال تعالى: **{وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [الأعراف:158]. فلم يكونوا يحبون أن يحيدوا عن سنّته قيد شعرة.

فيروى عن علي بن أبي طالب قوله: (خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي!)[2] ذكره الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (غريب الحديث). ونقل عن أبي عبيدة (اللغوي الشهير): إن النمط الطريقة، يقال الزم هذا النمط. قال: والنمط أيضا الضرب من الضروب، والنوع من الأنواع. يقال: ليس هذا من ذلك النمط، أي من ذلك النوع. قال: والمعنى الذي أراده عليّ (رضي الله عنه): أنه كره الغلو والتقصير، كالحديث الآخر، حين ذكر حامل القرآن، فقال: غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه[3]. فالغالي فيه هو المتعمق، حتى يخرجه إلى إكفار الناس، لنحو من مذهب الخوارج، وأهل البدع، والجافي عنه: التارك له وللعمل به، ولكنه القصد من ذلك.

---

[1] - رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (2517)، بلفظ: "أعقلها وتوكل"، وقال: حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو نعيم في الحلية (390/8)، عن أنس، ورواه ابن حبان في الرقائق (510/2)، وقال الأرناؤوط: حديث حسن، والحاكم في معرفة الصحابة (623/3)، وقال الذهبي: سنده جيد، والبيهقي في الشعب (79/2)، عن عمرو بن أمية، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (1068).

[2] – رواه ابن أبي شيبة في الزهد (35639)، وأبو عبيد في غريب الحديث (483/3،482).

[3] – سبق تخريجه.

وقال علي أيضا: (ألا أنبّئكم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يؤيس عباد الله من روح الله، ولم يؤمّنهم من مكره)[1].

وعن عبد الله بن عمرو: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)[2].

وعن ابن عباس: (رحم الله من حفظ لسانه، وعرف زمانه، واستقامت طريقته). وقد روي مرفوعا وفي سنده كذاب[3]، وحسبه أنه يرقى إلى صحابي أو تابعي. وهو يعبّر عمّا يسمّونه الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

وكان عبد الله بن عباس يقول: القصد والتُّؤَدَة وحُسْنُ السَّمْت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة[4].

وعن أبي قلابة أن رجلا قال لأبي الدرداء: ان إخوانك من أهل الكوفة من أهل الذكر يقرئونك السلام! فقال: وعليهم السلام. ومرهم فليعطوا القرآن خزائمه، فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويجنّبهم الجور والحزونة[5].

وقال عبد الله بن مسعود: (من كان مُستناً فليستنّ بمن قد مات، فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[6].

وقال حذيفة بن اليمان: يا معشر القراء استقيموا، فقد سبقتم سبقا بعيدا (أي بجمعكم بين العلم والعمل)، فإن أخذتم يمينا وشمالا، فقد ضللتم ضلالاً بعيداً[7].

---

[1] – رواه أبو نعيم في الحلية (77/1) عن علي.

[2] – رواه الحارث في المسند كتاب الزهد (983/2).

[3] – ذكره السيوطي في الجامع الصغير مرفوعا (431/1) عن ابن عباس، وقال المناوي: فيه محمد بن زياد اليشكري الميموني، قال الذهبي في الضعفاء: قال أحمد: كذاب خبيث يضع الحديث، وقال الدارقطني: كذاب (38/4).

[4] – رواه مالك في الموطأ بلاغا باب ما جاء في المتحابين في الله (3508).

[5] – رواه الدارمي (3330)، وقال محققه: إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو قلابة عبد الله بن زيد لم يدرك أبا الدرداء، ورواه عبد الرزاق (5996)، وابن أبي شيبة (30790) ثلاثتهم في فضائل الأعمال، عن أبي قلابة.

[6] – رواه أبو نعيم في الحلية (305/1).

[7] – رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (7282).

ومن أقوال ابن مسعود أيضا: (الاقتصاد – وفي رواية: القصد – في السنة خير من الاجتهاد في البدعة)[1] فالوسطية هنا تعني: اجتناب البدعة وتركها، ولو عملت قليلا، وليس الوقوف وسطا بين السنة والبدعة.

وعن أبي بن كعب قال: (عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل و السنّة، ذكر الله في نفسه، ففاضت عيناه من خشية ربه، فيعذبه الله أبدا! وما على الأرض من عبد على السبيل والسّنة، ذكر الله في نفسه، فاقشعر جلده من خشية الله، إلاّ كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها، فهي كذلك إذا أصابتها ريح شديدة، فتحاتّ عنها ورقها، إلا حط الله خطاياه، كما تحات عن الشجرة ورقها. وإن اقتصاداً في سبيل وسنّة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، وموافقة بدعة، فانظروا أن يكون عملكم، إن كان اجتهاداً واقتصاداً، أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وسنتهم)[2].

وكان عمر بن عبد العزيز يخطب يقول: إن من أحب الأمور إلى الله القصدَ في الجِدة، والعفوَ في المَقدِرة، والرفقَ في الولاية، وما رَفَقَ عبدٌ بعبد في الدنيا إلا رفَقَ الله به يوم القيامة[3].

وعن الحسن قال: (سنتكم – والله الذي لا إله إلا هو – بينهما: بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في أترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا)[4].

وقال أيضا: اطلبوا العلم طلباً لا يضرّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضرّ بالعلم، فإنّ العامل بغير علم يُفسد أكثر ممّا يُصلح[5]. وإن قوماً طلبوا العبادة قبل

---

[1] – رواه الدارمي في المقدمة (217)، وقال محققه: إسناده جيد.، والحاكم في العلم موقوفا (103/1)، وصحّح إسناده على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن كتاب الحيض (19/3).

[2] – رواه ابن أبي شيبة في الزهد (36675).

[3] – رواه ابن أبي شيبة في الزهد (36236).

[4] – رواه الدارمي في المقدمة (216).

[5] – رواه ابن أبي شيبة في الزهد (36340).

العلم، فخرجوا بأسيافهم على أمة محمد[1]! يعني بهم: الخوارج الذين استحلّوا دماء المسلمين، نتيجة لخلل في فكرهم، ونقص في علمهم، لا لفساد في ضمائرهم.

وقال مطرِّف بن عبد الله بن الشخير من كبار التابعين: خير الأمور أوساطها[2].

4- علماء الأمّة وأئمتها يشيدون بالوسطية:

كما رأينا الصحابة تلاميذ مدرسة النبوة، وتابعيهم بإحسان، كلهم يدعون إلى الوسطية، وينوّهون بها، نجد علماء الأمّة من المفسرين والمحدّثين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين، كلهم – أو على الأقل جلهم – يؤيدون المنهج الوسطي ولا يحبّون الغلو ولا الجفاء.

أبو محمد بن قتيبة:

قال ابن قتيبة في (تفسير غريب القرآن): في قوله تعالى: **{جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143] أي عدولاً خياراً، ومنه قوله في موضع آخر: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}** [القلم:28] أي خيرهم وأعدلهم، قال الشاعر:

همُ وسطٌ يرضى الأنامُ بحكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظَمِ!

ومنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: هو أوسط قريش نسباً.

وأصل هذا: أن خير الأشياء أوساطها. وأن الغلو والتقصير مذمومان[3]!

محمد بن جرير الطبري:

قال شيخ المفسّرين أبو جعفر الطبري في تأويل قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143]:

(يعني جل ثناؤه بقوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}**، كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه السلام وبما جاءكم به من عند الله، فخصّصناكم بالتوفيق لقِبلة إبراهيم وملّته، وفضّلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصّصناكم ففضّلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأن جعلناكم أمّة وسطاً.

وقد بيّنا أن الأمّة هي القرن من الناس والصّنف منهم وغيرهم.

---

[1] – أورده ابن القيم في مفتاح دار السعادة (83/1) نشر دار الكتب العلمية.

[2] – سبق تخريجه.

[3] – تفسير غريب القرآن لابن قتيبة 64،65 فقرة 143.

وأمّا (الوسط)، فإنه في كلام العرب الخيار. يقال منه: فلان وسطُ الحسب في قومه، أي متوسّط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، وهو وسطٌ في قومه، وواسط ... وقال زُهير بن أبي سلمى في (الوسط):

همُ وسطٌ يرضى الأنامُ بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظَمِ!

قال أبو جعفر: وأنا أرى أن (الوسط) في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل (وسط الدار)[1].

وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم (وسط)، لتوسّطهم في الدين، فلا هُم أهل غلوّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلَوْا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذَبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوَصَفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوسطُها)[2].

الفخر الرازي:

وقال الفخر الرازي: اختلفوا في تفسير (الوسط) وذكروا أموراً: أحدها: أن الوسط هو (العدل) والدليل عليه: الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى. أما الآية فقوله تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ}** [القلم:28] أي أعدلهم. وأما الخبر فما روى القفال عن الثوري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أمة وسطاً" قال: "عدلاً"[3]. وقيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم أوسط قريش نسباً. وأما الشعر فقول زهير:

همُ وسطٌ يرضى الأنامُ بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظَمِ!

وأمّا النقل فقال الجوهري في الصحاح: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** أي عدلاً. وهو الذي قاله الأخفش والخليل وقطرب.

وأما المعنى فمن وجوه:

---

[1] – على خلاف ما ذهب إليه القاضي ابن العربي في (أحكام القرآن) إذ قال: ليس للوسط – الذي هو بمعنى ملتقى الطرفين – ههنا دخول؛ لأن هذه الأمة آخر الأمم اهـ (40/1). وكون هذه الأمة آخر الأمم لا ينفي عنها أنها وسط في الأمور الأخرى، كالعقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع.

[2] - تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) (142،141/3) تحقيق آل شاكر، طبعة دار المعارف المصرية.

[3] – رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (3339)، وأحمد في المسند (11068)، والترمذي في تفسير القرآن (2961).

أولها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين، ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان، فالمتوسّط في الأخلاق يكون بعيداً عن الطرفين، فكان معتدلاً فاضلاً.

وثانيها: إنما سمي العدل وسطاً، لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين.

وثالثها: لا شك أن المراد بقوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** طريقة المدح لهم؛ لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفاً ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهوداً له، ثم يعطف على ذلك شهادة الرسول إلاّ وذلك مدح، فثبت أن المراد بقوله: **{وَسَطاً}** ما يتعلّق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهوداً إلاّ بكونهم عدولاً، فوجب أن يكون المراد في الوسط العدالة.

ورابعها: أنّ أعدل بقاع الشيء وسطه؛ لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد، والأوساط محمية محوطة، فلمّا صحّ ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة.

القول الثاني: أن الوسط من كل شيء خياره، قالوا: وهذا التفسير أولى؛ لأنه مطابق لقوله تعالى: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [آل عمران:110].

القول الثالث: أن الرجل إذا قال: فلان أوسطنا نسباً فالمعنى أنه أكثر فضلاً، وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة، وأصل هذا أن الأتباع يتحوّشون الرئيس فهو في وسطهم وهم حوله، فقيل: وسط، لهذا المعنى.

القول الرابع: يجوز أن يكونوا وسطاً على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المفْرط والمفَرّط، والغالي والمقصّر في الأشياء، لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابناً وإلهاً، ولا قصّروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصّروا فيه.

واعلم أن هذه الأقوال متقاربة غير متنافية والله أعلم[1].

أبو عبد الله محمد القرطبي:

[1] – التفسير الكبير للرازي (109/4) نشر مكتبة عبد الرحمن محمد مصر.

وقال القرطبي: المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطا، أي جعلناكم (أفرادكم) دون الأنبياء وفوق الأمم. والوسط: العدل. وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها. وروى الترمذي عن ابي سعيد بن الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** أي عدلا. قال: هذا حديث حسن صحيح[1]. وفي التنزيل: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ}** أي أعدلهم وخيرهم. وقال زهير :

همُ وسطٌ يرضى الأنامُ بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمُعظَمِ!

وقال آخر:

لا تذهبن في الأمور فرطاً لا تسألنّ إن سالت شططاً

وكن من الناس جميعاً وسطا ً

ووسط الوادي: خير موضع فيه وأكثره ماء وكلأً. ولمّا كان الوسط مجانبا للغلو والتقصير، كان محموداً. أي هذه الأمة لم تغْلُ غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصّروا تقصير اليهود في أنبيائهم! قال: وفلان من أوسط قومه، وإنه لواسطة قومه، ووسط قومه، أي من خيارهم وأهل الحسب منهم[2].

اهتمام الفقهاء المقاصديين بالوسطية:

ومن أهم ما أريد أن أنبّه عليه: أن الوسطية بالمعنى الذي بيّناه من أهم مقاصد الشريعة الإيسلامية؛ لأن الشريعة في كل تكاليفها ضد الغلوّ والشّطط والإسراف في كل شيء، كما أنها ضد التّفريط والانحلال والتسيّب في كل شيء، وإنما تقوم على الاعتدال والعدل في كل أمر، بحيث تتجنب طرفي الإفراط والتفريط المذمومين.

ولهذا نجد الفقهاء الراسخين، الذين نسمّيهم (المقاصديين) وهم الذين يعنون بمقاصد الشريعة في استنباطاتهم واجتهاداتهم، إذا علّموا أو ألّفوا أو أفتَوْا أو قضَوْا .. نجدهم معنيين بمبدأ الوسطية، وتقريره، وبيانه والدعوة إليه، والنزول على حكمه ومقتضاه.

---

[1] – سبق تخريجه.

[2] – تفسير القرطبي (153/1□154) طبعة دار الكتب المصرية.

من هؤلاء الكبار: الإمام أبو الحسن الماوردي (ت 450هـ) الذي لقّبوه (أقضى القضاة) في كتابه التوجيهي الشهير (أدب الدنيا والدين).

ومن هؤلاء: إمام الحرمين الجويني، الشافعي المؤسس الحقيقي لعلم مقاصد الشريعة (ت 478هـ). في كتبه الأصولية والفقهية.

ومن هؤلاء: الإمام المفسر اللغوي المربي الموجه، صاحب (مفرداة القرآن) و(الذريعة إلى مكارم الشريعة) وغيرهما: الراغب الأصفهاني (502هـ).

ومن هؤلاء: الإمام الغزالي المؤسس الثاني لعلم المقاصد (ت 505هـ).

ومن هؤلاء: الإمام الحنبلي الشهير أبو الوفاء ابن عقيل (ت513هـ).

ومن هؤلاء: إمام المالكية في عصره القاضي أبو بكر بن العربي (ت543هـ).

ومن هؤلاء: الإمام أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي (597هـ).

ومن هؤلاء: الإمام أبو محمد بن قدامة الحنبلي (ت620هـ).

ومن هؤلاء: سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام الشافعي (ت660هـ).

ومن هؤلاء: الإمام شهاب الدين القرافي المالكي (ت 684هـ).

ومن هؤلاء: شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي (ت 728هـ) تحدث ابن تيمية عن الوسطية في عدد من كتبه ورسائله وفتاواه في أكثر من موضع.

ومن هؤلاء: أيضا الإمام المحقّق ابن القيم (ت 758هـ) الذي أكّد منهج شيخه ابن تيمية في سائر مصنّفاته الأصولية والفقهية والتربوية.

ومن هؤلاء: الإمام الشاطبي (ت 790هـ) صاحب الجهد الأكبر والأوفر في تثبيت مقاصد الشريعة، والعناية بشرحها وتأصيلها وتفصيلها، حتى أصبحت على يديه (علماً) مستقلاً له أصوله ونظرياته، ومناهجه ومقولاته، فقد عنى بالوسطية والحديث عنها في غير موضع من كتابه (الموافقات).

ومن هؤلاء: الإمام ابن الوزير (ت822هـ).

ومن هؤلاء: الإمام ولي الله الدّهلوي (ت1176هـ).

ومنهم معاصره في اليمن الإمام الصنعاني (1182هـ).

ومنهم العلامة المجتهد في الأصول والفروع، الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ).

فهؤلاء (فقهاء المقاصد)، وهم كذلك (فقهاء الوسطية).

ولا يمكننا هنا النقل عن كل هؤلاء العلماء والأئمة، بحسبنا أن ننوّه باتجاههم المقاصدي والوسطي، ونكتفي بالنقل عن بعض منهم. هم: الغزالي وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي.

كلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:

قال ابن تيمية ضمن كلام له:

(وجعل أمته وسطا، فلم يغلوا فى الأنبياء كغلو من عدلهم بالله، وجعل فيهم شيئا من الألهية، وعبدهم، وجعلهم شفعاء. ولم يجفوا جفاء من آذاهم، وإستخف بحرماتهم، وأعرض عن طاعتهم، بل عزّروا الأنبياء – أي عظّموهم – ونصروهم وآمنوا بما جاءوا به، وأطاعوهم، وإتبعوهم، وإئتموا بهم، وأحبوهم، وأجلوهم، ولم يعبدوا إلا الله، فلم يتّكلوا إلاّ عليه، ولم يستعينوا إلاّ به، مخلصين له الدين، حنفاء.

وكذلك فى الشرائع. قالوا ما أمرنا الله به أطعناه، وما نهانا عنه إنتهينا، وإذا نهانا عما كان أحله – كما نهى بنى إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب – أو أباح لنا ما كان حراما – كما أباح المسيح بعض الذى حرّم الله على بنى إسرائيل – سمعنا وأطعنا.

وأمّا غير رُسُل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدّلوا دين الله، ولا يبتدعوا في الدين ما لم يَأْذَن به الله. والرُّسل إنما قالوا تبليغاً عن الله؛ فإنه سبحانه له الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره، لا يأمر غيره، **{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}** [يوسف:40].

وتوسّطت هذه الأمة في الطهارة والنجاسة، وفي الحلال والحرام، وفي الأخلاق. ولم يجرّدوا الشدة كما فعله الأولون، ولم يجرّدوا الرأفة كما فعله الآخرون، بل عاملوا أعداء الله بالشدة، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة، وقالوا في المسيح ما

قاله سبحانه وتعالى، وما وقاله المسيح والحواريون؛ لا ما إبتدعه الغالون والجافون)[1] اهـ

كلام الهروي وشرح ابن القيم:

وقد قال العلامة إسماعيل الهروي في (منزلة الأدب) من رسالته الشهيرة (منازل السائرين إلى مقامات "إياك نعبد وإياك نستعين"): الأدب: حفظ الحد بين الغلو والجفاء، بمعرفة ضرر العدوان[2].

وشرح هذا ابن القيم في (المدارج) فقال: (هذا من أحسن الحدود. فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلة الأدب. والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدودا له. فكلاهما عدوان. والله لا يحب المعتدين. والعدوان: هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التي سنَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرا. وتطويل ما السنة تخفيفه وحذْفُه. كالتشهد الأول والسلام الذي حذْفُه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. لا على ما يظنه سُرّاق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه. فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه. وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافّات. ويأمرهم بالتخفيف، وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضي حاجته. ويأتي أهله ويتوضأ، ويدرك رسول الله في الركعة الأولى. فهذا هو التخفيف الذي أمر به، لا نقر الصلاة وسرقها. فإن ذلك اختصار.

[1] – مجموع فتاوى شيخ الإسلام (615/28-613).

[2] – منازل السائرين (67/1) نشر دار الكتب العلمية بيروت.

ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام: أن لا يغلو فيهم، كما غلت النصارى في المسيح، ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود. فالنصارى عبدوهم، واليهود قتلوهم وكذبوهم، والأمة الوسط: آمنوا بهم، وعزروهم ونصروهم، واتبعوا ما جاءوا به.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هي العدل. والله أعلم)[1] اهـ.

كلام الشاطبي في الموافقات:

وقال العلامة الشاطبي في (موافقاته):

(الشّريعة جارية في التّكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطّرفين بقسط لا ميل فيه، الدّاخل تحت كسب العبد من غير مشقّة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلّفين غاية الاعتدال كتكاليف الصّلاة والصّيام والحجّ والجهاد والزّكاة وغير ذلك...)[2].

وبعد صفحات يشرح هذا المفهوم ويؤكّده قائلا:

(إذا نظرت في كلية شرعية فتأمّلتها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقّع في الطرف الآخر ... فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يُرجع إليه والمعقل الذي يُلجأ إليه..)[3].

كلام أبي حامد الغزالي في الإحياء:

أما الصوفية الذي يقوم منهجهم على الغلو في الجانب الروحي، فنجد منهم من تفرض عليه الوسطية الإسلامية نفسها، فيعبّر عنها في مناسبة وأخرى، ومن هؤلاء: الإمام أبو حامد الغزالي، الذي لكتابه (إحياء علوم الدين) تأثير ملحوظ على جمهور غفير من المسلمين، نراه ينوّه بنظرة الإسلام الوسطية ويرشد إليها، برغم انحيازه إلى التصوف وما فيه من مبالغات في النظر والسلوك. ولكن يأبى الإسلام

---

[1] - مدارج السالكين (393/5،392).

[2] – الموافقات (124/2).

[3] - الموافقات (128/2).

بفلسفته الوسطية المتغلغلة في كل تعاليمه، كما هي متغلغلة في أعماق كل مسلم، إلا أن يفرض نفسه على الغزالي المتصوّف ويدفعه إلى أن يقول هذه الكلمة أواخر كتاب (الزهد) من (إحيائه) رحمه الله.

فبعد أن تحدّث الغزالي عن طوائف الناس واتجاهاتهم ومواقفهم من الحياة الدنيا وشهواتها، قال في نهاية هذا الباب أو الكتاب:

(ووراء هذا مذاهب باطلة، وضلالات هائلة، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيِّفا وسبعين فرقة. وإنما الناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتَّبع كلَّ شهوة، ولا يترك كلَّ شهوة، بل يتَّبع العدل، ولا يترك كلَّ شيء من الدنيا، ولا يطلب كلَّ شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كلِّ ما خُلق من الدنيا، ويحفظه على حدِّ مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوِّي به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحرِّ والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن، أقبل على الله تعالى بكُنْه همَّته، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازما لسياسة الشهوات ومراقبا لها، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى.

ولا يُعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة، فإنه عليه السلام لمّا قال: "الناجي منها واحدة" قالوا: يا رسول الله، ومَن هي؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي"[1].

وقد كانوا على النهج القاصد، وعلى السبيل الواضح، الذي فصَّلناه من قبل، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهَّبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواما، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى. والله أعمل)[2].

---

[1] – رواه الترمذي في الإيمان (2641) عن عبد الله بن عمرو، وقال: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه،

[2] – إحياء علوم الدين، ربع المهلكات، كتاب ذم الدنيا (230/3–228)، طبعة بيروت دار المعرفة، بيروت.

كلام ابن الجوزي:

وقال ابن الجوزي:

(احذر جمودَ النقَلَة.. وانبساطَ المتكلمين.. وجموحَ المتزهدين.. وشرهَ أهل الهوى .. ووقوفَ العلماء على صورة العلم من غير عمل .. وعملَ المتعبّدين بغير علم).

الفصل الرابع
تصورات خاطئة حول مفهوم الوسطية

1- التصور الخاطئ الأول وردّه:

بعض الإخوة من المتشددين الحرفيين، رفضوا منهج الوسطية، وقالوا: ليس هناك شيء اسمه الوسطية، إنما هناك شيء اسمه (الدليل الشرعي) فإذا أدّانا الدليل الشرعي إلى أمر فهو الواجب اتباعه، سواء كان وسطا أم طرفا.

وهؤلاء لم يفهموا ما نريده بالوسطية، فنحن لا نخالف الدليل الشرعي بحال، بل نقول بكل وضوح: إننا استقرأنا الأدلة الشرعية من آيات القرآن، ومن أحاديث الرسول، ومن إجماع الأمة، ومن مقاصد الشريعة، ومن المقاييس الصحيحة، ومن أقوال الأئمة المعتبرين لدى الأمة، فوجدناها كلها تدلّ على هذا الاتجاه الوسط، الذي يرفض الغلو والتفريط، أو الطغيان والإخسار. وأنّ هذا هو منهج الإسلام، ومنهج أمته، وهذا ما قرره علماؤه وأئمته في مختلف العصور.

وقد نقلنا في الفصول الماضية من أقوال أئمة الإسلام السابقين واللاحقين، والمعاصرين ما جلّى هذه القضية، حتى رأيناها ناصعة كالشمس في الضحى، ليس دونها سحاب.

ولا بأس أن نورد هنا بعضا منها.

من كلام ابن تيمية:

يقول الإمام ابن تيمية:

(وقد خصّ الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص ميّزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجاً، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين.

كما جعل أمّته خير أمّة أُخرجت للناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً.

فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه، من الأمر والنهي والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وأحلّ لهم الطيّبات وحرّم عليهم الخبائث.

لم يحرّم عليهم شيئا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحلّ لهم شيئا من الخبائث كما استحلتها النصارى.

ولم يضيّق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيّق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتى يقال في فضائل الراهب: (له أربعون سنة ما مسّ الماء)[1] ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه الصلاة السلام وأتباعه.

واليهود عندهم إذا حاضت المرأة، لا يواكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرّمون وطء الحائض.

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة. بل إذا أصاب ثوب أحد منهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم شيء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه[2].

وكذلك المسلمون وسط في الشريعة، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ، كما فعلت اليهود، ولا غيّروا شيئا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعاً لم يأذن به الله، كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق سبحانه متصفاً بخصائص المخلوق ونقائضه ومعايبه – من الفقر والبخل والعجز – كفعل اليهود، ولا المخلوق متّصفاً بخصائص الخالق سبحانه التي ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى. ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدا كفعل النصارى[3]). ا هـ

من كلام ابن القيم:

---

[1] - ذكر العلّامة أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين؟) من عجائب الرهبان وقسوتهم على أنفسهم ومن حولهم، وخصوصا في باب البعد عن النظافة والطهارة ما تقشعرّ منه الأبدان.

[2] – وكذلك مما خالف فيه النصارى: تذكية الحيوان، وإباحة أكل لحم الخنزير.

[3] - الجواب الصحيح (6،7/1) مطبعة المدني بمصر.

ومن الأئمة الذين أكدوا توجيههم، وكرّروا حديثهم عن لزوم القصد والوسط والاعتدال في أكثر من كتاب لهم: الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله، فقد كان بالغ الحرص على ذلك، ودائم التحذير من التفريط فيه. يقول داعيا إلى القصد والاقتصاد، محذراً من الغلو والتقصير، مبيّنا الفرق بين الاقتصاد والتقصير: أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط. وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة.. بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه. وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه. وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: فأما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير.

وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم. وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم، ولهذا حذّر السلف منهما أشد التحذير، وخوّفوا من بلي بأحدهما بالهلاك. وقد يجتمعان في الشخص الواحد، كما هو الحال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطاً في بعض دينه، غالياً متجاوزاً في بعضه. والمهدي من هداه الله)[1].

وقال ابن القيم في (المدارج) يشرح قول صاحب المنازل رحمه الله في (منزلة التعظيم):

(التعظيم: معرفة العظمة، مع التذلل لها. وهو على ثلاث درجات. الأولى: تعظيم الأمر والنهي، وهو أن لا يعارَضا بترخص جاف. ولا يُعَرَّضا لتشدد غال. ولا يحملا على علة توهن الانقياد)

قال ابن القيم:

(ههنا ثلاثة أشياء، تنافي تعظيم الأمر والنهي.

أحدها: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني إفراط.

---

[1] - انظر الروح لابن القيم صـ 345-346.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر، مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له. هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ}** [المائدة:77].

و (الغلو) نوعان. نوع يخرجه عن كونه مطيعاً؛ كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرا، أو نحو ذلك عمداً.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار؛ كقيام الليل كله، وسَرْد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه.."[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليُصَلِّ أحدكم نشاطَه، فإذا فَتَر فليرقد"[2].

وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "هلك المتنطعون –قالها ثلاثا – وهم المتعمقون المتشددون"[3].

وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم: "عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملوا"[4].

وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن هذا الدين متين. فأوْغِل فيه برفق. ولا تُبغِضن إلى نفسك عبادة الله"[5]. أو كما قال.

وقوله: ولا يُحملا على علة توهن الانقياد، يريد: أن لا يتأوّل في الأمر والنهي علّة تعود عليهما بالإبطال، كما تأوّل بعضهم تحريم الخمر بأنه معلّل بايقاع العداوة والبغضاء، والتعرض للفساد. فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه. كما قيل:

---

[1] – سبق تخريجه.

[2] – متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (1150)، ومسلم في صلاة المسافرين (784)، كما رواه أحمد في المسند (11986)، والنسائي في قيام الليل (1643)، وابن ماجة في الصلاة (1371) عن أنس.

[3] – سبق تخريجه.

[4] – سبق تخريجه.

[5] - رواه أحمد في المسند (13052)، وقال مخرّجوه: حسن بشواهده وهذا إسناد ضعيف، عن أنس،

أدرِها، فما التحريم فيها لذاتها ولكن لأسباب تضمنها السكر

إذا لم يكن سُكْر يُضِلُّ عن الهدى فسيان ماءٌ في الزجاجة أو خمر!

وقد بلغ هذا بأقوام إلى الانسلاخ من الدين جملة.

ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر، فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم. ولهذا كانت طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور.

وفي بعض الآثار القديمة: يا بني إسرائيل، لا تقولوا: لم أمرَ ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا؟.

وأيضاً فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتى تظهر له علته، لم يكن منقادا للأمر، وأقل درجاته: أن يضعف انقياده له.

وأيضاً فإنه إذا نظر إلى حِكَم العبادات والتكاليف مثلا، وجعل العلة فيها هي جمعية القلب، والإقبال به على الله. فقال: أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة! فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أوراد العبادات فعطلها، وترك الانقياد بحمله الأمر على العلة التي أذهبت انقياده.

وكل هذا من ترك تعظم الأمر والنهي، وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله. فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله؛ فكم عطلت لله من أمر، وأباحت من نهى، وحرمت من مباح! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمها)[1]. انتهى

من كلام الشاطبي:

ويقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت 790م) فيلسوف الشريعة الإسلامية بحق، ومجلّي وسطيتها، وشارح مقاصدها في كتابه الشهير الذي عرف باسم (الموافقات) وإن كان اسمه الأصلي (التعريف بأسرار التكليف):

(الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطّريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطّرفين بقسط لا ميل فيه، الدّاخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا

---

[1] – مدارج السالكين (2/498-496) نشر دار الكتاب العربي – بيروت.

انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة وغير ذلك...)[1].

وبعد صفحات يشرح هذا المفهوم ويؤكّده قائلا: (إذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر ... فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحا، ومسلك الاعتدال واضحا، وهو الأصل الذي يُرجع إليه والمعقل الذي يُلجأ إليه ...)[2].

وقد نقلنا هذا الكلام من قبل في مناسبة أخرى، وأوردناه هنا لمناسبته، وهو تأكيد لما سبق.

كلمات العلماء المحْدثين و المعاصرين في الوسطية:

ولعلماء العصر الحديث كلمات قوية معبّرة عن اتجاه الوسطية، يحسن بنا أن ننقلها أو بعضها هنا، لنؤكّد أننا لسنا وحدنا في هذا التوجه الإسلامي الأصيل.

كلام محمد عبده ورشيد رضا في الوسطية:

ولصاحب (المنار) العلامة المجدد محمد رشيد رضا، ولشيخه الإمام محمد عبده: كلام جميل في الوسطية ذكره في تفسيره نسجّله هنا:

بعد أن ردّ الله تعالى على السفهاء من اليهود الذين أثاروا ضجّة حول تحويل القبلة، وقال في ذلك: **{قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}** [البقرة:142] أي: إن الجهات كلها لله تعالى، لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة، وإن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء، وهو الذي **{يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [البقرة:142]، وهو صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال، كما يبيّن في الآية الآتية. فعلم أن نسبة الجهات كلها إلى الله تعالى واحدة، وأن العبرة في التوجّه إليه سبحانه بالقلوب، واتّباع وحيه في توجه الوجوه.

قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143]، وهو تصريح بما فهم من قوله: **{وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [البقرة:213] إلخ، أي: على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطا. قالوا: إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على

---

[1] - الموافقات (124/2).

[2] – الموافقات (128/2).

المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادّة القويمة فهو شر ومذموم، فالخيار: هو الوسط بين طرفي الأمر; أي: المتوسط بينهما.

قال الأستاذ الإمام بعد إيراد هذا: ولكن يقال لم اختير لفظ الوسط على لفظ الخيار مع أن هذا هو المقصود، والأول إنما يدل عليه بالالتزام؟ والجواب من وجهين: **(أحدهما):** أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي; فإن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفا به، ومن كان متوسطاً بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب وثانيهما من الجانب الآخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر، ولا حال الوسط أيضا .

(وثانيهما): أن في لفظ الوسط إشعارا بالسببيّة، فكأنه دليل على نفسه; أي: أن المسلمين خيار وعدول; لأنهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرطين، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال.

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا هم له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيي الهند أصحاب الرياضات.

وأما الأمّة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين: حق الروح، وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان وملك، فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطاً تعرفون الحقين، وتبلغون الكمالين **{لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ}** [البقرة:143] بالحق **{عَلَى النَّاسِ}** [البقرة:143] الجسمانيين بما فرّطوا في جنب الدين، والروحانيين إذ أفرطوا وكانوا من الغالين، تشهدون على المفرّطين بالتعطيل القائلين: **{مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ}** [الجاثية:24] بأنهم أخلدوا إلى البهيمية، وقضوا على استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحانية، وتشهدون على المفرطين بالغلو في الدين القائلين: إن هذا الوجود حبس للأرواح وعقوبة لها. فعلينا أن نتخلص منه بالتخلي عن جميع اللذات الجسمانية وتعذيب الجسد، وهضم حقوق النفس وحرمانها من

جميع ما أعدّه الله لها في هذه الحياة، تشهدون عليهم بأنهم خرجوا عن جادّة الاعتدال، وجنوا على أرواحهم بجناياتهم على أجسادهم وقواها الحيوية، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء، وتسبقون الأمم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الأمور كلها، ذلك بأن ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال; لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه، يؤدّي حقوق ربه، وحقوق نفسه، وحقوق جسمه، وحقوق ذوي القربى، وحقوق سائر الناس **{وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}** [البقرة:143] أي: إن الرسول عليه الصلاة والسلام هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط، وإنما تكون هذه الأمة وسطاً باتّباعها له في سيرته وشريعته، وهو القاضي بين الناس فيمن اتّبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو المبتدعين، فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد، يشهد لها الرسول – بما وافقت فيه سنته وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه – بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم، فكأنه قال: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدي الرسول واستقمتم على سنته، وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة، فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التي وصفها الله في كتابه بهذه الآية، وبقوله: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}** [آل عمران:110] إلخ; بل تخرجون بالابتداع من الوسط وتكونون في أحد الطرفين، كما قال الشاعر وقد استشهد به الزمخشري في تفسير الآية:

كانت هي الوَسَطَ المَحْمِيَّ فاكتنفتْ ... بها الحوادثُ حتى أصبحتْ طَرَفَا[1]

الوسطية عند الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت:

وممّن ركّز على الوسطية وتجليتها في عصرنا: الفقيه المفسر العلامة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر. وممّا قاله في تفسير (الصراط المستقيم) في تفسير سورة الفاتحة، قوله رحمه الله:

(الصراط المستقيم: هو الطريق الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وقد كثر كلام المفسّرين في المراد بالصراط المستقيم الذي جعل الله طلب الهداية إليه في هذه السورة أول دعوة علّمها الإنسان، وأجمعُ ما نرى في ذلك أن الصراط هو جملة ما

[1] – تفسير المنار (2/6–4) طبعة المنار الثالثة.

يوصل الناس إلى سعادة الدنيا والاخرة من عقائد وآداب وأحكام من جهتي العلم والعمل، وهو سبيل الإسلام الذي ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكل إلى محمد صلى الله عليه وسلم تبليغه وبيانه.

الإسلام هو الصراط المستقيم:

وحسب القارئ في معرفة أن الإسلام هو الصراط المستقيم، وأنه لذلك كان الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، أن يتتبّع حالة العالم في عصوره المتتابعة قبله، فإنه سيجد أن العالم كان يتردد بين طرفين من إفراط وتفريط، وكان ذلك شأنه في كل شئ: في العقائد، في الاخلاق، في صلة الإنسان بالحياة، في علاقة الفرد بالمجتمع، في علاقة الأمم بعضها ببعض، في طريقة التشريع، إلى غير ذلك من سائر الشئون. وقد جاء الإسلام فأدرك أن العالم لا يصلح بواحدة من هاتين الخطتين، وأنهما منافيتان للفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية، منافيتان لسنن الاجتماع التي تقضي بالوقوف عند الحد الوسط في كل شيء لضمان البقاء والصلاح، وعدم التعرض للانحلال والفساد، وأدرك الإسلام ذلك فجاءت شريعته وسطاً لا إفراط فيها ولا تفريط، ووقعت أحكامها ومبادئها مهما تنوّعت وتشعبت في هذه الدائرة التي رسمها كتاب الله عزوجل **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}** [البقرة:143]. **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}** [الأنعام:153].

وسط في العقيدة:

هي في العقيدة وسط بين الذين ينكرون الإله، ويزعمون أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية **{إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** [المؤمنون:37] وبين الذين يقولون بالتعدد، ويتخذون مع الله أنداداً: تقرّر في صراحة وجلاء، أن الله إله واحد، وأنه المعبود الذي لا يُعبد سواه **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}** [الإخلاص:1-4]، **{وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}** [النحل:51]، **{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** [الأنعام:162- 163].

وسط في الأخلاق:

وهي في الاخلاق وسط بين الذين يتحلّلون من كل الفضائل والذين يشتطّون في تصوّر الفضيلة والتزام طرف التشديد فيها: تقرر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين: لا جبن ولا تهور، لا بخل ولا تبذير، لا استتكبار ولا استخذاء، لا جزع ولا استكانة. وأساس ذلك كله قوله تعالى: **{وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً}** [الإسراء:29] **{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}** [الفرقان:67].

وسط في صلة الإنسان بالحياة:

وهي في صلة الإنسان بالحياة وسط بين المادية البحته، التي لا تعرف شيئاً وراء ما يقع عليه الحسّ من طعام وشراب، ولذّات وشهوات، وغلبة وبطش، وجمع للأموال، وتكاثر وتفاخر، والروحية البحتة التي تزهد في الحياة وتُعرض عنها إعراضاً تاماً، فلا زواج، ولا سعي، ولا عمل، ولكن تبتّل مطلق وإهمال للأسباب! يقرّر الإسلام في ذلك الوسط أيضاً فيقول: **{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** [القصص:77]، **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}** [الجمعة:10]، **{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** [الأعراف:32].

وسط في طريقة التشريع:

وهي في طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة وسط: لم تدعُ الناس يشرّعون لأنفسهم في كل شيء، ولم تقيّدهم بتشريع من عندها في كل شيء، بل نصّت وفوّضت: نصّت فيما لا تستقل العقول بإدراكه، كالعبادات زمانا ومكانا، وكيفية ونحو ذلك، وفيما لا تختلف المصلحة فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، كالمواريث وأصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك، وفوّضت فيما يدرك العقل الخير فيه، وتختلف المصلحة فيه بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص، ومن هنا وُجد الاجتهاد، وكان من أركان الشريعة الإسلامية حفظ الله به للعقل الإنساني كرامته.

وسط في علاقة الفرد بالجماعة:

وهي في تحديد علاقة الفرد بالجماعة وسط أيضاً: لم تترك الفرد طليقاً يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء، ولم تدعه كالوحش في الفلاة يجري ويمرح ويعبث، ويفترس

ما يقدر عليه، ويتحكّم فيه الأقوى منه، ولم تلغ شخصه، وتنس استقلاله وتضيّعه في غمار الجماعة لا يعمل إلا لها، ولا يفكر إلا فيها، ولا يعرف لنفسه وجوداً غير وجودها، كأنه جزء من آلة يتحرّك بحركتها ويسكن بسكونها، ولكنها اعتبرته ذا شخصية مستقلة، وفي الوقت نفسه اعتبرته لبنة في بناء المجتمع، فأثبتت له، بالاعتبار الأول، حق الملكية لماله ودمه والهيمنة على نفسه وولده، ومنحته في هذه الدائرة حق التصرف بما يراه خيراً له وسبيلاً لسعادته في حياته، وأوجبت عليه بالاعتبار الثاني، حقاً في نفسه بالخروج للغزو والجهاد في سبيل رد العدوان عن الوطن، وحقاً في ماله بالبذل والإنفاق في سبيل الله، وأوجبت عليه إرشاد الأمة، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وأوجبت عليه أن يعمل لإنجاب النسل الصالح وتكثير سواد الأمة به، فيختار الولود ذات الدين والخُلق، لتقوى بذلك الأمة ويعلو شأنها.

وفي مقابل هذه الحقوق التي قررتها الشريعة على الفرد للجماعة، أوجبت على الجماعة للفرد حقوقاً لاسعادة إلا بها: كَفَلت له حفظ دمه وماله وعرضه، وشرّعت لحمايته حق القصاص وحق الحدّ والتعزير، وجعلت له حقاً في أن تعينه بمالها إذا افتقر، وبذلك تبادل الفرد والمجتمع الحقوق والواجبات، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين، وعدم طغيان أحدهما على الأخر، فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله أو لسانه على المجتمع ساءت حالته وأدركه الضعف والانحلال، ولو ضن المجتمع بقوّته على الفرد فلم يكفل له سعادته، ولم يحفظه في ماله ونفسه وعرضه، ولم يُعِنه في حال فقره أو ضعفه، أشقاه وعرضه للهلاك، وبهذا وذاك تصبح الحياة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل، بل جحيماً لا تطاق!

وسط في علاقة الأمة بغيرها من الأمم:

وكذلك كان شأن الشريعة الإسلامية في تحديد علاقة الأمة بغيرها من الأمم، لم ترض للمسلمين بحياة الضّعف والذلة، وأن يكونوا عزلا من القوة ينتظرون حظهم، ويترقبون مصيرهم، وما تقرره الأمم الأخرى في شأنهم، ولم ترض لهم كذلك بحياة الظلم والاستبداد، والفتك بالضعفاء، والاعتداء على الآمنين في أوطانهم وأموالهم، ولكنها أمرت المسلمين بالاستعداد والتقوّي بالعدد والعُدة **{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ**

قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:60] وأمرتهم أن يدعوا إلى الله بالحجّة والبرهان لا بالالجاء والقهر **{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}** [البقرة:256] **{أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}** [يونس:99].

ونظرت إلى الحرب وأسبابها الداعية إليها والمفضية إلى شبّ نيرانها نظرة تتفق وغايتها من الصلاح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم على سنن العدل والرحمة، فحصرت أسبابها في دائرة معقولة، تتناسب وكونها ضرورة من الضرورات هي: دفع الظلم والعدوان، وإقرار حرية التديّن، والدفاع عن الأوطان، وأن القرآن الكريم ليرشد إلى ذلك في عدة مواضع إذ يقول:

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:190].

{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:36].

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج:39–40].

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للمسلمين أن ينشئوا ما شاءوا من العلاقات بينهم وبين الذين لم يعتدوا عليهم في الدين أو الوطن من كل ما يرونه عوناً لهم على حياتهم في شئون التجارة والصناعة والعلم والسياسة والثقافة، ينظّمون ذلك كله على الوجه الذي يتبين صلاحه، والذي تقضي به سنن الاجتماع والفطرة، والذي لا يتعارض مع دستورهم الخاص، وقد أجازت الشريعة أن تصل هذه العلاقات إلى حد البرّ بهم والإحسان إليهم.

وأساس الدستور العام في ذلك هو قوله تعالى **{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}** [الممتحنة:8].

هذا هو الصراط المستقيم، والمبدأ الوسط، الذي تسير عليه الشريعة الإسلامية في جميع أحكامها، والذي صلحت به لكل زمان ومكان، واستحقّت به الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين)[1].

---

[1] - من تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى للشيخ محمود شلتوت صـ 31-35 طبعة دار الشروق بالقاهرة.

الشيخ محمد المدني:

ومن هؤلاء زميل الشيخ شلتوت ورفيق دربه العلاّمة الشيخ محمد المدني، من كبار علماء الأزهر، وأحد أرباب الفكر والقلم فيه، المفسّر الفقيه الأديب، الذي ترك آثاراً علمية وفكرية من كتب ومقالات، تدلّ على أصالته العلمية، ووجهته الوسطية، ونزعته التجديدية.

وقد ألّف كتابا بعنوان (وسطية الإسلام) يلقي فيه شعاعاً على المنهج الإسلامي المتوازن في علاج القضايا العويصة، فلا يميل إلى اليمين، ولا إلى اليسار، ولا يجنح إلى الغلوّ ولا إلى التقصير.

وهو رسالة موجزة ولكنها مركّزة ونافعة. وقد نشرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية أكثر من مرة.

وعنيت (دار القلم) التي أنشأها أخونا العالم الباحث المتميّز عبد الحليم أبو شقة بنشر كتب الشيخ المدني وتراثه كله.

الشيخ محمد عبد الله دراز:

كما عني من قبل بنشر كتب شيخنا وأستاذنا علامة الأزهر الأكبر، الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، الذي كان يمثل (الوسطية) خير تمثيل، بثقافته الواسعة التي جمعت بين الشرق والغرب، وبين الأزهر والسوربين، وبين العربية والفرنسية، وبين علوم النقل وعلوم العقل. وكل كتبه من (النبأ العظيم) و(الدين) و(دستور الأخلاق في القرآن) و(الميزان بين السنة والبدعة) و(الربا) وغيرها نزع هذا المنزع الوسطي.

وقد درّس لنا في تخصص التدريس (علم الأخلاق) أو (فلسفة الأخلاق) وكتب في ذلك رسالة كانت خلاصة دسمة لمبادئ هذا العلم، اتّسمت بالوسطية الجامعة.

وقد انتدب لنشر تراث الشيخ دراز أخونا العالم النّابه الباحث النشيط الشيخ أحمد مصطفى فضلية، وجمعها وطبعها، وقدّم لها وعلّق عليها بما لا بدّ منه.

وكذلك قام بهذا الدور في نشر تراث الشيخ المدني رحمهما الله.

الشيخ محمد الخضر حسين:

وممّن أعتبرهم من دعاة الوسطية من علمائنا المُحْدثين: العلاّمة الشيخ محمد الخضر حسين، الذي كان شيخا للأزهر عندما كنا طلاباً. فقد ترك كتباً وآثاراً علمية، تشير إليه، وتدلّ عليه، في الأصول والفقه والدعوة، والمشاركة في النهوض بالأمة، وحل مشكلاتها في ضوء الشريعة الإسلامية، التي يراها بحق صالحة لكل زمان ومكان، وقد نُشر عدد منها في حياته تحت عنوان (رسائل الإصلاح).

وقد ردّ على كل متطاول على عقيدة الإسلام أو شريعته أو حضارته، بمنطق العالم الرصين، وإيمان المسلم الملتزم بقرآنه العظيم، وهدى رسوله الكريم، غير غافل عن عصره، ولا عن بيئته، موقناً بأن الفتوى تتغير بتغيّر الزمان والمكان والحال.

وممن ردّ عليهم: الشيخ علي عبد الرزاق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) بكتابه العلمي الأصيل (نقض كتاب: الإسلام وأصول الحكم).

الإمام الشهيد حسن البنا:

ومن أشهر من دعا إلى الإسلام الوسطي، أو الوسطية الإسلامية: الإمام حسن البنا، مؤسس كبرى الحركات الإسلامية، التي كانت تمثّل الخطّ الوسط، أو المركز الوسط، بين دعاة الغلو في التحرّر، ودعاة الغلو في الجمود، وبين المفْرطين في العقلانية، والمقصرين فيها، من الحرفيين وذوي النزعة الظاهرية، بين المبهورين بأوربا وكل ما يجئ منها، والداعين إلى الفناء فيها، واقتباس حضارتهم بخيرها وشرها، وبين دعاة الانعزال، والاكتفاء بما عندنا، وما ترك الأول للآخر شيئا.

وهو كان مثالا للتوازن والاعتدال في شخصيته، فهو سلفي وصوفي، تراثي وعصري، محافظ ومجدد، داعية وثائر، عابد ومجاهد، أو راهب وفارس، وهكذا يرى الإسلام: عبادة وقيادة، وديناً ودولة، وحقاً وقوة، ومصحفاً وسيفاً. ولهذا جمع منهج الشيخ بين الدين والسياسة، بين العلم والتربية، بين الدعوة والجهاد، بين الفكر والحركة.

وسيأتي مزيد لذلك في الفصل الخامس.

الشيخ عبد الحميد بن باديس:

وممن دعا إلى الوسطية من علماء العصر: العلاّمة المصلح الجزائري الشيخ عبد الحميد بن باديس، مؤسس جمعية العلماء الجزائريين، والتي تبنّت منهجاً وسطاً

في الدعوة والتربية والتعليم، قاومت به منهج الاستعمار الفرنسي الذي أراد أن يفرغ الأمة من مقوّماتها الذاتية، والتي تتمثّل في الدين واللغة، فكان منهجه العمل على إحياء الدين واللغة بكل وسيلة، وكان النشيد الذي علّمه للناس يحفظونه ويردّدونه:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسبْ

من قال: حاد عن أصله أو قال: مات، فقد كذب

وسار على نهجه إخوانه وخلفاؤه من بعده، وفي مقدمتهم العلامة المصلح الأديب البليغ الشيخ محمد بن البشير الإبراهيمي.

الشيخ الطاهر بن عاشور:

كما تبنّى هذا المنهج علاّمة تونس وفقيهها ورئيس جامعتها (الزيتونة) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، كما يتبيّن ذلك في تفسيره الشهير (التحرير والتنوير) وكما في كتبه الأصولية والفقهية والإصلاحية، مثل كتابه (مقاصد الشريعة) التي استدرك فيها على إمام المقاصد المشهور أبي إسحاق الشاطبي.

الأستاذ علال الفاسي:

وممن سار على المنهج الوسطي في فقهه وفي دعوته، في فهمه للسياسة وللدولة الإسلامية الحديث: العالم الأصولي والفقيه والسياسي المغربي المعروف: الأستاذ علال الفاسي، مؤلف كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها).

العلامة جمال الدين القاسمي:

ومن دعاة الوسطية في بلاد الشام من المحدّثين: العلامة جمال الدين القاسمي، من دعاة الإصلاح والتجديد، ومؤلف التفسير المعروف (محاسن التأويل) وبعض الكتب التجديدية الوسطية النافعة، مثل (قواعد التحديث في علوم الحديث) وغيره.

الفقيه الكبير مصطفى الزرقا:

ومنهم الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، الذي أخذ على عاتقه تجديد الفقه الإسلامي المدني، وإبرازه في ثوبه الجديد، وأظهر كتابه الجليل (المدخل في الفقه الإسلامي) كما أصدر عددا من الكتب والرسائل والفتاوى، كلها تصب في اتجاه الوسطية والتجديد.

الفقيه الداعية الكبير مصطفى السباعي:

ومنهم الفقيه والأصولي والداعية الكبير الشيخ مصطفى السباعي، الذي كان داعية للوسطية المجددة، بلسانه وقلمه ومحاضراته وكتبه، كما تجلّى ذلك في كتبه (السنة ومكانتها في التشريع) و(المرأة بين الفقه والقانون) و(من روائع حضارتنا) و(اشتراكية الإسلام) وإن اعترض بعض الناس على عنوانه، ولكنه أضاف الاشتراكية إلى الإسلام، فلم يدع إلى أي اشتراكية، بل الاشتراكية المضافة إلى الإسلام، والمستمدة من الإسلام. وله عدد من الرسائل والمقالات كلها تنبع من النظرة الوسطية المجددة، أو التجديد الوسطي في الإسلام.

الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي:

ومن هؤلاء شيخنا الداعية الكبير، الشيخ محمد الغزالي، الذي كان لسان الدعوة الإسلامية في عصره، والمدافع الأول عن حمى الإسلام بلسانه وقلمه.

فمن قرأ كتبه، وتدبر تراثه الغني، وجده يمثل الوسطية المجددة، التي تنظر إلى الإسلام وأصوله بعين، وتنظر إلى العصر وتيّاراته بعين أخرى، يستلهم الماضي، ويعيش الحاضر، ويستشرف المستقبل، يجمع بين عقل الفيلسوف، وقلب المتصوف. يدعو الأمة إلى أن تجمع بين العلم والإيمان، بين الرقي الحضاري والسمو الأخلاقي.

الشهيد سيد قطب وحديثه عن وسطية الأمة:

وربما كان من الغريب هنا أن يذكر الشهيد سيد قطب، وهو محسوب على الغلاة، ومع هذا فرض عليه القرآن، وطبيعة الإسلام إلا أن يتحدث عن (وسطية الأمة) بقلمه البليغ في تفسيره (في ظلال القرآن) فيبدع ويؤثر. قال رحمه الله:

(إنها الأمّة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها، وتقول: هذا حقّ منها وهذا باطل. لا التي تتلقّى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم .. وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما

يصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة .. وبهذا تتحدّد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها .. لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدّر دورها حقّ قدره، وتستعدّ له استعداداً لائقاً..

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي..

{أُمَّةً وَسَطاً} .. في التصوّر والاعتقاد .. لا تغلو في التجرّد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنّما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.

{أُمَّةً وَسَطاً} .. في التفكير والشعور .. لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ... ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلّد تقليد القردة المضحك.. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبّت ويقين.

{أُمَّةً وَسَطاً} .. في التنظيم والتنسيق .. لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب، وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان.. ولكن مزاج من هذا وذاك.

{ أُمَّةً وَسَطاً} .. في الارتباطات والعلاقات.. لا تلغي شخصية الفرد ومقوّماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً لا همّ له إلا ذاته.. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه. ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة،

وتقرّر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

{ أُمَّةً وَسَطاً} .. في المكان .. في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها. وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً، وتشهد على الناس جميعاً، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك، وتتحكّم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

{ أُمَّةً وَسَطاً} .. في الزمان .. تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرّشد العقلي من بعدها. وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدّها عن الفتنة بالعقل والهوى، وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنها تخلّت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمّة تلك وظيفتها وذلك دورها، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية، فللقيادة تكاليفها، وللقوامة تبعاتها، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى، ليتأكد خلوصها لله وتجردها، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة)[1]. ا هـ

هذه كلمات سيد قطب في (وسطية الأمة) واضحة نقيّة، رغم ما له رحمه الله من جنوح إلى التّكفير في مناسبات أخرى، غفر الله له. ناقشناه فيها في مواضع أخرى. ولكن وسطية الإسلام ووسطية أمّته، أبتا إلا أن يعبّر عنها بهذا البيان الناصع.

[1] - في ظلال القرآن (130-132/2) طبعة دار الشروق القاهرة.

أحسب بعد هذه النقول كلها من القدماء والمحْدثين والمعاصرين قد تبيّن لنا معنى الوسطية التي نقصدها، والتي ندعو إليها.

2- التصور الخاطئ الثاني وردّه:

هناك من المسلمين من يلتبس عليهم مفهوم الوسطية، ولهذا يقفون منه موقف الرافض أو المتردد. ولو اتّضح لهم المفهوم جيّدا، وتجلّت حقيقته بوضوح، ما تردّدوا في قبوله، والإيمان به، والدعوة به.

ليس معنى الوسطية التساهل في الدين:

هناك بعض الإخوة يفهمون الوسطية على أنها التساهل في أحكام الشرع، أو التهاون في أمر الدين، وإفتاء الناس بالرخص أبدا، وبالأخف دائما، ومجاراة الواقع المتطور، ومجاملة غير المسلمين على حساب الإسلام، وليّ أعناق النصوص، لكي تخفف على الناس، إلخ ما يقال في هذا المجال. وقد أخذ بعضهم ذلك من قولي: إن الوسطية تتبنّى منهج التيسير أبداً، وترفض منهج التشديد على الناس في عباداتهم ومعاملاتهم وشؤون حياتهم، ومقتضى هذا أن نتساهل في بعض الأمور، ونغضّ الطرف عن التهاون في بعض الأساسيات.

وأودّ أن أبيّن هنا: أنّ هذا ليس من الوسطية في شيء، بل هذا جنوح إلى جانب التقصير والتفريط، وليس التزاما بالوسط.

ومنهج التيسير الذي يلتزم به دعاة الوسطية، ليسوا مخيّرين فيه؛ لأنهم لم يبتدعوه من عند أنفسهم. بل هو منهج الله ورسوله الذي شرعه ودعا إليه في القرآن والسنة، وأما المنهج المضاد له، فهو مخالف لما جاء به الله ورسوله.

ولا يرتاب مسلم يقرأ القرآن في أنه شرّع اليسر، ولم يشرّع العسر، وشرّع التخفيف، ولم يشرّع التشديد.

وحسبنا أن نقرأ في ذلك ما جاء في آية الطهارة بعد شرعية ورخصة التيمم بدلاً عن الماء: **{مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [المائدة:6]. ونقرأ في شرعية الصلاة عند الاقتتال والتحام الصفوف: **{فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً** (أي راجلين مشاة) **أَوْ رُكْبَاناً}** [البقرة:239].

وفي صلاة الحرب خلف إمام واحد: **{وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً}** [النساء:102].

ونقرأ في آية الصيام: **{وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [البقرة:185].

ونقرأ في آيات المحرّمات في النكاح: **{يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً}** [النساء:28].

ونقرأ بعد مشروعية العفو في القصاص، قوله تعالى: **{ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ}** [البقرة:178].

ونقرأ في شأن الدين كله، قوله تعالى: **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [الحج:78]. وكلمة (من حرج) هنا نكرة في سياق النفي، فتعمّ كل حرج، فليس في دين الله حرج قط، في العبادات أو المعاملات، أو الجنايات أو السياسات.

وكما يلتزم منهج الوسطية المنهج القرآني في التيسير: يلتزم المنهج النبوي الذي يقول: "يسّروا ولا تعسّروا، بشّروا ولا تنفّروا"[1].

وحين أرسل عليه الصلاة والسلام أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن، أوصاهما بوصية جامعة قال فيها: "يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا"[2].

وحين بال أعرابي في المسجد، وثار عليه الصحابة، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاملوه برفق، ويعذروا نشأته وبداوته، وأنه لم يتهذب بعد بأدب الإسلام، فقال: ترزموه (أي لا تقطعوا عليه بولته) وصبوا عليه ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"[3].

---

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في العلم (69)، ومسلم في الجهاد والسير (1734)، كما رواه أحمد في المسند (13175)، وأبو داود في الأدب (4794) عن أنس.

[2] - متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (3038)، ومسلم في الجهاد والسير (1733)، كما رواه أحمد في المسند (19742) عن أبي موسى.

[3] - متفق عليه: رواه البخاري في الوضوع (221)، ومسلم في الطهارة (2543)، كما رواه أحمد في المسند (7255)، والترمذي (147)، والنسائي (54) كلاهما في الطهارة عن أبي هريرة.

وشرع الرسول الكريم من الرخص والتخفيفات ما لا يجهله مسلم، وقال: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته"[1].

وفي حديث آخر: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه"[2].

ولا سيما الرفق بالضعفاء، سواء كان ضعفهم من قبل قبل فقد الصحة، وهم المرضى، أو من جهة فقد الأب، وهم اليتامى، أو من جهة فقد المال وهم المساكين، أو من جهة فقد الوطن، وهم أبناء السبيل، أو من جهة فقد الحرية، وهم الرقيق أو ما ملكت الأيمان.

وقد تقرر من القواعد الكلية الفقهية المتفق عليها: قاعدة (المشقة تجلب التيسير) تنبني عليها فروع وتفصيلات جزئية في سائر أبواب الفقه.

وقد أُلّفت كتب، وقُدّمت أطروحات علمية في الدراسات العليا في الجامعات العربية والإسلامية في إثبات اليسر ورفع الحرج في الشريعة.

تحديد المفهوم من التيسير المقصود هنا:

ولا بد لنا من بيان المراد من (التيسير) الذي جاء به القرآن والسنة، ويتبناه منهج الوسطية الذي ندعو إليه، حتى لا يترك هذا المفهوم غامضاً، تفسره كل فئة، بل كل فرد بما يحلو له.

ويحسن بي أن أنقل هنا خلاصة مما كتبته حول هذا المعنى في كتابي (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد) فقد ذكرت أن التيسير يعني جملة أمور:

1 - مراعاة جانب الرخص:

مراعات جانب اليسر والرخص في الشريعة إلى جانب العزائم، فلكل أهله، ولا ينبغي أن نعامل الناس كلهم بمستوى واحد، ولا يطالب الضعفاء بما يطالب به الأقوياء، ولا حديث العهد بالإسلام أو التوبة، مثل العريق في الإسلام والالتزام به، فقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض الأعراب: الاكتفاء بالفرائض الأساسية

---

[1] - رواه أحمد في المسند (5866)، وقال مخرّجوه: صحيح، وابن خزيمة في الصيام (2027)، وابن حبان في الصلاة (2742)، وقال شعيب: إسناده قوي، عن ابن عمر.

[2] - رواه ابن حبان في (354)، وقال شعيب: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير (323/11) عن ابن عباس.

وحدها، مع حلفه أنه لا يزيد عليها ولا ينقص، ومع هذا قال: "أفلح إن صدق" أو "دخل الجنة إن صدق"، وقال في بعض الأحوال: "من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه".

وينبغي التذكير هنا بكلمة الإمام النووي في مقدمات (المجموع) الإمام الكبير سفيان بن سعيد الثوري، الذي انعقدت له الإمامة في الفقه، وفي الحديث، وفي الورع، فقد قال – رضي الله عنه – وما أرع ما قال:

إنما الفقه: الرخصة من الثقة، أما التشديد فيه: فيحسنه كل أحد!

ولا بد أن نلحظ قوله: الرخصة من ثقة، وهو من يوثق بفقهه ودينه معا، أما من فقد الأمرين أو أحدهما، فهو يترخص فيما لا يجوز فيه، فيصادم القواطع والمحكمات من نصوص الشرع وقواعده، وهو ما لا يقبله مسلم حريص على دينه.

2 - تقديم الأيسر على الأحوط في زماننا:

وإذا كان التيسير مطلوباً دائماً، كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو ألزم ما يطلب في عصرنا هذا؛ نظراً لرقّة الدين في أنفس الكثيرين، وغلبة النزعات المادية، وتأثر المسلمين بغيرهم من الأمم، نتيجة لشدة اتصال بين العالم بعضه ببعض، ولم يعد في استطاعة أحد أن يعيش في عزلة عن غيره، وأجهزة الإعلام تقتحم عليه داره، وتريه ما يجري في أقصى أطراف العالم، وخصوصا اليوم بعد ما عرف باسم: (البث المباشر).

وهذا ما عبَّر عنه علماؤنا في العصور المتأخرة بـ(تغير الزمان)، أو(فساد الزمان) وجعلوه سبباً من أسباب تغيّر الفتوى، كما ذكر العلامة ابن عابدين وغيره.

فقد قال ابن عابدين في رسالته (نشر العَرف فيما بني من الأحكام على العُرف): "إن كثيراً من الأحكام تختلف باختلاف الزمان: لتغيّر عرف أهله، أولحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولاًَ: للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد".

والمنهج الذي أراه – وهو منهجي الذي وفقني الله للالتزام به من قيدم: في الفتوى والتأليف والتدريس – هو: التيسير في الفروع، والتشديد في الأصول.

فإذا كانت هناك وجهتا نظر، أو قولان متكافئان أو متقاربان في قضية، أحدهما أحوط، والآخر أيسر، فينبغي أن نختار في الفتوى لجماهير الناس: الأيسر لا الأحوط.

والحجَّة في هذا: ما قالته عائشة، رضي الله عنها: (ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً).

وقوله صلى الله عليه وسلم فيمن أطال بالناس في الصلاة: "أيّها الناس، إن منكم منفّرين، فأيّكم أمَّ النّاس فليوجز، فإنَّ فيهم الكبير، والضعيف، وذا الحاجة". فأشار إلى ضرورة رعاية ظروف الناس، والتخفيف عنهم، وخصوصا الضعفاء منهم. ولهذا قيل في السفر: سيروا بسير أضعفكم، إذ لا يجوز أن يسرع الأقوياء، ويدعوا الضعفاء منقطعين عن الركب، ولا راعي لهم.

والدارس المتعمق: يلاحظ أن فقه الصحابة والسلف كان يتّجه غالباً إلى الأيسر؛ وفقه من بعدهم كان يتّجه غالباً إلى الأحوط.

وللبخاري عن جابر: أنه صلى في إزار وثيابه عنده، فقال له قائل: تصلي في إزار واحد؟ فقال: إنما صنعت ذلك ليراني أحمق مثلك! وأيّنا كان له ثوبان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يعني: أنه أراد أن يعلمه الرخصة في الصلاة في هذه الصورة التي يرفضها المشدّدون.

فالصحابة – فيما أُثر عنهم من فقه – نجدهم أكثر تيسيراً على الخلق، والتابعون على نهجهم وإن لم يبلغوا درجتهم، والأتباع على نهج التابعين، وإن لم يكونوا مثلهم؛ لأنهم بدأوا يتجهون إلى التحوط، وكل جيل أخذ يضيف بعض (الأحوطيات) إلى ما قبله.

وإذا كثرت (الأحوطيات) في الفقه المتصل بحياة الناس، فإن (مجموعها التراكمي): سينتهي إلى شيء من الآصار والأغلال التي جاء النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها عن الأمة، فقد جاء في وصفه في كتب أهل الكتاب: **{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}** [الأعراف:157]، ومن الأدعية التي علّمها الله

للمسلمين وخُتمت بها سورة البقرة: **{رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}** [البقرة :286].

3 - التضييق في الإيجاب والتحريم:

ومن التيسير المطلوب: التضييق والتحرّي البالغ في تكليف الناس بالأحكام، وخصوصاً في مجال الفرض والتحريم، فلا يجوز: التوسع في ذلك بأدنى دليل، بل لابد من نص صحيح الثبوت، صريح الدلالة: على فرضية الفرض، وحرمة الحرام، أو قياس واضح العلة على نص، فإنا نقطع: أن الشريعة العادلة لا تفرق بين متماثلين، كما لا تسوي بين مختلفين.

وقد كان السلف يتحرجون من التحريم – ومثله الفرضية – إلا أن يكون معهم دليل لا شبهة فيه، وإلا نزلوا من الفرض إلى الواجب، ومن الحرام إلى المكروه، وهذا هو مذهب الحنفية الصريح، ويقرب منهم المالكية، وهو المفهوم من عبارات الأئمة بصفة عامة.

ولهذا كثر في كلامهم مثل قول: يعجبني كذا وكذا، أو أستحب كذا وكذا، ولا يصرح بالوجوب إلا ما عُلِم جزماً بوجوبه.

وقولهم في جانب المنهيات: أكره كذا، ولا أحب كذا، ولا يعجبني كذا، ولا يصرحون بالتحريم، إلا ما عُلِم جزماً بتحريمه.

ويدلّ لهذا الاتجاه موقف الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – من شرب الخمر، فقد ظل بعضهم يشربها ويقول: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، برغم نزول آية: **{قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}** [البقرة:219] وآية: **{لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}** [النساء:43] حتى نزلت الآية الثالثة وفيها البيان الشافي، الذي ارتقبوه: **{إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [المائدة:90].

ويبدو من التأمل في القرآن والسنة: أن الإسلام كان حريصاً على تقليل التكاليف، وتوسيع (منطقة العفو) رحمة بالمكلَّفين غير نسيان.

ففي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ**

غَفُورٌ حَلِيمٌ} [المائدة:101]. وقد توسّع في شرحها والتعليق عليها العلامة رشيد رضا – رحمه الله – وجعلها أساس كتابه (يسر الإسلام).

4 - التيسير فيما تعم به البلوى:

ومن أهم ما ينبغي التيسير فيه: ما تعم به البلوى من أمور العبادات والمعاملات. فإن ما عمّت به البلوى يدل كثرة وقوعه والابتلاء به على شدة حاجة الناس. وهذا يقتضي أن ييسّر عليهم فيه، فإن الشرع قد جاء لتحقيق لهم مصالحهم ويدرأ المفاسد عنهم بقدر الإمكان.

أ – فإذا كان هناك بعض المذاهب: شدد في شئون الطهارة مثلا، كمذهب الإمام الشافعي – رضي الله عنه – فليس هناك موجب لإلزام الناس به، لما قد يترتب عليه الحرج عند جماهير المسلمين وخصوصاً في الريف والقرى.

فلا غرو أن يتجه الفقيه إلى مذهب مالك ومن وافقه: في القول بأن كل ما يُؤكل لحمه فبوله وروثه طاهر، وأن الماء لا ينجّس إلا بالتغيّر، وهذا ما رجّحه وأفتى به شيخ الإسلام ابن تيمية، وعضّده بالأدلة. وهو ما نعلّمه ونفتي به الناس.

وقد قال الإمام الغزالي، في كتاب (الطهارة) من (الإحياء) عن الشافعي: كنت أود أن يكون مذهبه في المياه كمذهب مالك، وساق سبعة أوجه لتأييد مالك هذا وهو شافعي المذهب، رضي الله عن الجميع.

بل نجد الإمام الشوكاني في (السيل الجرار) ضيق في (النجاسات) إلى أبعد حد، وهذا هو الأليق بالتيسير.

ومثل ذلك ما قاله الغزالي عن البيع بالمعاطاة. أي بغير لفظ الإيجاب والقبول، وهو ما يجري عليه عمل المسلمين في كل مكان، وفي سائر العصور وقول الشافعي فيه شديد، والبلوى به عامة.

فعلى الفقيه: أن يعمل على تصحيح معاملات المسلمين من داخل الفقه ومصادر الشريعة وقواعدها ما وجد إلى ذلك سبيلاً. وهذا ما يلمسه الدارس لدى كثير من علماء الفقه في المذاهب المختلفة، ولاسيما في الأعصر الأخيرة، فهم يحاولون أن يلتمسوا مخرجاً لتصحيح التعامل، إما بتكييفه تكييفاً يجعل له مستنداً من الشرع،

أو بحيلة فقهية، أو باللجوء إلى قول مهجور أو ضعيف في المذهب، أو بإجازة تقليد مذهب آخر.

وكثيراً ما يكون الضيق والحرج: ناشئاً من التقيّد بمذهب معين، ولو تحرّروا منه إلى باحة المذاهب الأخرى المتبوعة وغير المتبوعة، وأقوال الصحابة والسلف، وإلى النصوص والقواعد العامة: لوجدوا في باحتها الفسيحة ما يخرجهم من الضيق إلى السعة، ومن العسر إلى اليسر.

ومن الكلمات التي لها دلالتها: ما أُثر عن السابقين – في ترجيح العمل ببعض الأقوال – قولهم: هذا أرفق بالناس.

ب – ومن جوانب التيسير – فيما تعمّ به البلوى –: الإشارة إلى الرأي المخالف الذي لم يأخذ به العالم في درسه إذا درّس، أوالمؤلف في كتابه إذا كتب، ولو في الحاشية، وإن كان في نظره ضعيفاً، فقد يكون قويّاً في نظر غيره، ويتعين هذا إذا اختار هو القول الأحوط، أو الأشد، فيلزم الإشارة إلى الرأي الأيسر.

ومن فوائد هذا: التعريف بأن المسألة فيها أكثر من رأي أو وجهة نظر، فالمختلَف فيه غير المجمَع عليه، وذِكر هذا في هذا المقام خاصة من الأمانة العلمية.

ومن ناحية ثانية، فالأمور الاجتهادية القابلة لتعدد الأنظار، واختلاف الاجتهادات، لا يجوز أن يعتبر من أخذ بوجهة منها مرتكباً لإثم يُنكَر على صاحبه، ولهذا قالوا: لا إنكار في المسائل الاجتهادية.

وأمر ثالث، وهو الإبقاء على الضمير الديني، عند من يعملون على خلاف الرأي الأحوط أو الأشد أو المشهور، وهو ما لاحظه الأستاذ الأكبر، شيخ الأزهر الأسبق، الشيخ محمد مصطفى المراغي – رحمه الله – حين تبنَّى أقوال الإمام ابن تيمية وبعض السلف في قضايا الطلاق وغيرها من الأحوال الشخصية، فإن الناس يحلفون بالطلاق كل يوم، وخصوصاً الباعة والعامة، ويحنثون، ويظنون أن طلاقهم واقع، وأنهم يعيشون مع نسائهم في حرام، وأن ذريتهم منهن أولاد حرام، ومثل هذا الاعتقاد يفسد ضمائرهم الدينية، ويجرئهم على الحرام الصرف المقطوع به. فلماذا لا

نفتيهم بالمذهب الميسِّر عليهم، وبذلك نبقي عليهم ضمائرهم واعتقادهم أنهم لم يخرجوا عن دائرة الإسلام؟

ومثله ما يقال فيمن يفتي بتحريم حلق اللحية، تحريمًا قاطعاً، بل يحرِّم أخذ أي شيء منها، وجماهير المسلمين تفعل ذلك، في المشارق والمغارب.

وكذلك من يفتي: بتحريم إطالة الثوب إلى أسفل من الكعبين، واعتبار فاعله في النار، وجماهير الأمة الإسلامية واقعة في ذلك، كما هو مشاهد.

فإذا افترضنا أن الفقيه اختار الرأي الأثقل، فينبغي في رأيي أن يشير إلى الرأي الأخر. ولا يحمل الناس على رأي واحد. فتكون فتنة، كما قال الإمام مالك – رضي الله عنه – معللاً رفضه: حمل الناس على (الموطأ).

ولا يعني التيسير فيما تعم به البلوى: أن نُحل المحرمات المقطوع بها، مثل الربا، أو الخمر، أو المخدرات، ونحوها، مما جاءت به نصوص محكمات، لا يجوز إهمالها أو التلاعب بها، اتباعاً لأهواء الناس. فقد قال تعالى: **{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}** [الجاثية:18-19].

5 ـ مراعاة قواعد الشرع الميسرة:

ومما يدخل في معنى التيسير: الرجوع إلى القواعد الشرعية، التي أصَّلها الفقهاء من جميع المذاهب، وكلها تعين على قبول التيسير، والاستغناء عن الإعنات والتعسير.

ومن هذه القواعد:

أ – الضرورات تبيح المحظورات، ويتمِّمها: ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

ب – الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة، والمشقة تجلب التيسير.

جـ – ما حرّم لذاته: لا يباح إلا للضرورة، وما حرّم لسد الذريعة يباح للحاجة.

د – المشقة تجلب التيسير.

هـ – إذا ضاق الأمر اتسع.

و – يرتكب أخف الضررين وأهون الشرَّين.

ز – يترك أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما.

ح – لا ضرر ولا ضرار.

ط – حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبينة على المشاحنة.

ي – والفتوى تتغير: بتغير الزمان، والمكان، والعرف، والحال.

ك – التكليف بحسب الوسع.

ل – الحرج مرفوع.

وكل قاعدة من هذه القواعد، تتفرّع عنها فروع وأحكام، وكل هذه القواعد مدلّل عليها من الكتاب والسنة، وهدي الصحابة رضي الله عنهم.

3- تصور ثالث خاطئ:

التشديد في بعض المواقف لا ينافي الوسطية:

ومن التصورات الخاطئة التي تلتبس على كثيرين: ما أثاره بعض تلاميذي، في (ملتقى القرضاوي) الذي عقد بالدوحة منذ سنتين[1]، حين قال: إن العالم المسلم، أو المسلم الملتزم يحتاج أن يخرج من الوسطية إلى التّشديد حين يقتضي الموقف ذلك.

وقد قال هذا الأخ لي: نحن نراك تترك الوسطية أحيانا، فتشدّد في بعض الأمور، غاية التشدّد، وتتصلّب غاية التصلّب، كما رأيناك في موقفك ضد فتوى بعضهم بإباحة فوائد البنوك، وكذلك في الوقوف ضد الصلح مع إسرائيل، وفي إجازة العمليات الإستشهادية ضد العدو الصهيوني، ونحن نؤيد موقفك هذا، ونراه يمثّل الموقف الإسلامي الشرعي الصحيح، ولكن نراه بعيدا عن الوسطية التي تدعو إليها.

وكان تعليقي على هذا الكلام: أن مسلكي هذا هو عين الوسطية، فليس معنى الوسطية أن تأخذ دائما موقف السماحة أو التيسير، بل الوسطية الحقّة: أن تشدّد حيث ينبغي التّشديد، وتيسّر حيث ينبغي التّيسير، وأن تأخذ باللين والرفق مع من يستحقّ ذلك، وتأخذ بالغلظة والعنف مع من يستحقّها.

كما قال تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}** [التوبة:73] و[التحريم:9]. وقال في علاقته بالصحابة: **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}** [آل

[1] - عقد في تاريخ 29 جمادى الآخرة 1428 هـ الموافق 14 يوليو 2007م

عمران:159]. وقد وصف القرآن الصحابة بقوله: **{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}** [الفتح:29]. ووصف الله الجيل الذي ادّخره لنصرة الإسلام حين يرتدّ المرتدّون، فقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}** [المائدة:54]. فللعزة والشدّة موضعها، وللّين والرحمة أوالذلّة موضعها.

فالمنهج الوسطي يقتضيك أن تضع اللين في موضعه، والشدّة في موضعها، ومن فعل غير ذلك تعرّض للذم، كما قال أبو الطيب:

ووضع النّدى في موضع السيف بالعلا مضرّ، كوضع السيف في موضع الندى!

الخروج مؤقتاً عن الوسط لضرورة حاكمة:

على أننا إذا تساهلنا في تسمية مثل هذه المواقف (خروجا عن الوسطية) فهذا لا يقدح في اتخاذ الوسطية منهجا. إذ يجوز الخروج المؤقت عن الوسطية لعلّة تزول بزوالها، بناء على أن الفقيه أو الداعية أو المربّي أو المفكّر الوسطي، قد تدفعه الضرورة أو الحاجة في بعض الأحيان أو بعض المواقف إلى الخروج عن الحد الوسط مؤقتا، لمواجهة ظرف طارئ، أو حدث كبير، أو لعلاج انحراف من الانحرافات واقع أو متوقع، أو للوقاية منه. وللضرورات حكمها، وقد تنزل الحاجة منزلة الضرورة، ولاسيما إذا كانت عامة. ولكن ما رخّص به من أجل الضرورة يجب أن يقدّر بقدرها، ولا يتوسّع فيه، حتى لا يصبح النزول على حكم الضرورة قاعدة أو أصلا يقاس عليه، بل هذا استثناء يحفظ ولا يقاس عليه.

ويسّرني أن أنقل هنا من كتاب أخينا الشاب النابه، د. نوّار بن الشلّي (فقه التوسط)[1] هذه الفقرة التي توضح هذا المعنى الذي نبّهت عليه. قال تحت عنوان: (الخروج عن سنن الوسط مقدور بقدره):

(نعني بهذه القاعدة أن تخلف الوسطية في بعض الأحكام أو الحالات، لسبب يقتضي ذلك، ينبغي أن يقدّر بقدره، وأن يكون من قبيل الاضطرار الذي يستباح فيه الممنوع، حتى إذا ما زال العذر وانقضى سببه، وجب أن يزول ما ترتب عليه، وحينئذ لزم العود إلى الاعتدال والتوسط .. فقد جعل الله هذه الأمّة (أمّة الوسط)، وأمرها

---

[1] - كتاب الأمة. العدد 129 المحرم 1430هـ.

بالاستقامة على الشريعة، وملازمة الصراط المستقيم **{وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** [آل عمران:102].

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون الأحكام هذه الشريعة عالمية موجّهة إلى الناس كافة، وهذا ما اقتضى أن تكون الأحكام الواردة فيها محققة لهذه الأسس والسّمات، ليتم انطباق الكلية على أجزائها، وتتحد الأفراد المتجانسة ليصاغ منها الكلي المراد. وإن تحقيق هذه الأوصاف عالمية التشريع – والاستقامة على الشريعة – لتحقيق أمّة الوسط – هو ما يستدعي الاطراد في الأحكام والتتابع فيها، والاستمرار في العمل بها والاحتكام إليها، من غير زيادة أو نقصان، وقد ظهر هذا المعنى جليا حين أراد بعض الصحابة أن تستثنى المرأة المخزومية التي سرقت من أن يطبّق عليها الحد، فغضب لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا، مبيّنا لهم أنّ لا فرق بين الشريف والوضيع في امتثال الحكم الشرعي[1]، وهو ما يعني لزوم اطراد الحكم وثبوته لعدم وجود علّة توجب تغييره.

وأما كون الحكم بالتوسط جاريا على الغالب بأن يتخلّف عنصر الاطراد فيه منطبقا على أغلب أفراده لا على كلها، فهو راجع إلى طبيعة التشريع ذاته وطبيعة الفقه الذي بني عليه، كما هو مقرّر عند عامّة فقهاء الإسلام، فقد حصل الإجماع منهم مثلا على (العمل بخبر الواحد وهو في بعض الحالات على الأقل، إنّما يفيد الصّحة والصّدق على الغالب، وأجمعوا على العمل بالترجيح، والترجيح إنّما هو الأخذ بالغالب من المتعارضين، وأجمعوا على صحّة الاجتهاد الظّني، وهو قائم على أن المجتهد يقول بما غلب عليه ظنّه، بل إنّ الاجتهاد لا يكون إلاّ في مجال الظّنون، قصد اختيار أغلبها)[2].

وقد صاغ الفقهاء هذا المعنى بما يعني أنّه من المسلّمات والبدهيات عندهم فقالوا: (الغالب كالمحقّق)، كما قالوا: (العبرة للغالب الشّائع لا للنّادر). فإذا كان الحكم مطّردا أو غالبا فالذي يليق بح حينئذ، بل يتعيّن الأخذ به – لما تقدّم من

---

[1] – رواه الجماعة: البخاري (6788)، ومسلم (1688) كلاهما في الحدود، وأحمد في المسند (25297)، وأبو داود في الحدود (4373)، والترمذي في الحدود (1430)، والنسائي في قطع السارق (4899)، وابن ماجه في الحدود (2547) عن عائشة.

[2] – أحمد الريسوني (نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية) صـ 171، ط الأولى، مطبعة مصعب 1994م مكناس.

الشواهد والأدلّة – إنما هو الوسيط بين طرفي الإفراط والتفريط. وهذا هو المعنى الذي يتبادر إلى الذّهن حين يوصف الإسلام بأنّه دين الوسطية والاعتدال. إذ قد تقرّر عند العقلاء قاطبة تخلّف القاعدة في بعض جزئياتها، وأنّ ذلك لا يسلب عتها صفة القاعدة، وكان الاستثناء من الحكم العام واردا في كل الشّرائع، حتّى قيل: من القواعد عدم اطراد القواعد، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه...

على أنه أود أن أقرر هنا أمرا مهما، وهو أن الداعية الوسطي أو المفكر الوسطي لا يضرّه أن يخرج عن الوسطية في بعض الأحيان إلى اليمين أو إلى اليسار، على معنى أن يغلو حينا أو يقترب من الغلاة، أو يفرّط حينا أو يقترب من المفرطين، فما هو إلا بشر غير معصوم، تؤثر عليه المؤثرات المختلفة، عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه. المهم هو الاتجاه العام، والأغلب على علمه وفكره، وللأكثر حكم الكل، والناذر لا حكم له.

4- تصور خاطئ رابع:

ومن التصوّرات الخاطئة أو المفاهيم المردودة هنا: توهّم بعض الناس: أن الوسطية تعني في بعض الأحيان: التنازل عن جانب السمو والترقّي، والرضا بجانب التنزّل إلى الأدنى والأسفل، على نحو ما يقال: نصف نصف، أو القبول لأنصاف الحلول، أ, اللقاء في منتصف الطريق، ويسمي بعض الناس هذا الاتجاه في سلوك التدني (واقعية) أو (عملية)، كما يسمى الاتجاه الآخر (مثالية) أو (خيالية) أو نظرية.

فإن كان هذا هو (الوسط) عند بعض الناس، من أصحاب الهمم المنحطة، والعزائم الواهية، فهذا وسطهم هم، وليس وسطنا أو وسطيتنا، التي ندعو إليها، ويدعو إليها الإسلام. وهذا وسط أشبه ب (النَّصَف) الذي قاله الشاعر فيمن يخطب امرأة ويسأل الناس عنها، فيقولون له: إنها (نَصَف)! فيقول الشاعر هنا:

إذا خطبت قالوا: إنها نَصَف   فإن أحسن نصفيها الذي ذهبا!

وهذا بعيد جدا عن نظريتنا في (الوسطية) الملازمة ل(الخيرية). فمن المتفق عليه بين مختلف العلماء والمحقّقين في أصناف العلوم الإسلامية، من أصول وفروع، ومن معارف شرعية ولغوية، ومن عقلية ونقلية: أن خير الأمور أوساطها.

وبعضهم اعتبر هذه الجملة حديثا نبويا، ولكن لفظها لم يصح، إنما صحّ معناها ومفهومها واستفاض بمحكمات النصوص في القرآن والسنة.

إن القرآن – وهو مصدرنا الأول للتشريع والتوجيه – يدعونا أبدا أن نرنو ونتطلع إلى (الأحسن) لا إلى مجرد (الحسن)، كما قال تعالى: **{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [هود:7]،[الملك:2]. وقال تعالى: **{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}** [الزمر:55].

كما مدح الله تعالى أولي الألباب من عباده الذين هداهم ورضي عنهم، فقال: **{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}** [الزمر:18]. كما علّم القرآن المسلم أن يتوق دائما إلى (التي هي أحسن)، في جدال المخالفين، وفي دفع السيئة، وفي قربان مال اليتيم.

فهذا هو القرآن، وأما السنة، فهي على نفس النهج، فبقول الرسول الكريم: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن"[1].

فالرضا بالدون، وبالحد الأدنى باستمرار، ليس من شأن المؤمن الذي يحب معالي الأمور ويكره سفسائها.

[1] – رواه البخاري في الجهاد والسير (2790)، وأحمد في المسند (8474) عن أبي هريرة.

الفصل الخامس
وسائل توجيه الأمة إلى الوسطية
(الدعوة والتربية والإفتاء)

ومن المهم بل من الضروري: أن توجّه الأمة إلى منهج الوسطية – بعيداً عن الغلوّ والتقصير أو الإفراط والتفريط، أو الطغيان والإخسار – في كلّ مجالات التوجيه والإرشاد والتبصير والبيان. وهي مجالات أو ميادين أساسية ثلاثة. هي: ميدان الدعوة والإرشاد، وميدان التربية والتعليم، وميدان الإفتاء والأحكام.

أولا - الوسطية في ميدان الدعوة والإرشاد:

ففي ميدان الدعوة والإرشاد – ومنه الإعلام والتثقيف – يجب على الداعية المسلم البصير: أن يأخذ الناس بالمنهج الوسط دائما في كل شيء.

بين العقل والنقل:

ومن ذلك: المنهج الوسط بين النقل والعقل، فلا يصادم أحدهما بالآخر، فإن النقل (أي الوحي) لم يثبت لدينا إلا بالعقل، ولولا العقل ما ثبت الوحي. فإن دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عقلية. على أن ثبوت الرسالة فرع عن ثبوت المرسل، وهو الله تعالى. فالعقل أثبت لنا الحقيقتين الكبيرتين، أي وجود الله وثبوت النبوة، أي أثبتهما أمام من ينكرهما، فلا تستطيع أن تقنعه بقولك: قال الله، وقال الرسول؛ إذ هو لا يؤمن بهما.

والإسلام يغالي بقيمة العقل والفكر، ويعتبر التفكّر والنظر عبادة وفريضة. وتعطيلهما خطيئة وجريمة، وينادي المخالفين **{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** [البقرة:111] [النمل:64]. ويرفض بشدة التقليد الأعمى للآباء والأجداد، وللسادة والكبراء، ويقول في ذلك: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ}** [البقرة:170].

والعقل هو أداة فهم ما أوحى الله به من القرآن ومن السنة، وهو أداة تحصيل العلم النافع من الفقه في الدين، والعلم بالدنيا. وبذلك يكون من (أولي الألباب) الذين يفهمون آيات الله في كونه وفي كتابه.

والعقل هو وسيلتنا في فهم قوانين الكون واكتشاف ظواهره، وتسخيرها في خدمة الإنسان، على أن العقل الذي أثبت الوحي يجب أن يعترف بأن عليه بعد إثباته أن يخضع لمنطقه، ويصدّق بأخباره، ويذعن لأوامره ونواهيه، فهنا يعزل العقل نفسه مختارا ليتلقى من الوحي الذي ثبتت حقيّته بطريقة عقلية قطعية لا مجال فيها لريب أو التباس.

وبهذا يتوافق العقل الصريح مع النقل الصحيح، ويتعاون وحي الرحمن، وعقل الإنسان – وكلاهما من فضل الله تعالى ونعمه – على الرقي بالإنسان، والعمل على صلاح أمره، أفرادا وجماعات، روحا ومادة، دنيا وآخرة، فكل منهما للآخر **{نُورٌ عَلَى نُور}** [النور:35].

بين المثالية والواقعية:

كما أن على الداعية البصير أن يأخذ الناس بالمنهج الوسط بين المثالية والواقعية، فلا يُعيّش الناس في المثاليات المجنّحة، التي تحلّق بأجنحة الخيال، بعيدا عن واقع الناس، وضروراتهم البشرية، ويتعامل مع الناس كأنهم ملائكة ألو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، لا على أنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. لهم غرائزهم وشهواتهم، كما لهم عقولهم وبصائرهم، لهم أهواؤهم وشياطينهم، كما لهم ملائكتهم وملهموهم الخير. فالإنسان طين وروح، وإنسان وحيوان، وملاك وشيطان. فعلينا أن ننمّي ما فيه من خير، ونقلّم أظافر ما فيه من شر. علينا أن نناصر المَلَك الذي فيه، ونحارب الشيطان الذي بداخله. إذا فعل خيرا حمدنا الله عايه، وشجّعناه على المزيد، ولا نغرّه فيطغى، وإذا اقترف شرا، حثيناه على التوبة، وإذا تباطأ عن التوبة لم نقنط منه، ولم نعلّق الباب في وجهه. وعلينا أن نحوطه بالجلساء الصالحين، والأصدقاء الناصحين، ونبعده عن أصدقاء السوء وخلطاء السوء، الذين يسوقون إلى الشر في الدنيا، وإلى النار في الآخرة، وأن ندقّ على أوتار الخير في قلبه، ونظل نذكّره ونذكّره، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، راضين منه بالقليل وأقل القليل أولا، ثم نترقّى به بعد ذلك، حتى يُنقل من الظالم لنفسه، إلى المقتصد، ثم إلى السابق بالخيرات بإذن الله.

بين الرجاء والخوف:

ثم على الداعية البصير، والمرشد الحكيم: أن يأخذ الدعوين بالمنهج الوسط بين الرغب والرهب، أو بين الرجاء والخوف. فلا يبالغ في الترهيب والتخويف من عقاب الله، أوعذاب النار، وعذاب القبر، حتى يوئس الناس من روح الله، ولا يغلو في الحديث عن الرجاء في رحمة الله ومغفرته وعفوه، حتى يؤمّن الناس من مكر الله. كما قال علي رضي الله عنه: (ألا أنبّئكم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يؤيس عباد الله من روح الله، ولم يؤمّنهم من مكره) [1].

ولقد شكا إليّ بعض الآباء أن ابنته – وهي طالبة – تقوم من الليل فزعة مذعورة، بسبب أنها استمعت إلى شريط يتحدث عن عذاب القبر، وما فيه من حيّات كالأفيال، وعقارب كالبغال، على طريقة بعض الوعاظ المبالغين في التخويف!! وهذا ما ننكره ولا نرضاه، ولا يتقبّله المنهج الوسطي الذي نؤمن به، والذي يدعو إلى التبشير لا التنفير "بشّروا ولا تنفّروا"[2].

وهذا هو المنهج القرآني في الترغيب والترهيب، فهو يذكر الوعد مع الوعيد، والجنّة مع النّار، وموجبات الرجاء مع موجبات الخوف، يقدّم أحدها على الآخر بحسب السياق.

انظر قوله تعالى: **{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [المائدة:98]. وقوله تعالى: **{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ}**[الرعد:6] وقوله تعالى: **{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}** [الحجر:49،50] وقوله تعالى: **{غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}** [غافر:3] وقوله تعالى: **{وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ}** [الحديد:20].

وبهذا يتوازن في نفس المؤمن: الرجاء في رحمة الله، والخوف من عذاب الله. كما وصف بعض عباده الصالحين، فقال: **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}** [الزمر:9]. وقال: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً}** [الإسراء:57]. وقال تعالى: **{فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}**

---

[1] - سبق تخريجه.

[2] - سبق تخريجه.

[الأعراف:99]. كما قال: {إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف:87].

وأمر رسوله أن ينادي عباده العاصين له، المسرفين على أنفسهم بالذنوب والخطايا، فقال لرسوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:53]. فلم يحرمهم من شرف عبوديته والانتساب إليه رغم إسرافهم على أنفسهم بذنوبهم.

وهذا ما يجب أن يتيقّظ له الداعية، ويعطي كل قوم ما يحتاجون إليه من الترجية والتخويف، بالقدر الذي يصلحهم، ولا يسرف فيه، فتضيع النتيجة.

وهذا ما نبّه إليه الإمام الداعية الوسطي المصلح أبو الفرج بن الجوزي (ت 597 هـ) رحمه الله، فقال في أحد خواطره في بحث عنوانه: (أصلح الأمور الاعتدال)[1]:

(اعلم أن أصلح الأمور الاعتدال في كل شيء، وإذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم و فسدت في الخير أعمالهم، أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة، فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت، وأحاديث الآخرة تقرأ عليه وتجري على لسانه، فتذكره الموت زيادة على ذلك لا يفيد إلا انقطاعه بالمرة. بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى الكثير الذكر للآخرة: أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نفس أمله قليلا، فيصنّف و يعمل أعمال خير و يقدر على طلب ولد، فأما إذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه أكثر من مصلحته، ألم تسمع أن النبي صلى الله عليه و سلم سابق عائشة رضي الله عنها فسبقته، و سابقها فسبقها، وكان يمزح ويشاغل نفسه؟ فإن مطالعة الحقائق على التحقيق تفسد البدن و تزعج النفس.

و قد روي عن أحمد بن حنبل: (أنه سأل الله تعالى أن يفتح عليه باب الخوف، ففتح عليه، فخاف على عقله! فسأل الله أن يرد ذلك عنه). فتأمل هذا الأصل فإنه لا بد من مغالطة النفس و في ذلك صلاحها)[2].

[1] - العنوان من وضع شيخنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله الذي أشرف على إخراج الكتاب وتصحيحه.
[2] - صيد الخاطر 163، نشر دار الكتب العلمية ببروت.

ويرى الإمام الغزالي أن على سالك في طريق الدار الآخرة: أن يقطع عقبة لا بدّ منها؛ يسمّيها (عقبة البواعث) وتعني البواعث: الحوافز الدافعة إلى استباق الخيرات، واجتناب السيئات، وهي التي تتمثّل في الرجاء في رحمة الله تعالى، والخوف من عذابه. يقول رحمه الله في كتابه (منهاج العابدين):

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العَقَبة في تمام الاحتياط والتحرّز وحدّ الرعاية، فإنها عقبة دقيقة المَسلك، خطرة الطريق، وذلك أنّ طريقها بَيْن طريقين مَخُوفَين مُهْلِكين: أحدهما طريق الأمن. والثاني طريق اليأس، وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائرين، فإنْ غَلَب الرجاء عليك حتى فقدتَ الخوف البتّة، وقعْتَ في طريق الأمن: **{فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}** [الأعراف:99] وإن غَلَب عليك الخوف حتى فقدْتَ الرجاء البتّة وقعت في طريق اليأس **{لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}** [يوسف:87] فإن كنت رَكِبْت بين الرجاء والخوف، واعتصمت بهما جميعا، فهو الطريق العدل المستقيم، التي هي سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم بقوله تعالى: **{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}** [الأنبياء:90].

فإذن ظهر لك في هذه العقبة ثلاثة طرق: طريق الأمن والجراءة، وطريق اليأس والقنوط، وطريق الخوف والرجاء ممتدٌّ بينهما، فإنْ مِلْتَ عنه بقدم إلى يمينك أو يسارك، وقعت في المُهْلِكَين وهَلكتَ مع الهالكين. ثم الشأن أنّ الطريقين الجائرين المُهلِكَين أوسعُ مجالاً وأكثر داعياً، وأسهل سلوكاً من الطريق العدل، لأنك إذا نظرتَ مِنْ جانب الأمن رأيتَ من سَعَة رحمة الله وكثرة فضله وغاية جوده، ما لا يبقى لك معه خوف، فتتّكلُ على ذلك بمَرّة وتأنس به، وإن نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم سياسة الله وكثرة هيبته، ودقّة أمره، وغاية مناقشته، مع أوليائه وأصفيائه، ما لا يكاد يبقى معه رجاء، فتيأس بمَرّة وتقنِط، فتحتاج أن لا تنظر إلى سِعة رحمة الله تعالى فقط، حتى تتّكل وتأمن، ولا إلى عظيم الهيبة والمناقشة فقط، حتى تقنط وتيأس، بل تنظر إلى هذا وإلى هذا جميعا، وتأخذُ من هذا بعضاً، ومن هذا بعضاً، فتركبَ بينهما طريقاً دقيقاً، وتَسلُك ذلك لتَسلم، فإنّ طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض، وعاقبته تؤدّيك إلى الأمن والخسران، وطريق الخوف المحض واسع

عريض، وعاقبته تؤدّيك إلى الضلال، والطريق العدل بينهما طريق الخوف والرجاء، وإنْ كان دقيقا عَسِراً فإنه سبيل سالم، ومنهج بيّن، يؤدِّي إلى الغفران والإحسان، ثم إلى الجِنان والرِّضوان، ولقاء الملك الرحمن، أمَا تسمع قوله تعالى في أبناء هذا السبيل: **{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً}** [السجدة:16]، وقال: **{فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [السجدة:17] فتأمّل هذه الجملة جدا وتشمّر وتنبّه للأمر، فإنه لا يجيء بالهُوَيْنا[1]، والله الموفق).

وقد ذكر الغزالي في هذا الكتاب (منهاج العابدين) من أقوال الله سبحانه في الترغيب والترهيب، ومن أفعاله مع خلقه في الأخذ والعفو، ومن جزائه لعباده بالتواب والعقاب، ومن أحوال الخائفين وأحوال الراجين، ما يجعل المؤمن دائما واقفا بين الحذر والأمل، حتى الأنبياء والصدّيقون لا يأمنون من مكر الله، كما لا يقنطون من رحمته.

قال مطرف بن عبد الله: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لوجدا سواء لا يزيد أحدهما على صاحبه[2].

وروى أبو نعيم عن عمر قال: لو نادى مناد من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً، لخفت أن أكون هو. ولو نادى مناد: أيها الناس، إنكم داخلون النار إلا رجلا واحدا، لرجوت أن أكون هو[3].

وذكر الغزالي: أن علياً رضي الله عنه قال لبعض ولده: يا بنيّ خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبّلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك[4]. انتهى.

ويعرض ابن القيم، رحمه الله لهذا الأمر في (المدارج) فيقول:

(القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر. ولكن السلف

---

[1] - منهاج العابدين ص 253،254 بتحقيق د. محمود مصطفى حلاوى، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت.

[2] – رواه أبو نعيم في الحلية (208/2).

[3] – رواه أبو نعيم في الحلية (53/1) ومقتضى النحو: أن يقول: أن أكون أنا إياه.

[4] – انظر: الإحياء (165/4) والإتحاف شرح الإحياء (424،425/11).

استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف. هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن تكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد. وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحُبّ. فالمحبّة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنّه وكرمه)[1].

بين الفرق الإسلامية المختلفة:

وينبغي لصاحب الدعوة البصير، الفاقه لدينه، والعارف لعصره، والعالم بأحوال أمته: أن يكون وسطا بين الاتجاهات الفكرية السائدة في الأمة، ولا يدع نفسه أسيرا لبعضها دون بعض، بحيث يتفرد به أحدها، ويحبسه في قفصه، ويبعده عن غيره، فيصبح متعصّبا منغلقا على مذهب معيّن، أو طائفة معيّنة، أو جماعة خاصة، في العقيدة أو الفكر أو السياسة، أو السلوك، مخاصما ما عداها، يوسعه ذمّاً وطعناً، دون أن يعطي نفسه فرصة للتأمّل والدراسة والمقارنة، ثم يحكم بين المتنازعين أو المختلفين بالمعروف.

ففي كثير من القضايا: لا تملك مدرسة واحدة، ولا فئة واحدة كل الحق، بل كثيرا ما يكون بعض قولها حقًّا، كما يكون بعض قول خصومها حقّا، والواجب على العالم المنصف الذي ينشد الحق: أن يجمع حق الطوائف بعضه إلى بعض، ليتكون منه القول الصواب، أو على الأقل: الأقرب إلى الحق.

وهذا ما ذكره الإمام ابن القيم في كثير من المسائل التي تختلف فيها الفرق الإسلامية من المعتزلة والمرجئة والجبرية والأشعرية وغيرهم في قضايا الجبر والاختيار، أو ما يسمى أفعال العباد، والإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان وعلاقته بالعمل، وبماذا يدخل المرء في الإسلام؟ وماذا يخرجه منه؟ إلى غير ذلك من القضايا التي اختلف فيها أهل القبلة، وكفّر بعضهم بعضا من أجلها.

قال ابن القيم في كتابه (شفاء العليل):

(وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب، وبعضهم أقرب إلى الصواب، وبعضهم اقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحجته، إنما تنهض على

---

[1] - مدارج السالكين (517/1).

بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه. فكل دليل صحيح للجبرية، إنما يدلّ على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قدير، لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات، وهذا حق، ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأنه الفاعل حقيقة، وأفعاله قائمة به، وأنها فعل له، لا لله، وأنها قائمة به، لا بالله.

وكل دليل صحيح يقيمه القدرية، فإنما يدلّ على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم، واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين، ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادرا على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين.

فأدلة الجبرية متضافرة صحيحة على من نفى قدرة الرب سبحانه على كل شيء من الأعيان والأفعال، ونفى عموم مشيئته وخلقه لكل موجود، وأثبت في الوجود شيئا بدون مشيئته وخلقه.

وأدلة القدرية متضافرة صحيحة على من نفى فعل العبد، وقدرته ومشيئته واختياره، وقال أنه ليس بفاعل شيئا، والله يعاقبه على ما لم يفعله، ولا له قدرة عليه، بل هو مضطر إليه مجبور عليه.

وأهل السنة، وحزب الرسول، وعسكر الإيمان، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم برآء من باطلهم، فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به، ونصره وموالاة أهله من ذلك الوجه، ونفي باطل كل طائفة من الطوائف، وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه.

فهم حكام بين الطوائف، لا يتحيّزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردون حق طائفة من الطوائف، ولا يقابلون بدعة ببدعة، ولا يردون باطلا بباطل، ولا يحملهم شنآن قوم يعادونهم ويكفرونهم على أن لا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل، والله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف، فقال: **{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا**

أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} [الشورى:15] فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه، وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وأن لا يتبع هوى أحد من الفرق، وأن يؤمن بالحق جميعه، ولا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات، وأنت إذا تأملت هذه الآية، وجدت أهل الكلام الباطل، وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظا، وأقلهم نصيبا، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحق بها وأهلها)[1].

بين السلفية والصوفية (نسلّف الصوفية ونصوّف السلفية):

وفي عصرنا نجد الخلاف منتشرا بين من يسمّونهم (السلفية) ومن يسمّونهم (الصوفية) والحرب دائرة الرحى، مشتعلة الأوار بين الفريقين. وموقف أهل الوسطية هنا هو: فك الاشتباك بين الطرفين، وعقد الصلح بين الفريقين، وتطعيم كل فريق بأفضل ما عند الآخر. فنمزج السلفية بالصوفية البعيدة عن الشرك والمبتدعات، ونمزج الصوفية بالسلفية البعيدة عن التكفير والتفسيق والتبديع، ليخرج من بينهما مزيج متوازن منسجم يجمع بين شدة السلفية، ورقة الصوفية، كما يخرج من بطون النحل التي تأكل من كل الثمرات، شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

وأذكر أني تحدثت في هذه القضية مع المفكر الإسلامي السوري المعروف الأستاذ محمد المبارك، وقال لي: يجب أن نتفق على تسليف الصوفية، وتصويف السلفية! وقلت له: هذا حق، وهو المطلوب في هذه المرحلة. فإن الصوفية ينقصها الانضباط بأصول الشريعة ونصوصها التي يُحْكِمها السلفيون، حتى لا يقعوا في الشرك في العقيدة، أو الابتداع في العبادة، أو قبول الخرافات في الفكر. كما أن السلفية في حاجة إلى روحانية المتصوفة ورقّتهم، لترطيب جفاف القلوب، وصرامة الالتزام الحرفي.

وهذا ما رأيناه بجلاء في موقف الإمامين الكبيرين: ابن تيمية وابن القيم، فهما – مع سلفيتهما المشهورة والمعروفة التي عاشا عمرهما داعيين إليها، شارحين لها، ذابّين عنها – من أعظم دعاة الربّانية الصادقة، والإيمانية الباسقة، والروحانية الصافية، المؤسسة على الكتاب والسنة. ولابن تيمية في مجموع الفتاوى مجلدان في

---

[1] - انظر: شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل صـ 51،52.

التصوف والسلوك. ولابن القيم ذخيرة هائلة من مصنفاته في التصوف، لا تخفى على دارس، أشهرها موسوعته (مدارج السالكين، شرح منازل السائرين إلى مقامات (إيام نعبد وإياك نستعين)).

وكلام ابن تيمية عن التصوف هو أعدل ما قيل فيهم، بلا إفراط ولا تفريط. وهو ما يجب أن يحتذى فيما يختصم فيه الناس، دون تحكيم الأهواء والأحقاد.

دعوة حسن البنا إلى الشمول والتوازن:

وهذا ما جعل الإمام حسن البنا يقول عن دعوته: إنها تضم كل هذه المعاني المتفرقة في الجماعات والجمعيات الإسلامية المختلفة.

فقال في رسالة المؤتمر الخامس شارحا ما سماه (إسلام الإخوان المسلمين) وهو يعني: ما انفردوا به من فهم شمولي متوازن للإسلام، بعد أن جزأه الآخرون، وجعلوه لحما على وضم، لا كما وصفه الله حين قال لرسوله: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}** [النحل:89].

ووصف حسن البنا جوانب الإصلاح في دعوة الإخوان، فقرّر أنها:

1 – دعوة سلفية: لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب وسنة رسوله.

2 – وطريقة سنية: لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العاقئد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

3 – وحقيقة صوفية: لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

4 – وهيئة سياسية: لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل، وتعديل النظر إلى صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

5 – وجماعة رياضية: لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف[1]، وأن النبي صلى الله عليه يقول: "إن لبدنك عليك حقاً"[2]. وأن تكاليف الإسبلام كلها (لا يمكن) أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي؛ فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بدّ لها من جسم يحتمل أعباء الكسب العمل والكفاح في طلب الرزق، ولأنهم تبعاً لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضية عناية تضارع وربما فاقت كثيراً من الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها.

6 – ورابطة علمية ثقافية: لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[3]؛ ولأن أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف، ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

7 – وشركة اقتصادية: لأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه، وهو الذي يقول نبيه صلى الله عليه وسلم: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"[4]، ويقول: "من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له"[5]، "إن الله يحب المؤمن المحترف"[6].

8 – وفكرة اجتماعية: لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها. انتهى

1– إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم في القدر (2664)، وأحمد في المسند (8791)، وابن ماجه في المقدمة (79)، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (10386) عن أبي هريرة.

2 - متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (1975) ومسلم في الصيام (1159) كما رواه أحمد في المسند (6867) والنسائي في الصيام (2391) عن عبد الله بن عمرو.

3 - إشارة إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه في الإيمان (224)، والطبراني في الأوسط (9)، وأبو يعلى في مسنده (2837)، والبيهقي في الشعب (1665) عن أنس، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (183).

4 - رواه أحمد في المسند (17096) وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن حبان في الزكاة (3210) عن عمرو بن العاص.

5 – رواه الطبراني في الأوسط (7520)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم (108/4)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (5485) ومن الأحاديث الصحيحة في هذا الباب ما رواه البخاري في البيوع: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" (1930).

6 – رواه الطبراني في الأوسط (9182)، والبيهقي في الشعب (1237) عن ابن عمر، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف (106/4)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (1704).

بهذا الشمول المتوازن أو التوازن الشامل، قد جمع بين المتقابلات على نهج وسط ومتناسق، يكمل بعضا بعضا، ولا يناقض بعضه بعضا.

الموقف من الحضارة الغربية:

كما يجب على رجل الدعوة البصير: أن يقف الموقف الوسط من الحضارة الغربية التي أصبحت تسود عالمنا المعاصر، حتى أطلقوا عليها (الحضارة الكونية) نظرا لانتشارها وقوة تأثيرها على أهل الأرض، تبعا لقوة أصحابها، وإن كانت هي (حضارة غربية) لا شك في ذلك.

الدعوة إلى الفناء في الحضارة الغربية:

فإذا كان هناك – من قديم – من يدعو إلى تبنّي هذه الحضارة بكل ما فيها من قيم وموازين، وأفكار ومفاهيم، وآداب وتقاليد، ومشاعر وأحاسيس، وشبهات وشهوات، بما فيها من جذور مادية الفكر، ونفعية الأخلاق، والعصبة للجنس الأبيض، وازدواجية المعايير، واحتقار للدين، وإعراض عن فكرة الآخرة والخلود والجزاء، وينادى بأن الحضارة لا تتجزأ، ويجب أن تأخذ كلها بخيرها وشرها وحلوها ومرّها، ما يحمد فيها وما يعاب.. وأن نقلّدهم في جدنا ولهونا، وفي علمنا وفي فنّنا، وأن نكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون! كما دعا إلى ذلك المفكر المعروف الدكتور زكي نجيب محمود، في فترة من حياته، كما قال هو عن نفسه بصراحة.

الدعوة إلى رفض الحضارة الغربية كلها:

وكان في مقابل هؤلاء من يرفض هذه الحضارة بكل ما فيها، ولا يرى فيها إلا الباطل في الاعتقاد، والكذب في الأقوال، والشر في الأفعال، والبغي في العلاقات، حتى ما فيها من تفوّق في العلم والتكنولوجيا، فقد أخذوه أصلا من عندنا، وأضافوا إليه وطوّروه، فهو بضاعتنا تردّ إلينا.

هؤلاء يضخّمون انحرافهم في نظرتهم إلى المرأة، وإلى الجنس، واستباحتهم للحرمات، وتسميتهم (الشذوذ الجنسي) مثلية، ووقوفهم مع الإباحية والعري، وتأييدهم للظلم الواقع على الشعوب المستضعفة، وأبرز مثل له: الظلم الصارخ الواقع على

أهل فلسطين، منذ نحو تسعين سنة إلى اليوم، وخصوصا بعد قيام دولة الكيان الصهيوني إلى اليوم.

هؤلاء يرفضون حتى الديمقراطية وما انتهت إليه من أوضاع سياسية، حدّت بها من طغيان الحكام المتسلّطين الجبّارين، وما جاء من حماية لحقوق الإنسان، وحرمات المستضعفين، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وحق الجماهير في محاسبة حكّامها، وتغيّرهم إذا أصرّوا على الفساد والطغيان.

أهل الوسط:

وفي مقابل هؤلاء وأولائك، ينبغي أن يقف أهل الوسط، يأخذون من الحضارة خير ما فيها من علم وتكنلوجيا وحسن إدارة، وثقافة تساعد على تقوية العمل الجماعي، والتفكير الجماعي، وعمل الفريق، والنقد الذاتي، والنصح للآخرين، والتغيير بالطرق السلمية، وكل هذه الأشياء حين تحلّلها وتتأملها، تجد لها أصلا في ديننا، ودلائلها الشرعية من كتاب ربنا، وسنة نبيّنا، وروائع تراثنا.

نأخذ خير ما في الديمقراطية من وسيلة الانتخابات وإجرائها في شفافية ونزاهة، وفصل السلطات، وتعدد الأحزاب السياسية، وحرية الصحافة، وإقرار المحافظة على الضروريات والحريات والحرمات وحقوق الإنسان، بعد أن نضفي عليها من روحنا ومن قيمنا ومن ثقافتنا ما يجعلها جزءا من منظومتنا الإسلامية.

كما يجب علينا أن نتجنّب من آفات هذه الحضارة ما أصبح موضع النقد من كثير من فلاسفتها وعلمائها وآدبائها وساستها، الذين دقوا أجراس الخطر، إذا لم تتدارك هذه الحضارة نفسها، وتعالج بصراحة أخطاءها وخطاياها، كما رأينا ذلك في عدد منهم، منهم شنجر، وألكيس كاريل، ولولن ولسون، ورينيه دوبو، وروجي جارودي، وغيرهم.

ثانيا: ـ الوسطية في ميدان التربية والتعليم:

وإذا كان على الداعية أن يأخذ الناس بالمنهج الوسط، فكذلك على المعلم والمربي أن يأخذ مع المتعلمين والمتلقين عنه من الناس: المنهج الوسط، الذي لا وكس فيه ولا شطط.

فلا يدع الناس من حوله يغرقون في متاع الحياة الدنيا، وينسون الآخرة التي هي دار القرار، فهو يعيش في الدنيا كأنما هو مخلّد فيها، هي أكبر همّه، ومبلغ علمه، ومحور تفكيره، ومنتهى آماله، ناسيا أنها أيام معدودة تنتهي بالموت، وأن لذاتها ممزوجة بالآلام، وسرورها مشوب بالحزن، وأنها مزرعة للآخرة وهي خير وأبقى، يزرع الإنسان هنا ليحصد هناك. ولذلك امتلأ القرآن والسنة بالتحذير من غرورها، والتخويف من فتنتها، وكان من الأدعية النبوية المأثورة: "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا"[1].

وقال القرآن: **{فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}** [النجم:29،30]. فالخطر هنا ينجم في أنه **{لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** فالآخرة بعيدة عن إرادته واهتمامه.

ومثله قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات:37–39]. فليس المعيب أن يستمتع بما أحل الله من طيبات الدنيا، إنما المعيب أن يؤثر الدنيا على الآخرة، فالدنيا هي اختياره الأول، وعند المقارنة يفضلّها على الآخرة. وهذا هو الخسران حقّا: أن يؤثر المرء الفاني على الباقي. والحقير على النفيس، والرخيص على الغالي. قال تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [الأعلى:16،17]، وفي الحديث: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر: بم يرجع؟"[2].

كما لا ينبغي للمربي البصير أن يدع الناس يسرفون في الجانب الروحي على حساب الجانب المادي، وبعبارة أخرى يهملون أمر الدنيا من أجل أمر الآخرة، كما هو شأن الرهبانية النصرانية، والمانوية الفارسية، والبرهمية الهندية، والبوذية الصينية، والرواقية اليونانية، وغيرها من المذاهب التي تقوم فلسفتها على تعذيب الجسد من أجل الروح!

فهذا مناف للمنهج القرآني الذي يقول: **{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}** [القصص:77] **{يَا بَنِي آدَمَ**

---

[1] - رواه الترمذي في الدعوات (3502) وقال: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (2783) عن ابن عمر.

[2] – رواه مسلم في صفة الجنة ونعيمها وأهلها (2858)، وأحمد في المسند (18008)، والترمذي (2323)، وابن ماجه (4108) كلاهما في الزهد، عن المستورد بن شداد الفهري.

خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف:32،31].

ومن أدعية القرآن المعبّرة: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [البقرة:201]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر ما يدعو بهذا الدعاء، كما روى ذلك أنس[1].

وكان من أدعية الرسول المعبّرة عن المنهج الوسطي قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري.

وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي.

وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي.

واجعل الحياة زيادة لي في كل خير.

واجعل الموت راحة لي من كل شر"[2].

فجمعت بين خيرات الدين والدنيا والآخرة.

ولذلك أنكر النبي المعلم الأول لأمته على من غلا منهم في عبادته على حساب الحقوق الأخرى الواجبة عليه: حق بدنه في الراحة، وحق عينه في النوم، وحق زوجه في المؤانسة والإمتاع، وحق زواره والمجتمع من حوله.

وكان ينصح أصحابه بالرفق والاعتدال أبدا؛ لأن الله رفيق يحب الرفق، ولأنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، ولأن الاعتدال هو الذي يدوم، والتشدد أو التطرف قصير العمر. وكان يقول عليه الصلاة والسلام: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدُّلجة"[3].

قال العلامة المناوي في شرحه: ((إن الدين يسر) أي دين الإسلام ذو يسر نقيض العسر، أو هو يسر، مبالغة لشدة اليسر وكثرته، كأنه نفسه (يُسْرٌ) بالنسبة للأديان قبله، لرفع الإصر عن الأمة (ولن يشادّ) أي يقاوم (الدين أحد إلا غلبه) أي

---

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (4522)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2690)، كما رواه أحمد في المسند (13163)، وأبو داود في الصلاة (1518) عن أنس.

[2] – رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2720) عن أبي هريرة.

[3] - سبق تخريجه.

لا يتعمّق أحد في العبادة، ويترك الرّفق، كالرهبان في الصوامع، إلا عجز فغُلِب[1]. اهـ.

قال ابن المنيّر: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا، ورأى الناس قبلنا: أن كل متنطّع في الدين ينقطع اهـ، قال في (الفتح) وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، والمبالغة في التطوّع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلّي الليل، ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح، أي عن وقت الفضيلة إلى أن خرج الوقت. وفي حديث محمد بن الأذرع عند أحمد: "إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمبالغة، وخير دينكم أيسره"[2]. وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطّع، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضي به استعمال الماء إلى حصول الضرر.. وليس في (الدين) على هذه الرواية إلا النّصْب. وفي رواية: "ولن يشادَّ الدينُ إلا غلبه"[3]، بإضمار الفاعل للعلم به، وحكى صاحب المطالع أن أكثر الروايات برفع (الدينُ) على أنّ يشادّ مبني لما لم يسم فاعله وعارضه النووي بأن أكثر الروايات بالنصب. قال ابن حجر: ويجمع بين كلاميهما بالنسبة إلى روايات المشارقة والمغاربة[4].

(فسدّدوا) الزموا السداد، وهو الصواب بلا إفراط وبلا تفريط (وقاربوا) أي لا تبلغوا النهاية بل تقربوا منها (وأبشروا) أي أبشروا بالثواب على العمل الدائم وإن قل، وأبهم المبشَّر به تعظيما وتفخيما (واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة) بفتح أولهما أي واستعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في وقت النشاط كأوّل النهار وبعد الزوال، وأصل الغدوة السير أول النهار، والروحة السير بعد الزوال (وشيء من الدُّلْجة) بضم وسكون، قال الزركشي والكرماني: كذا الرواية، ويجوز فتحهما لغة، أي واستعينوا عليها بإيقاعها آخر الليل أو والليل كله بدليل تعبيره بالتبعيض، وهذه أطيب أوقات

---

[1] – فيض القدير (417/2) نشر دار الكتب العلمية بيروت.

[2] – رواه أحمد في المسند (15936)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن.

[3] – سبق تخريجه.

[4] – فتح الباري (94/1) نشر دار الفكر بيروت.

المسافر؛ لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم خاطب مسافراً فنبَّهه على أوقات نشاطه. وحسن هذه الاستعارة أن الدنيا بالحقيقة دار نقلة للآخرة، وهذه الأوقات أروح ما يكون فيها البدن للعبد ذكره بعض الشراح.

وقال البيضاوي: الروحة والغدوة والدُّلْجة استعير بها عن الصلاة في هذه الأوقات؛ لأنها سلوك وانتقال من العادة إلى العبادة، ومن الطبيعة إلى الشريعة، ومن الغيبة إلى الحضور.

وقال الكرماني: كأن المصطفى صلى الله عليه وسلم يخاطب مسافرا انقطع طريقه إلى مقصده، فنبَّهه إلى أوقات نشاطه التي ترك فيها عمله؛ لأن هذه أوقات المسافر على الحقيقة، فالدنيا دار نقلة وطريق إلى الآخرة، فنبَّه الأمة على اغتنام أوقات فرضهم . قال المناوي: قال جمع: هذا الحديث من جوامع الكلم)[1].

وكان عليه السلام يحذّر، بل يشدّد التّحذير من الغلو والتنطّع، كلما جاءت مناسبة لذلك، مبيّنا خطر الغلو والتشدد الدائم، أن وراءه الهلاك، هلاك الفرد، وهلاك الأمة.

ففي عبادة الحج، حين جيء له بحصوات مناسة ليرمي بها، قال: "بمثل هذا فارموا، إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين"[2].

وقال في مناسبة أخرى: "هلك المتنطعون"[3]. قالها ثلاثا.

والمتنطعون هم المتعمّقون الغالون في فهم الدين وتطبيقه، بحيث يعسّرون ولا ييسّرون، وينفّرون ولا يبشّرون.

وكان المخوف على الصحابة هو نزعة الغلو والتشدد، ولم يكن نزعة التفريط أو الانحلال هي المخوفة عليهم، ومع هذا لا يخلو الأمر من وجود بعض المقصّرين، الذين قد يضيّعون بعض الفرائض، مثل ذلك الرجل الذي نام حتى أصبح، وطلعت عليه الشمس، فقال: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه"[4].

---

1 – فيض القدير شرح الجامع الصغير (329/2) شرح حديث (1969) نشر دار المعرفة بيروت.

2 - رواه أحمد في المسند (1851) وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير زياد بن الحصين فمن رجال مسلم، و النسائي في مناسك الحج (3057)، و ابن ماجه في المناسك (3029) عن ابن عباس.

3 – سبق تخريجه.

4 – متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (1144)، ومسلم في صلاة المسافرين (774)، كما رواه أحمد في المسند (4059)، والنسائي في قيام الليل (1608)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (1330) عن ابن مسعود.

ومثل قوله عليه السلام عن بعض الناس: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق" ثم فسرها بأنها صلاة من يرقب قرص الشمس حتى إذا اقتربت الغروب "قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا"[1].

كما وجد في ذلك المجتمع الطاهر من يرتكب بعض المحرّمات، ولهذا أقيمت فيه الحدود والتعزيرات، ولكن على قلة. وكل الذين أقيم عليهم حد الزنى إنما قام بإقرارهم على أنفسهم طالبين أن يتطهّروا.

وبعض من أجريت عليهم عقوبة الخمر من الضرب بالأيدي والثياب ونحو ذلك، حتى قال بعضهم في أحدهم: ما أكثر ما يؤتى به لعنه الله! وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تكن عونا للشيطان على أخيك!"[2] وفي رواية: "لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله"[3]!

وقال القرآن في فئة من هذا المجتمع: **{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [التوبة:102].

ولم يكن فيه الفجرة المتبجّحون والمجاهرون بمعاصي الله تعالى.

إنما كان يتمثل الخطر على هذا المجتمع في فئة (المنافقين) الذين يتظاهرون بالإسلام وما هم بمسلمين، **{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}** [البقرة:9].

وهم الذين وصفهم بقوله: **{ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}** [التوبة:54]. **{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ}** [النساء:142،143].

فهؤلاء هم الذين ينبغي التيقظ لهم، والتحذير منهم، حتى لا تتسلل عدوى أمراضهم إلى المجتمع كله.

---

[1] – رواه مسلم في الصلاة (622)، وأحمد في المسند (12929)، وأبو داود (413)، والترمذي (160) كلاهما في الصلاة، والنسائي في المواقيت (511) عن أنس.

[2] – رواه البخاري في الحدود (6777) وأحمد في المسند (7985) وأبو داود في الحدود (4477) والنسائي في الحد في الخمر (5287) عن أبي هريرة.

[3] – رواه البخاري في الحدود (6780) عن عمر.

نهج المربين الربانيين:

وعلى المربين البصراء الربانيين: أن يربوا أبناء الأمة على تحرّي هذا المنهج القرآني النبوي واتباعه، وعدم الحيدة عنه إلى اليمين أو الشمال. وهو ما مضى عليه الصحابة رضي الله عنهم، حتى قال عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو الذي نهاه النبي عن الغلو في العبادة والجور على حق نفسه وأهله وجماعته ودنياه: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)[1].

وروى أبو عبيد في (غريب الحديث) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي)[2].

قال الزمخشري: في (الفائق) في غريب الحديث: النمط الجماعة من الناس أمرهم واحد. وقد تقدّم الحديث عن هذا الأثر عن علي.

موقف المربي الحق من مريديه:

وعلى المربي الحق أن يسلك بمن يربيهم مسلك التوسط، كما أرشد إلى ذلك القرآن والسنة، في الاعتقاد وفي العبادات، وفي الآداب وفي المعاملات، معاملة المرءِ مع نفسه، ومعاملته مع أسرته، ومعاملته مع جيرانه ومن حوله، ومعاملته مع أمته، ومعاملته مع أعدائه وأعداء أمته.

ويبدأ ذلك المنهج بعلاقة المربي نفسه مع مريديه وتلاميذه، فلا ينبغي له أن يذيب شخصيتهم، ولا يمنعهم حق السؤال أو المناقشة، ناهيك بالاعتراض. كما يروى عن بعض المتصوفة: من قال لشيخه: لم؟ لم يُفلح! أو: المريد بين يَدَي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! أو قولهم: من اعترض انطرد، ومن باح راح!

فقد كان الصحابة يناقشون رسولهم الكريم، ويعترضون على بعض تصرفاته، ويقترحون عليه غير ما رآه، وينزل أحيانا على رأيهم تاركا رأيه الأول. كما اعترض عمر على إرساله عليه السلام أبا هريرة يبشّر الناس: أن من قال (لا إله إلا الله) دخل الجنّة. ووجه تحفّظه أن إطلاق هذا قد يوهم الناس بالاتكال على ذلك وترك العمل، فكان اقتراح عمر أن يدع الناس يعملون، فقال: خلهم يعملون!

---

[1] - رواه الحارث في المسند كتاب الزهد (983/2).

[2] - رواه ابن أبي شيبة في الزهد (35639).

كما أنه لا يدع لهم الحبل على الغارب، أو يجرئهم على التطاول على مقام من يعلمهم، بحيث يجترئون عليه، ويسيئون الأدب معه، فقد علّمنا النبي الكريم أن نعرف للكبير حقه، وللعالم قدره، ولكل ذي فضل فضله. كما قال عليه الصلاة والسلام: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا"[1]. فكيف إذا كان الكبير عالما، أو كان العالم كبيرا؟ فقد اجتمع له الحقان معا.

وقد قيل لأحد العظماء: نراك تحترم معلّمك أكثر من أبيك! فقال: إن أبي سبب حياتي المادية، وهي فانية، ومعلمي سبب حياتي المعنوية، وهي باقية! فنظم هذا الشاعر فقال:

فهذا مربي الروح، والروح جوهر وذاك مربي الجسم، والجسم كالصدفْ!

أدب المتصوفة بين الغلو والجفاء:

وقد قال العلامة إسماعيل الهروي في (منزلة الأدب) من رسالته الشهير (منازل السائرين إلى مقامات "إياك نعبد وإياك نستعين"): الأدب: حفظ الحد بين الغلو والجفاء، بمعرفة ضرر العدوان[2].

وشرح هذا ابن القيم في (المدارج) فقال: (هذا من أحسن الحدود. فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلة الأدب. والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدودا له. فكلاهما عدوان. والله لا يحب المعتدين. والعدوان: هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التي سنَّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرا. وتطويل ما السنة تخفيفه وحذْفُه. كالتشهد الأول والسلام الذي حذْفُه سنة. وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه

---

1 – رواه أحمد في المسند (22755)، وقال مخرّجوه: صحيح لغيره دون قوله : "ويعرف لعالمنا"، والحاكم في العلم (122/1)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (5443)، عن عبادة بن الصامت.

2 – منازل السائرين (67/1) نشر دار الكتب العلمية بيروت.

وسلم. لا على ما يظنه سُرّاق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه. فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه. وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافّات. ويأمرهم بالتخفيف، وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع، فيقضي حاجته. ويأتي أهله ويتوضأ، ويدرك رسول الله في الركعة الأولى. فهذا هو التخفيف الذي أمر به، لا نقر الصلاة وسرقها. فإن ذلك اختصار.

ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام: أن لا يغلو فيهم، كما غلت النصارى في المسيح، ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود. فالنصارى عبدوهم، واليهود قتلوهم وكذبوهم، والأمة الوسط: آمنوا بهم، وعزروهم ونصروهم، واتبعوا ما جاءوا به.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية. فإن الطرفين من العدوان الضار. وعلى هذا الحد، فحقيقة الأدب: هي العدل. والله أعلم)[1] اهـ.

الوسطية الإسلامية في تربية حسن البنا:

ومما ينبغي أن نذكره ونذكّر به هنا: التربية الوسطية التي تميّز بها الإمام حسن البنا، ومدرسته، وقد شرحناها في كتابنا (التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا).

فإذا كان المسلمون وسَطاً بين الأمم والملل، وكان أهل السنة وسطاً بين الفرق، فالإخوان وسط بين الجماعات.

فهم يوازنون بين العقل والعاطفة، وبين المادة والروح، وبين النظر والعمل، وبين الفرد والمجتمع، وبين الشورى والطاعة، وبين الحقوق والواجبات وبين القديم والجديد.

التوسط في الموقف من التراث الإسلامي:

وقد انتفعت الحركة بالتراث الإسلامي كله، فأخذت من علماء الشريعة العناية بالنصوص والأحكام، ومن علماء الكلام الاهتمام بالأدلة العقلية وردّ الشُبهات، ومن علماء التصوف العناية بتربية القلوب وتزكية النفوس، مع الحرص البالغ على التحرر

---

[1] - مدارج السالكين (392،393/5).

مما علق بهذا التراث من شوائب ومحدثات، والرجوع إلى النبع الصافي من كتاب الله وسنّة رسوله.

بين التعصب المذهبي واللامذهبية:

لم يقف حسن البنا من التراث الفقهي بمذاهبه ومدارسه موقف الرفض المطلق، كما صنع بعض الناس، الذين يسمّونهم (اللامذهبيين)، ولا موقف القبول أو التقليد المطلق للمذهب، كما فعل آخرون، فلم يوجب التقليد أبدا للمذاهب، ولم يُحرّمه كذلك أبدا على كل الناس، لكنه أجازه لبعض الناس بقيود وشروط هي غاية في الاعتدال، فقال: فقي (الأصل السابع) من الأصول العشرين:

(ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به – مع هذا الإتباع – أن يجتهد ما استطاع في تعرُّف أدلة إمامه، وأن يتقبّل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صحَّ عنده صلاح مَنْ أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر) أي القدرة على الترجيح والاجتهاد ولو جزئيا.

الاعتدال في الموقف من تراث السلف:

وليس معنى هذا أنّ كل ما قاله إمام من أئمة الدين حق وصواب، فإنما هو مجتهد في الوصول إلى الحق، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، وليس علينا – بل ليس لنا – إذا تبيّن خطؤه أن نتّبعه. ولهذا قال في (الأصل السادس) بصريح العبارة:

(وكلّ أحد يؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم. وكل ما جاء عن السَلَف – رضوان الله عليهم – موافقاً للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنّة رسوله أولى بالاتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص – فيما اختُلِف فيه – بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدَّموا).

وهذا هو الاعتدال، كما أنه هو الإنصاف الذي لا يستطيع أحد أن يماري فيه، وهو موقف شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المركز الجليل (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

ما تلون بلون عصره وبيئته يلزم العصور الأخرى رعايته:

ولم يقف رائد الحركة الإسلامية عند هذا الحد، بل أعلن أن كل الآراء والعلوم التي تلونت بلون عصرها وبيئتها لا تلزمنا نحن دعاة الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري، ولنا الحرية أن نجتهد لأنفسنا كما اجتهدوا، وإن كنا لا نهمل دراستها والانتفاع بها، فهي ثروة عظيمة بلا شك.

يقول في (رسالة المؤتمر الخامس):

(يعتقد الإخوان المسلمون أنّ أساس التعاليم الإسلامية معينها هو كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبداً، وأن كثيراً من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام، وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها، والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقي النُظم الإسلامية التي تُحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي: معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية، حتى لا نُقيِّد أنفسنا بغير ما قيَّدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جميعاً).

هذه هي روح التجديد الحق، تجديد الاعتدال لا تجديد الشطح والتطرف.

هذا موقفه من قضية الفقه وقضية الاجتهاد والتقليد، والمذهبية واللامذهبية، وسَطَاً معتدلاً، لا غلو ولا تقصير.

التوسط في الموقف من قضايا العقيدة:

وكذلك كان موقفه في قضية (العقيدة) وما جرى حولها من خلاف في بعض المسائل، وفهم بعض النصوص، واختلاف الفرِق والمذاهب في ذلك.

لقد كان يعتنق عقيدة أهل السنة والجماعة، ويتبنى طريق السلف في فهم الآيات والأحاديث المتعلّقة بصفات الله تعالى. وكان حريصاً كل الحرص على تحقيق التوحيد، ومحاربة الشرك بكل ألوانه وأنواعه: أكبره وأصغره، وجليّه وخفيّه، منكراً على مظاهر الوثنية، وكل المبتدعات الشركية التي دخلت على حياة كثير من المسلمين، مثل الزيارات الشركية للأضرحة، والاستغاثات الشركية بالأولياء، وإتيان الكهنة العرّافين وتصديقهم، إلى غير ذلك من صور الأباطيل والانحرافات.

ولكنه يمهّد لهذه الحملة على الشركيات والبدع، بما يهيئ الأنفس والعقول لتقبّلها، ويصوغ إنكاره في عبارات لبقة حكيمة، تجمع بين مرارة الحق وحلاوة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

التوسط في الموقف من الأولياء ومقابرهم:

اصغ إليه في (الأصول العشرين):

(محبة الصالحين واحترامهم، والثناء عليهم بما عُرِف عليهم من طيب أعمالهم، قُربة إلى الله تبارك وتعالى. والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}** [يونس:63].

والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم – رضوان الله عليهم – لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، في حياتهم، أو بعد مماتهم، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم.

وزيارة القبور أياً كانت: سنّة مشروعة، بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا، ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم، عن قُرب أو بُعد، النذر لهم، وتشييد القبور، وسترها، وإضاءتها، والتمسح بها، والحَلف بغير الله، وما يلحق بذلك من المبتدعات: كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة).

وهكذا نراه يهتم ببيان الحق قبل فضح الباطل، ويقدم التعريف بالمعروف قبل إنكار المنكر. وبذلك يلين النفوس التي شبّت على الباطل وشابت عليه، ويدخل إليها دخول الداعية الموفق، والمربّي الحكيم، دون استثارة المعاندين، أو تأليب المخالفين.

التوسط في قضية الصفات الإلهية الجبرية:

وكذلك كان الشأن في موضوع (الصفات الإلهية) وما ثار فيها من جدل بين العلماء من مؤولين وغير مؤولين، فهو يغض الطرف عن هذا الخلاف، راجعا إلى معين السهولة الأولى، بعيدا عن تكلّف التأويل، وإثم التعطيل، يقول في (الأصل العاشر):

(ومعرفة الله تبارك وتعالى، وتوحيده، وتنزيهه، أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة، وما يليق بذلك من التشابه .. نؤمن بها كما جاءت

من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرّض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء. ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: **{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}** [آل عمران:7]).

الاعتدال في تقويم التصوف:

وبمثل هذه الروح المنصفة المعتدلة وقف من التصوف: فلم يقبله كله بعجره وبجره، وسنيّه وبدعيّه، ولم يرفضه كله بما فيه من صواب وخطأ، وحسن وسوء، بل كان مبدؤه هنا: خذ ما صفا ودع ما كدر. فليس كل ما في التصوف باطلا، وليس كله حقا، وليس كل المتصوفة مبتدعة، وليس كلهم على سنّة، فلا بد من الانتقاء، والاختيار، والاستفادة من تراث القوم، وفيه من الحرارة والتأثير ما ليس في غيرهم، ولكلامهم صولة ليس لكلام من سواهم، وقد سجل رأيه في التصوف بصراحة في كتابه (مذكرات الدعوة والداعية).

ورغم أنه بدأ في أول الأمر على صلة بإحدى الطرق فهو لم يُسلم زمامه إليها، بل أخذ منها وترك، وقال عن نفسه وعن صديقه السكري: كنّا مريدين أحرارا في تفكيرنا، وإن كنّا مخلصين كل الإخلاص – في تقديرنا – للعبادة والذكر وأدب السلوك.

مع أن الطريقة نفسها كانت أبعد من غيرها عن البدع، وكان يعجبه من شيخها شدّته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى للملوك والكبراء، واتباع للسُّنن ومحاربة للبدع، ولم يكن يصغي كثيرا لما يسمعه من كرامات الشيخ وخوارقه الحسية، فعمله في هداية الخلق، ونشر الحق أعظم من الكرامات في نظره.

التوسط في الموقف من البدعة:

ولم تلن قناة حسن البنا للبدع والمحدَثات التي راجت بين كثيرين من المتصوفة عن الزيارات البدعية للأضرحة، والتبرّك بالقبور، ودعاء الأموات، وتعليق التمائم، وغيرها، فأعلن الحرب على هذه الأشياء في (الأصول العشرين)، واعتبرها كبائر تجب محاربتها، ولا نتأوّل لها سداً للذريعة.

ومع هذا قال في إنكار البدع ومقاومتها:

(كل بدعة في دين الله لا أصل لها – استحسنها الناس بأهوائهم – سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه: ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شرّ منها).

وهذا هو الفقه حقاً، فإنّ السكوت على المنكر واجب إذا أدّت مقاومته إلى منكر أكبر منه. ولهذا أصل في القرآن والسنّة كما هو معلوم في موضعه. ولهذا كان يصلي التراويح في رمضان ثماني ركعات حسبما صحّ من الحديث عن عائشة .. ولكن لم ينكر على من صلى عشرين، فلكل من الفريقين وجهة ودليل، وسيظل الخلاف في الفروع قائماً لأسباب ذكرها هو في أكثر من رسالة من رسائله.

وقد حكوا عنه أنه زار بلداً اختلف أهله بين صلاة الثمانية وصلاة العشرين، وقام بينهما النزاع على أشدّه، حتى كادوا يقتتلون، واجتمع الفريقان ليسألوه، لم يجبهم بل سألهم هو عن صلاة التراويح: أسنّة هي أم فريضة؟ فقالوا جميعاً: بل سنّة. فقال: والأخوة بين المسلمين واتحاد كلمتهم: سنّة أم فريضة؟ قالوا جميعاً: بل فريضة. فقال في قوة ووضوح كيف تهدمون فريضة من أجل سنّة؟ خير لكم أن تدعوا صلاة التراويح نهائياً في المسجد، وتحتفظوا بأخوتكم سليمة، بدل أن تُصلُّوا ويضرب بعضكم وجوه بعض.

كانت مزيّة حسن البنا الجمع بين عقل السلفي المتبع، وقلب الصوفي المتذوّق. وكذلك أراد لأصحابه.

فهو في العقيدة سلفي خالص، يؤمن بالتوحيد، ويحارب الشرك أكبره وأصغره، وجليّه وخفيّه، ويتبنّى منهج السلف في آيات الصفات وأحاديثها كما بيّن ذلك في رسالته عن (العقائد) وفي أصوله العشرين.

وهو في العبادة كذلك متّبع لا مبتدع، فكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ولكنه في تزكية الأنفس، وتهذيب الأخلاق، وعلاج أمراض القلوب، ومقاومة الهوى، وسد مداخل الشيطان إلى قلب الإنسان متصوف سنّي، ذوّاقة نقّادة، يأخذ لنفسه ولأتباعه من كتب القوم ومناهجهم ما يرقّي الروح، ويطهّر القلب، ويوثق الصلة بالله، والحب بين الإخوان.

وموقفه هنا يشبه إلى حدّ كبير موقف شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، فقد استفادوا من التصوف – علما وعملا وتعليماً – وكتبا في ذلك رسائل وكتباً عديدة، منها لابن تيمية مجلدان في فتاويه: أحدهما تحت عنوان: (التصوف) والثاني تحت عنوان: (السلوك).

أما ابن القيم فله مؤلفات عدة منها: (الداء والدواء)، (طريق الهجرتين(، (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين).

وأعظمها كتابه الجليل (مدارج السالكين، شرح منازل السائرين إلى مقامات: إياك نعبد وإياك نستعين).

و(المنازل) رسالة موجزة مكثّفة لشيخ الإسلام إسماعيل الهروي الحنبلي، ولكنه طالما خالفه فيما ذهب إليه فيها، قائلا: (شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه).

وكان ابن تيمية وتلميذه من كبار الربّانيين، أرباب القلوب الحية، والنفوس الزاكية، والأرواح الموصولة بالملأ الأعلى، حتى حكى ابن القيم عن شيخه أنه قال: إنه لتمر علي أوقات أقول فيها: لو كان أهل الجنة على مثل ما أنا فيه لكانوا في حال طيبة!

ولمّا حبسوه في القلعة لم يوهن ذلك من عزمه، ولم يضعف من أُنسه بمولاه، وقال في ذلك: إنما المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

وقال: ماذا يصنع بي أعدائي؟ إن سجنوني فسني خلوة، وإن نفوني فنفيي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة!

ويبدو لي من تتبّع حياة حسن البنا ومراحل تفكيره ودعوته: أنه بدأ أقرب إلى الصوفية، وانتهى أقرب إلى السلفية، ولكنه لم يقم بينها يوما حربا، بل طعّم صرامة السلفية بروحانية التصوف، وضبط مواجيد التصوف بالتزام السلفية، وكان ذلك هو الطابع الغالب على أتباعه إلا ما ندر.

الاعتدال في النظرة إلى المجتمع وتحديد هويته:

ومن دلائل الاعتدال والتوازن في تربية الإخوان، كما فهمها حسن البنا ونفّذها: نظرته إلى المجتمع وعلاقة الإخوان به، فهي نظرة وَسَطية معتدلة، تنظر إلى المجتمع من أفق رحب، ومن زوايا متعددة، وبمنظار سليم يشبه الغبش والقتام.

فليس هو مجتمعاً خالص الإسلام، كامل الإيمان، كما يتوهّم السطحيون من الناس الذين يشيعون أن أمّة محمد بخير، وأنه لا ينقصنا إلا العلم و(التكنولوجيا) وبذلك تنحل كل العُقد، وتنفض كل المشكلات.

فلا شك أن المجتمع في شتى بلاد الإسلام يعاني أمراضا خطيرة، عقدية وفكرية وخُلُقية واجتماعية، وأن الفساد قد تغلغل في شتّى نواحيه: فساد في العقول، اضطربت به العقائد والمفاهيم، وفساد في الضمائر، اضطربت به الأخلاق والأعمال، وفساد في التشريع، اضطربت به النظم والقوانين، وفساد في الأسرة، اضطربت به العلاقات بين الأزواج والوالدين والأولاد، وفساد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلها، جعل بلاد المسلمين في مؤخرة العالم بعد أن كانت في الطليعة من قافلة البشر، ومأخذ الزمام منها.

ولا شك أن هذا كله نتيجة ضمنية للانحراف عن الإسلام الصحيح، فهماً وإيماناً وتطبيقاً. ولولا هذا ما كان المجتمع في حاجة إلى دعوة جديدة، تصحح فهمه للإسلام، وتجدد إيمانه به، وتدفعه . بالتوجيه الراشد، والتربية السليمة . على حُسن تطبيقه.

مجتمعاتنا مجتمعات مسلمة:

ورغم هذا الانحراف والفساد الشائع في المجتمع، لم يذهب حسن البنا يوماً إلى أنه مجتمع جاهلي كافر.

إنه قد يصف المجتمع بالانحراف أو الفسوق أو العصيان أو الابتداع .. أما الكفر والرّدة فلا.

فلا زالت شعائر الإسلام تُقام في هذا المجتمع، ولا زالت بعض أحكام الإسلام تُرعي وتُنفذ، ولا زال جمهور الناس مؤمنين بربهم ونبيهم وقرآنهم، ولا زالت العاطفة الدينية تحتل مكانها في الصدور، ولا زالت كلمة الإسلام هي المحرّك الأول للشعوب.

الاحتراز من خطيئة التكفير للمجتمعات والأفراد:

كان حسن البنا يربي أتباعه على الاحتراز من خطيئة (التكفير) للمسلمين، والوقوع فيما وقع فيه الخوارج من قبل، حيث كفّروا مَنْ عداهم من المسلمين، واستحلّوا دماءهم وأموالهم، حتى كان من سماتهم البارزة: أنهم (يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان).

وكان ينكر على الجماعات الدينية التي تتراشق فيما بينها بسهام التكفير، والاتهام بالشرك والردّة.

والأصل الأخير من أصوله العشرين يقول في صراحة:

(لا نُكفِّر مسلماً أقرَّ بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما، وأدّى الفرائض: برأي أو معصية، إلا إن أقرّ بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن، أو فسّره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر).

إن تكفير الأفراد والمجتمعات – الذي تبنّاه بعض الدعاة إلى الإسلام فيما بعد، خطأ ديني، وخطأ علمي، وخطأ حركي.

وفي تحديد علاقة الإخوان بالمجتمع، قامت تربية الإخوان على هذه النظرة المتّزنة.

فلم تقم على الذوبان في المجتمع، أو مسايرته في خيره وشره، وحلاله وحرامه باسم (التطور) أو (التحديث) ونحو ذلك من العناوين التي يتكئ عليها دعاة (التغريب) وأدعياء (التجديد) في ديار المسلمين.

كما لم تقم أيضاً على رفض المجتمع، والاستعلاء عليه، ومعاملته معاملة العدو للعدو، ومخاطبته من بعيد، ومن عل، بأنف شامخ، وخد مصعَّر، وشعور بالعزلة والاستكبار.

إنما قامت التربية على أساس الاهتمام بالمجتمع، والتفاعل مع أحداثه، والإحساس بآلامه وآماله، بحيث يفرح الأخ المسلم لأفراحه، ويأسى لأساه، ويعمل لإسعاده وإنقاذه وإصلاحه، فهو كالعضو من الجسد، أو كاللّبنة من البنيان.

وهكذا صوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المؤمنين: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"[1].

"مثل المسلمين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد"[2].

"مَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"[3].

حب الوطن والعمل على رقيه:

والأخ المسلم كذلك محب لوطنه، عامل على تخليصه من كل غاصب، وتحريره من كل قيد يعوقه عن النهوض بواجبه عزيزاً مستقلاً.

يقول الشهيد البنا في رسالته (دعوتنا في طور جديد):

(إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة التي نبتنا فيها، ونشأنا عليها. ومصر بلد مؤمن تلقّى الإسلام تلقّياً كريماً، وذادَ عنه، وردّ عنه العدوان في كثير من أدوار التاريخ، وأخلص في اعتناقه، وطوى عليه أعطف المشاعر، وأنبل العواطف.وهو لا يصلح إلا بالإسلام، ولا يداوَى إلا بعقاقيره، ولا يطبّ إلا بعلاجه. وقد انتهت إليه، – بحكم الظروف الكثيرة – حضانة الفكرة الإسلامية، والقيام عليها، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع؟ وكيف يقال: إن الإيمان بالمصرية لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادي بالإسلام ويهتف بالإسلام!)[4]. انتهى

ثالثا ـ الوسطية في ميدان الإفتاء والأحكام:

وإذا كان مطلوبا من كل من الداعية والمربي: أن يأخذ الناس بالمنهج الوسط في الدعوة وفي التربية، وينأى بهم عن الغلو والتطرف من ناحية، وعن التفريط

---

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (2446)، ومسلم في البر والصلة والآداب (2585)، كما رواه أحمد في المسند (19624)، والترمذي في البر والصلة (1928)، والنسائي في الزكاة (2560) عن أبي موسى.

[2]– متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (6011)، ومسلم في البر والصلة والآداب (2586)، كما رواه أحمد في المسند (18373) عن النعمان بن بشير.

[3]– رواه الطبراني في الصغير (907)، والأوسط (7473)، عن حذيفة بن اليمان، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه عبد الله بن أبي جعفر الرازي ضعفه محمد بن حميد ووثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان (264/1)، انظر: المنتقى (997).

4 – انظر: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا ص 78–87.

والتسيب من ناحية أخرى، فكذلك يطلب من المفتي ورجل الفقه والأحكام: أن يتبع هذا المنهج الوسطيّ إذا أفتى الناس فيما يسألون من أحكام دينهم، في العبادات، أو المعاملات، أو الحلال والحرام. أو علّمهم ذلك في دروسه، وإن لم يسألوه. أو كان قاضيا يحكم بينهم في قضية من القضايا، أو ألّف كتابا في فقه العبادات أو المعاملات أو الفقه المالي أو السياسي أو الإداري.

فلا يكون مع المتشدّدين الذين يميلون إلى التضييق أبدا في كل شيء، حتى لا نكاد نسمع منه – أو نقرأ له – كلمة (حلال) وكأن الأصل هو التحريم، والحلال طارئ، وهو يقدم الأحوط على الأيسر دائما، وهذا ينتهي به في المحصّلة النهائية أو التراكمية إلى أن يصبح الدين مجموعة (أحْوطيّات) وكل أحوط فيها يميل بقدر ما إلى التشديد والإثقال على عباد الله المسلمين، فالنتيجة ستصبح آصارا وأغلالا على الناس، وهي التي جاء النبيّ ليضعها عن الناس، بعد أن عاقب الله بها فترة من الزمن أهل الكتاب، كما قال تعالى عن اليهود: {**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً**} [النساء:160].

فوصف الله رسوله في كتبهم – في التوراة والإنجيل – بأنه: {**يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**} [الأعراف:157].

وكان من الأدعية القرآنية التي علّمها الله تعالى للمؤمنين أن يدعوه بها: ما جاء في خاتمة سورة البقرة: { **رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**} [البقرة:286].

والوسطية هنا هي: التيسير الذي يدفع التعسير، والتبشير الذي يرد التنفير، دون إخلال بالإتقان أو الإحسان الذي يوجبه الله على عباده في كل شيء، ولا تفريط في حدود الله، ولا في أركان العمل وشروطه التي لا يقبله إلا باستيفائها. ففي الصحيح: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[1]. وفي حديث آخر: "إن الله يحبّ من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه"[2].

1- رواه مسلم في الصيد والذبائح (1955)، وأحمد في المسند (17113)، وأبو داود في الضحايا (2815)، والترمذي في الديات (1409)، والنسائي في الضحايا (4405)، وابن ماجه في الذبائح (3170) عن شداد بن أوس.

2 – رواه الطبراني في الأوسط (897)، والبيهقي في الشعب (5313)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (1880) عن عائشة.

فقد قال تعالى: {**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [المائدة:6] وقال سبحانه: {**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**} [البقرة:185] وقال: {**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**} [الحج:78].

وهذا ما نص عليه الأئمة الربّانيون، والعلماء الرّاسخون في العلم، الذين لا يغلون مع الغالين، ولا يقصّرون مع المقصّرين.

وهو ما اتخذته منهجا لي طوال حياتي العلمية، حتى اتّهمني من اتّهمني بالتساهل في الدين، أو التهاون فيه. ومعاذ الله أن أتهاون فيما أمر الله به أو ما نهى الله عنه، فأحلّ ما حرّم، أو أحرّم ما أحلّ، أو أسقط ما فرض. ولكني اتبعت المنهج النبوي في التيسير على خلق الله. وقد وجدته عليه الصلاة والسلام أكثر الناس تيسيرا على البشر. فما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، وكان ينكر بشدّة على من شدّد على نفسه، ويقول: "إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني"[1].

وقال للصائم الذي ترك رخصة الفطر في السفر، رغم ما عانى من مشقة الصيام حتى ظلل عليه، وبدا عليه الإعياء: "ليس من البر الصيام في السفر"[2] أي في مثل هذا السفر.

ويسّر على الرجل الذي جامع امرأته في نهار رمضان، فنزل به من وجوب صيام شهرين متتابعين عليه، إلى إطعام المساكين (ستين مسكينا)، إلى أن انتهى به إلى أن أخذ هو التمر الذي كان يجب أن يدفعه للمساكين؛ لأنه لا يوجد مَنْ هو أحوج منه!

لقد أنكر عليّ بعض إخواننا المتشدّدين: أنّي وسّعت دائرة الحلال في كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) وضيّقت دائرة الحرام، حتى قال بعضهم ساخرا: كان يجب أن يسمّى: (الحلال والحلال في الإسلام)! فلمّا بلغني ذلك، قلت لهم: أقترح عليكم أن تؤلّفوا كتابا مضادا تسمّونه: (الحرام والحرام في الإسلام).

---

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في جزاء الصيد (1865)، ومسلم في النذر (1642)، كما رواه أحمد في المسند (12127)، وأبو داود في الإيمان والنذور (3301)، والترمذي (1537)، والنسائي (3852) كلاهما في النذور والإيمان، عن أنس.

[2] – متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (1946)، ومسلم في الصيام (1115)، كما رواه أحمد في المسند (14794)، وأبو داود في الصوم (2407)، والنسائي في الصيام (2262) عن جابر.

فقه الإعلام يجب أن يقوم على التيسير والتدرج:

وحين أراد صديقنا الشيخ صالح كامل إنشاء قناة (اقرأ) الإعلامية الإسلامية، عقد أول (ندوة فقهية إعلامية) في القاهرة قبيل افتتاح القناة، وطلب مني أن أفتتحها بمحاضرة في (فقه الإعلام). وكان مما قلته في محاضرتي: إن فقه الإعلام يجب أن يقوم أول ما يقوم على قاعدتين أساسيتين:

الأولى: قاعدة (التيسير) وهذه لا خلاف عليها. من ناحية المبدأ، ولكن الخلاف يأتي في التطبيق. فكثيرا ما يردد علماء الفقه القواعد المقرّرة، مثل: المشقة تجلب التيسير، إذا ضاق الأمر اتسع، الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، ولكن عند التطبيق ننساها، وننكر على من يراعيها. والتيسير هنا مطلوب في مجالات كثيرة: في قضايا المرأة، وقضايا الفن، والدراما، والأغاني، والموسيقى، وغيرها. فمن تبنّى رأي المتشدّدين في هذه القضايا، فأولى له ألا يدخل ميدان الإعلام.

الثانية: قاعدة (التدرج) والتدرج سنة كونية، وسنة شرعية، وقد دلّلنا على ذلك في موضعه، فلا يتصور أننا نستطيع أن نغيّر الإعلام الحاضر مما دخله من انحرافات وتجاوزات في التصور والسلوك، في النظر وفي التطبيق، وخصوصا في الأعمال الدرامية، ابتداء من كتابة النص، إلى تحويله إلى سيناريو، إلى إخراجه وتمثيله وتصويره وإنتاجه وتنفيذه، وتسويقه، فلا بد من دخول هذا المعترك والصبر عليه، والتدرج فيه، حتى يتطور إلى فن إسلامي حقيقة، وليس هذا بالأمر اليسير، ولكنه ممكن إذا توافرت الأفكار والعزائم والأيدي والأموال.

وقد ذكر الفقهاء هنا قصة عمر بن عبد العزيز مع ابنه عبد الملك الشاب التقي المتحمس الذي قال لأبيه يوما: ما لي أراك يا أبت تتهاون في إنفاذ الأمور؟! فو الله ما أبالي لو غلت بي وبك القدور في سبيل الله! قال عمر: يا بنيّ لا تعجل، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، ثم حرّمها في الثالثة! وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعونه جملة، فيكون من وراء ذلك فتنة!

وفي رواية: أنه قال له: إن قومك قد أحكموا هذا الأمر عُقدة عقدة. أما يسرّك أن لا يمر على أبيك يوم إلا أحيا فيه سنة، أو أمات فيه بدعة.

وعلى هذا النهج الوسطي كتبت (الحلال والحرام) منذ نصف قرن، وعليه مضيت في تصنيفي لكتب الفقه كبيرة وصغيرة ومتوسطة، ومضيت في سلسلة (تيسير الفقه للمسلم المعاصر) مثل: (فقه الطهارة) و(فقه الصيام) و(فقه الترويح) و(فقه الغناء والموسيقى) وكذلك في برامجي في أجهزة الإعلام ولاسيما في قطر، ابتداء من برنامجي (نور وهداية) في إذاعة قطر، مرورا ببرنامج (هدي الإسلام) في تلفزيون قطر، وبرنامج (المنبر) و(المنتدى) في تلفزيون أبو ظبي، وإنهاء ببرنامج قناة (الجزيرة) الشهير (الشريعة والحياة).

ومثل ذلك الإعلام المقروء أو المكتوب، ابتداء مما كنت أكتبه في مجلة (منبر الإسلام) التي كانت تصدر من (وزارة الأوقاف) المصرية، وكنت أكتب فيها بعد خروجي من السجن الحربي باسم (يوسف عبد الله) دون ذكر القرضاوي، خشية أن يعترض رجال المباحث.. إلى سلسلة كتبي الكبيرة (فتاوى معاصرة) التي صدر منها أربعة مجلدات. وقد التزمت فيها منهجي الذي لم أحِد عنه، وهو منهج الوسطية والاعتدال. والحمد لله.

من مقدمة الجزء الثالث من (فتاوى معاصرة):

ويحسن بي أذكر هنا ما كتبته في مقدمة الجزء الثالث من (فتاوى معاصرة)، حيث قلت:

(ولم أخرج في هذا الجزء عن النهج الذي التزمته، وأيقنت أنه الحق، وهو (النهج الوسط) الذي يجمع بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية للشريعة، وينظر إلى تراثنا الغني بعين، وإلى عصرنا ومشكلاته بالعين الأخرى، محتفظا بكل قديم صالح، ومرحِّباً بكل جديد نافع، ثابتاً في الأهداف والكليات، مرناً في الوسائل والجزئيات، مشدّداً في الأصول، ميسّرا في الفروع، غير متعصّب لمذهب من المذاهب، ولا محبوس في مدرسة من المدارس، ولا مبهور بإمام من الأئمة، بل آخذ من الجميع، وأستفيد من الجميع، دون أن أطعن في مذهب أو إمام، فكلّهم قدوة، وكلّهم إلى خير، حتى إنهم مأجورون على ما أخطأوا فيه.

المفتي البالغ الذروة من حمل الناس على الوسط:

وقد قرأت للإمام الأصولي المحقق أبي إسحاق الشاطبي (ت 790 هـ) كلمات نيّرة في الجزء الرابع من (الموافقات) تحثّ أهل الفتوى على اتّباع المنهج الوسط، الذي لا طغيان فيه ولا إخسار. قال رحمه الله:

(المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدّة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال.

والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مرّ أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين.

وأيضا، فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأكرمين، وقد ردّ عليه الصلاة والسلام التبتّل، وقال لمعاذ لما أطال بالناس في الصلاة: "أفتان أنت يا معاذ"، وقال: "إن منكم منفّرين"، وقال: "سدّدوا، وقاربوا، واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلجة، والقصد القصد تبلغوا"، وقال: "عليكم من العمل ما تطيقون؛ فإن الله لا يملّ حتى تملّوا"، وقال: "أحبّ العمل إلى الله ما دام عليه صاحبه وإن قل"، وردّ عليهم الوصال. وكثير من هذا.

وأيضاً، فإن الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق: أمّا في طرف التشديد فإنه مهلكة، وأمّا في طرف الانحلال فكذلك أيضا؛ لأن المستفتي إذا ذُهِبَ به مذهب العنت والحرج بُغّض إليه الدين، وأدّى إلى الانقطاع عن سلوك طريق الآخرة. وهو مشاهد. وأمّا إذا ذُهب به مذهب الانحلال كان مظنّة للمشي مع الهوى والشهوة، والشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، واتّباع الهوى مهلك. والأدلة كثيرة.

فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاقٍ مضاداً للمشي على التوسط، كما أن الميل إلى التشديد مضاد له أيضاً.

وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخّص تشديد، فلا يجعل بينهما وسطاً وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة وأمّ الكتاب. ومن تأمّل موارد الأحكام بالاستقراء التام عرف ذلك. وأكثر من هذا شأنه من أهل الانتماء إلى العلم يتعلق بالخلاف

الوارد في المسائل العلمية، بحيث يتحرّى الفتوى بالقول الذي يوافق هوى المستفتي، بناء منه على أن الفتوى بالقول المخالف لهواه تشديد عليه وحرج في حقّه، وأن الخلاف إنما كان رحمة لهذا المعنى، وليس بين التشديد والتخفيف واسطة. وهذا قلب للمعنى المقصود في الشريعة. وقد تقدم أن اتباع الهوى ليس من المشقات التي يترخص بسببها، وأن الخلاف إنما هو رحمة من جهة أخرى، وأن الشريعة حمل على التوسّط: لا على مطلق التخفيف، وإلاّ لزم ارتفاع مطلق التكليف من حيث هو حرج ومخالف للهوى، ولا على مطلق التشديد، فليأخذ الموفق في هذا الموضع حذره، فإنه مزلّة قدم على وضوح الأمر فيه[1]. انتهى[2].

الفصل السادس

حاجة الأمة والبشرية اليوم إلى الوسطية الإسلامية

إن أمتنا اليوم تعّد في ذيل القافلة البشرية، بعد أن كانت في مقدمتها. وكل بلادها معتبرة في العالم الثالث، وربما لو كان هناك عالم رابع لدخلت فيه عدة أقطار منها. وكلها محسوبة في (البلاد النامية) وكلها في حاجة إلى الخروج من هذه

[1] – الموافقات (4/260-258).

[2] – من مقدمة الجزء الثالث من كتابي (فتاوى معاصرة) ص 7-9.

المآزق، ومن مشكلاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية المزمنة. ولن تخرج منها إلا بتبني الوسطية الإسلامية. إنها بذلك تصلح نفسها، وتصلح البشرية معها.

إن البشرية اليوم – تحت سلطان الحضارة المادية – مهدّدة بطوفان كطوفان نوح، يمكن أن يأتي على بنيانها من القواعد، ولا بدّ لها من سفينة كسفينة نوح، بها يعصمها الله من الهلاك والدمار.

ولن تكون هذه السفينة إلا رسالة الإسلام، التي جعلها الله رحمة للعالمين وهداية للحائرين، وأودع الله فيها كل مواريث النبوّات الهادية، مصفّاة من الزوائد والشوائب والنواقص.

ولكن هذه الرسالة في حاجة إلى أمّة تمثّلها وتتمثّلها، وتعطي للبشرية الأسوة والنموذج. كما أعطت أمة الإسلام في القرون الأولى، ودخلت الأمم في دين الله أفواجاً.

أُمّة يتجسّد فيها الإسلام: توحيداً خالصاً، وإيماناً صادقاً، وعلماً نافعاً، وعملاً صالحاً، وخُلقاً فاضلاً، ودعوة إلى الخير، وتواصيا بالحق والصبر وتعاونا على البر والتقوى، وجهاداً في سبيل ذلك كله، حتى تكون بحق خير أمة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

أمّة يرى الناس فيها نموذجا حياً للمجتمع الإسلامي، الذي طال انتظار ميلاده.

المجتمع الإسلامي بعقائده وتصوراته، بشعائره وتعبّداته، بأفكاره ومشاعره، بأخلاقه وفضائله، بآدابه وتقاليده، بقيمه ومُثُله، بتشريعاته وقوانينه، باقتصاده وماله،

بلهوه وفنونه[1]. وهو ليس مجتمع ملائكة، ولكنه مجتمع بشر تحكمهم في الأرض هداية السماء.

أمّة وسط، لا تنتمي إلى اليمين ولا إلى اليسار، لا إلى الشرق الشيوعي ولا إلى الغرب الرأسمالي، أمّة متميزة الوجهة، مستقلة الشخصية **{لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ}** [النور:35].

أمّة لا تعيش لنفسها، ولا لهمّ يومها، ولا لملء بطنها، ولا لشهوة فرجها، بل تعيش لغيرها وتحمل على كاهلها همّ البَشرية المعذَّبة، والإنسانية الحائرة، فهي أمّة ذات رسالة عالمية، أخرجها الله للناس، وأرسلها برسالة نبيّها رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، كما قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}** [الأنبياء:107].

ولن تستطيع هذه الأمّة أن تقوم بدروها في إنقاذ البشرية من سعار الحضارة المادية، إذا أصابها هي من شررها وشرورها ما أصاب الآخرين من أدواء المادية والإباحية والنفعية والأنانية.

لهذا كان على هذه الأمّة أن تحصّن نفسها بالإسلام، وأن تجدّد شبابها بالإيمان، وأن تعرض عمّا تشكو منه حضارة اليوم من أوصاب وأمراض، وأن تنصر الله لينصرها الله، ويُمكّن لها في الأرض، ويحقّق لها وعده: **{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}** [الحج:40،41].

لن نصلح بديلا إذا قلّدنا حضارتهم:

لن تستطيع أمّتنا أن تقدم البديل للحضارة المعاصرة، إذا هي قلَّدت هذه الحضارة واتخذتها مَثَلها الأعلى، واتّبعت سننها شبرا بشر، وذراعا بذراع، كما دعا إلى ذلك من دعا من قومنا، في وقت من الأوقات، زاعمين أننا لن نسلك سبيل الرقي، ما

[1] – انظر في ذلك كتابنا: (ملامح المجتمع الذي ننشده) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة في بيروت.

لم (نَفْنَ) في الأوروبيين، وما لم ننقل حضارتهم بجذورها وفروعها، أو – كما قال – بخيرها وشرّها، وحلوها ومرّها، ما يُحَب منها وما يُكرَه، وما يُحمَد منها وما يُعاب.

لقد أُريد لنا يوماً أن نتخلى عن هويتنا العربية الإسلامية، لنلحق بالبحر الأبيض المتوسط – وبعبارة أخرى – بالشاطئ الأوروبي منه.

كما يُراد اليوم أن ننسى هذه الهوية أو نتناساها، لنلحق بما سمّوه (الشرق الأوسط الجديد، أو الكبير!) – وهو التعبير البديل للعالم العربي والعالم الإسلامي – حتى ننصهر مع (إسرائيل) في بوتقة واحدة، وتجمعنا حضارة (شرق أوسطية) جديدة، لا تفرِّق بين عربي وإسرائيلي، ولا بين إسلام ويهودية! وبذلك نفقد حضارتنا المتميزة، ورسالتنا المتفردة، ودورنا المنشود.

إنما تستطيع أمتنا أن تقدم البديل إذا تمسّكت (بمشروعها الحضاري المتوازن المتكامل) بجذوره الإيمانية، وفلسفته الأخلاقية، ووجهته الإنسانية، ونزعته العالمية. واستماتت في الحفاظ على هُويتها ورسالتها، وسيكون هذا في صالحها، وصالح البشرية معها.

ليس معنى أن تلفظ أُمتنا الحضارة الغربية كلها لفظ النواة، وأن تقف موقف الرفض لكل منجزاتها العلمية والعملية، بدعوى أنها حضارة مادية الوجهة، علمانية النزعة، نفعية الصبغة، عدوانية الحركة.

فالواقع أن في هذه الحضارة جوانب إيجابية لا بدّ لنا من الاستفادة منها، ومن ذلك:

1 – العلم، وتطبيقاته التكنولوجية، وهو في الحق بضاعتنا تُرَدّ إلينا، فأسسه قد اقتبست من حضارتنا، ولكنه اليوم بوثباته الهائلة علم غربي بلا ريب.

2 – حسن الإدارة والتنظيم لشؤون الحياة، وقد بلغوا فيه مبلغا عظيما. وهو السرّ وراء نجاحاتهم في شتى الميادين.

3 – العناية بحريّة الإنسان الفرد وحقوقه، والشعوب وحقوقها في الرخاء والأمن والحرية، ووضع الضمانات العملية اللازمة لحمايتها، من مخالب السلطات الحاكمة، وتجاوزاتها، وهذا من حسنات الديمقراطية السياسية الغربية، وإن كان لدينا في أصول حضارتنا ما يغنينا، ولكن لا بأس بأخذ الأساليب والضمانات من القوم، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ الناس بها.

فهذه جوانب من حضارة القوم لا يسعنا إغفالها أو الإعراض عنها، وإن كان علينا أن نحوّر في كل ما نأخذه منهم، بالحذف والإضافة والتعديل، وإضفاء روحنا الإيمانية والإسلامية عليه، حتى يتلائم مع عقائدنا وقيمنا، وينسجم مع أوضاعنا وتقاليدنا، ويفقد نسبه الأول، ويندمج في كياننا الثقافي ومنظومتنا الحضارية.

وقد أقرّ النبي صلى الله عليه وسلم أشياء كانت في الجاهلية، مثل بعض أنواع النكاح، والبيوع كالسلم، والشركات كالمضاربة، والعقوبات كالدية، ولكنه أدخل عليها من الشروط والقيود، ما جعلها إسلامية صرفا، كما اقتبس المسلمون من الحضارات المجاورة ما انتفعوا به، بعد أن تركوا من (بصماتهم) عليه، ما جعله جزءاً من النُّظم الإسلامية.

الإسلام الذي نقدّمه منقذاً للبشرية:

هذا هو الشرط الأول لتقوم أمّتنا برسالتها الحضارية.

أما الشرط الثاني، فيتعلق بالبديل الذي تقدمه أمتنا للعالَم الظامئ، أعني به: الإسلام ورسالته الحضارية.

فإنّ كثيراً من المسلمين ظلموا الإسلام ظلماً مبيناً، ومسخوه مسخاً شائهاً.

فمن الناس من يريد أن يفسّر الإسلام تفسيراً يجعله (طبعة عربية) من الحضارة الغربية، فهو يريد أن يأخذ الحضارة الغربية بكل قيمها وتصوراتها وأوضاعها، ولكن بعد أن يخلع عن رأسها (القبعة) ليضع مكانها (العمامة)! وبهذا

يغدو (الخواجة) الأوربي – أو الأمريكي – المادي النفعي الدنيوي (شيخا) عربيا مسلما!!

وهذا هو موقف (المدرسة التبريرية) التي تريد أن تُضفي الشرعية على الواقع الذي صنعه الغرب في أوطاننا. وزادت على ذلك، بشرح الإسلام شرحاً يجعل المفاهيم الغربية والقيم الغربية، مفاهيم إسلامية! وقيماً إسلامية! وسوق النصوص قسراً لتأييد هذا التوجه.

إن هذا الاعتساف تحريف للإسلام من ناحية، وتنفير للغربيين من الاهتداء بنوره من ناحية أخرى، لأنهم لن يجدوا فيه بديلاً عن حضارتهم التي يشكون من ويلاتها، بل سيجدون فيه روح هذه الحضارة ولبّها في ثياب عربية إسلامية!

ليس إسلام الغلاة الذي ينفّر ولايبشّر:

وفي مقابل هؤلاء أناس يقدّمون الإسلام في صورة تقشعرّ من هولها الجلود، وترتعد من قساوتها الفرائص، وتوجل من ذكرها القلوب.

إنه إسلام الغلاة والمتنطّعين، الإسلام الذي يدعو إلى (الجبرية) في العقيدة، و(الشكلية) في العبادة، و(السلبية) في السلوك، و(السطحية) في التفكير، و(الحَرفية) في التفسير، و(الظاهرية) في الفقه، و(المظهرية) في الحياة!

إنه الإسلام المقطّب الوجه، العبوس القمطرير، الذي لا يعرف غير العنف في الدعوة، والخشونة في المجادلة، والغلظة في التعامل، والفظاظة في الأسلوب.

إنه الإسلام الجامد كالصخر، الذي لا يعرف تعدد الآراء، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات، ولا يقرّ إلا الرأي الواحد، والوجه الواحد، ولا يسمع للرأي الآخر، ولا للوجهة الأخرى، بل يرى أحدهم أن رأيه صواب لا يحتمل الخطأ، وأن رأي غيره خطأ لا يحتمل الصواب.

إنه الإسلام الذي لا يكاد يرى في الإسلام إلا التشريع، ولا يكاد يرى في التشريع إلا الحدود والعقوبات.

إنه الإسلام الذي لا يعرف التسامح مع المخالفين في الدين، ولا يقبل الحوار مع المغايرين في الفكر، ولا يأذن بوجود للمعارضين في السياسية.

إنه الإسلام الذي ينظر بريبة إلى المرأة، فهو يدعو إلى حبسها في البيت، وحرمانها من العمل، ومن المشاركة في الدعوة والحياة الاجتماعية، ومنعها من التصويت بلْهَ الترشيح للمناصب.

إنه الإسلام الذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثروة، ولا توكيد قاعدة الشورى في السياسة، ولا إقرار الحرية للشعب، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما اقترفوه أو سرقوه بالملايين، ولكن يشغل الناس بما سرقه الصغار بالملاليم! وهو يزحم وقته بالجدال في فرعيات فقهية، وجزئيات خلافية، في العبادات أو المعاملات، لا يمكن أن ينتهي فيها الخلاف.

إنه الإسلام الذي يتوسع في (منطقة التحريم) حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرّمات، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعاته، وأقلام كتّابه: كلمة: (حرام).

إن الإسلام بهذه الصورة القاتمة السوداء – الذي يقدّمه بها نفر من أبنائه المخلصين غالباً في نياتهم، القاصرين عادة في أفهامهم – لن يمكنه القيام بدور (البديل) أو (الوارث) للحضارة الغاربة أو التي توشك على الغروب.

إن الإسلام المنشود، هو إسلام الأمّة الوسط، هو (الإسلام الأول) .. إسلام القرآن والسنّة، سنّة النبي صلى الله عليه وسلم وسنّة الراشدين المهديين من بعده .. إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرّفق لا العنف، والتعارف لا التناكر، والتسامح لا التعصب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادعاء، والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيّب، والوسطية لا الغلوّ والتقصير.

إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وأخلاق روحها الخير، وشريعة روحها العدل، ورابطة روحها الإخاء، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل، وملاكها الوسطية والتجديد. ومفتاحها الانتفاع بكل قديم صالح، والترحيب بكل جديد نافع.

إن (منهج الوسطية الإسلامية) هو حبل النجاة، وسفينة الإنقاذ اليوم، لأمتنا العربية والإسلامية من التيه والضياع – بل الهلاك والدمار – الذي يُهدِّد حاضرها ومستقبلها، ويهدّد البشرية من ورائها، التي تأمل فيها خيرا.

هذا الإسلام وحده هو حبل النجاة لنا وللبشرية من ورائنا، وهو القاجر على إنقاذ سفينة الحضارة قبل أن تغرق ونغرق كلنا معها.

فهل تستطيع أمّتنا أن تقوم بالدور المطلوب منها؟ وبعبارة أخرى: هل تريد أن تقوم بهذا الدور؟ بمعنى أن تتبنّى الإسلام عقيدة ورسالة ومنهاج حياة، على المنهج الوسطي، فتحسن الفقه له، والإيمان به، والتطبيق له، والدعوة إليه.

هذا ما نأمله ويأمله كل المخلصين، وما ينتظره التاريخ منا **{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}** [فصلت:33].

ضياع الحقيقة بين طرفين متباعدين:

فمعظم قضاياها الفكرية والعملية الكبرى تضيع فيها الحقيقة بين طرفين متباعدين:

1 - الطرف الأول: طرف الغلو أو التطرف أو التشدد أو الإفراط، سمِّه ما تسميه، المهم أنه هو الطرف الذي يُرهق الأمة من أمرها عسراً، ويوسِّع دائرة المحرمات، ويقدم الأحوط دائماً على الأيسر، ويأخذ بحرفية النص، ولا يُراعي مقاصد الشرع، ويُوقع الأمة في الحرج، ويُعسِّر عليها ما يسَّر الله، ويُعقِّد ما سهَّله الدين، ويُضيّق ما وسَّعه الشرع، لا يسمح لها برخصة، ولا يبيح لها ما تُوجبه الضرورة، ولا

يعرف الظروف المُخَفِّفة، ولا يؤمن بتغيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان والحال. ينكفئ على الماضي، ولا يعايش الحاضر، ولا يستشرف المستقبل، أعمق حكمة عنده قول مَن قال: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وليس في الإمكان أبدع مما كان! لا يقبل الآخر، ولا يحاوره، ولا يتسامح مع مخالف، ولا يرى العالم إلا من منظار أسود. يرى كل الناس أعداء للإسلام يجب أن يقاتلوا في عقر دارهم ولو كانوا مسالمين للمسلمين، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. فهو يرى الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم: الحرب لا السلم.

والطرف الآخر: طرف التسيُّب والتفريط والتقصير والإضاعة. فلا يكاد يتشبَّث بعقيدة، أو يتمسَّك بفريضة، أو يُحرِّم حراماً، الدين عجينة لينة في يديه، يُشكِّله كيف يشاء، ومتى شاء، ليس فيه ثوابت، بل كل شيء فيه قابل لاجتهاد جديد، أو لقراءة جديدة، تنقله من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ما كان ثابتاً يمكن أن يُنفى، وما كان منفياً يمكن أن يثبت. ما كان حقاً يمكن أن يصبح باطلاً، وما كان باطلاً يمكن أن يصبح حقاً!! وكيف لا، وقد رفضوا الفقه وأصوله وأئمته، وتلاعبوا بالسنة، أو أنكروها، وعبثوا بالقرآن وتفسيره؟!

يمكن أن يخرج أصحاب (القراءات الجديدة) للقرآن وللسنة بدين جديد، غير الدين الذي علَّمه الرسول للصحابة، وعلَّمه الصحابة للتابعين. ومضى عليه خير قرون الأمة، وحمله الخلف العدول من علماء الأمة وأئمتها الربانيين، وتوارثه الخلف عن السلف، والأحفاد عن الأجداد. ونشأ عليه الصغير، وهرم عليه الكبير. دين جديد يُحرِّم ما استيقنت الأمة بحله طوال أربعة عشر قرناً، أو يحلُّ ما استيقنت الأمة بتحريمه طوال هذه القرون، يمكن أن يغيِّر العقائد، ويُبدِّل القيم، ويسقط الفرائض، ويشرع في الدين ما لم يأذن به الله.

وبهذا يمكن أن يكون لكلِّ عصر دين، ولكلِّ بلد دين، بل لكل مجموعة دين، بل لكلِّ شخص دين، فليس الدين أمراً يجمع الأمة على كلمة سواء، وعلى الاعتصام بحبل الله جميعاً، بل لا يمكن أن تتكوَّن بهذا الدين أمة، لها عقيدة واحدة، وشريعة

واحدة، وقيم واحدة، ورسالة واحدة. بل الدين في هذه الحالة يفرِّق ولا يجمع، ويُباعد ولا يقرِّب، ويهدم ولا يبني. لأنه يتعدَّد بتعدُّد المتغيِّرات، والمتغيِّرات تتنوَّع – بل تتناقض– بتعدُّد الثقافات والمؤثِّرات، المعرفية والفلسفية من العلوم الاجتماعية، والدراسات اللسانية، والأنثروبولوجية والابستمولوجية، وكل (اللوجيات) المعروفة وغير المعروفة، مما يمكن أن يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد. كل ما أصَّله الراسخون في العلم من أعلام الأمة وأئمتها الكبار، في أصول الدين، أو أصول الفقه، أو أصول التفسير، أو أصول الحديث: كل هذا دَبْر أذان هؤلاء، وتحت أقدامهم.

إنَّ لهم أئمة خارج أرضنا، ومن غير أمتنا، ولا ملّتنا ولا ثقافتنا! أئمة (معصومين) يقلِّدونهم، ويأخذون عنهم، ولا يناقشونهم فيما ذهبوا إليه من دعاوى؛ لأن كل ما يقولونه صدق، وكل ما يعتقدونه حق! وكل ما يرونه صواب!! في حين يعيبون ويشددون النكير على مَن أخذ عن أئمة الأمة، ابتداء من الصحابة، وتابعيهم بإحسان، ومَن تخرج على أيديهم من الأئمة الكبار، الذين كانوا مُثُلاً تُحْتذى في طلب العلم وحسن فهمه، وفي تقوى الله، وسلوك سبيل الهداية والخير.

إن هؤلاء التجديديين أو الحداثيين أو المستغربين – سمّهم ما شئت – يسيرون وراء أئمتهم من الغرب، ويتَّبعون سنتهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وينقلون عنهم كل ما يقولون وما يُقَرّرون، دون اعتراض ولا ملاحظة، ولا مناقشة. ثم يزعمون لنا – ويحلفون – أنهم الأحرار المتحرِّرون أو المتنورون! وما تحرَّروا إلا من قِيَم الإسلام، ومفاهيم الإسلام؛ إن صحّ أن يُسمّى ذلك تحرُّراً، والحق: أنه التحلل لا التحُّرر. إنهم – كما سميتهم من قديم – عبيد الفكر الغربي.

إنَّ الأمة التي وصفها الله بالوسط **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143]. وهي معصومة في مجموعها، فلا تجتمع على ضلالة: ترفض منهج هؤلاء المتسيِّبين المُتحلِّلين من العروة الوثقى. كما ترفض منهج الغلاة المتنطعين الذين أخبر رسول الإسلام بأنهم هالكون " هلك المتنطعون ... " قالها ثلاثا[1].

---

[1] – سبق تخريجه.

لهذا كان لزاماً على وَرَثة الأنبياء من العلماء الربَّانيين – الذين يحملون عِلْم النبوة، وميراث الرسالة، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين –: أن يتبنوا منهج الوسطية، ويبيِّنوه للناس، ويدافعوا عنه، ويُجَلّوا مزاياه، وهو ما تبنّاه (الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين) وأقرّه ضمن ميثاقه، المتضمّن للأصول والمبادئ المتفق عليها بين المنتمين إليه.

الميثاق الإسلامي للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين:

وحين كلّفني الإخوة في المكتب التنفيذي للاتحاد أن أكتب (الميثاق الإسلامي) للاتحاد، كان نُصْب عيني – وأنا أكتبه – أن يكون مُجسِّدا للفكر الوسطي، والمنهج الوسطي الذي أدعو إليه، ويدعو إليه جمهرة العلماء؛ الذين يؤمنون بسمو عقيدتهم، وبعدالة شريعتهم، ويستلهمون تراثهم، ولا يغفلون عصرهم، والحمد لله فقد تحقق فيه ما يريد العلماء. وأقرّ إخواني في المكتب التنفيذي، وفي مجلس الأمناء مجمل ما كتبته، إلا بعض ملاحظات تناولته بالتحسين والإضافة والتعديل، حتى ظهر في صورته الأخيرة، وأقرَّه الجميع على اختلاف مذاهبهم. وقد طُبع منه عشرات الألوف، وتُرجم إلى عدّة لغات. وأمست فكرة الوسطية المتكاملة العادلة المتوازنة من المبادئ المتبنَّاة من قِبَل علماء الأمة.

المهم هنا: أن نُبقي على حُسن فهم الوسطية، وأن ننشر فكرتها في العالم، وأن نُربي عليها أجيال الأمة، وأن نعمل على تطبيقها على أرض الواقع، حتى يتلاقى العلم والعمل، والفكر والسلوك، والنّظر والتطبيق.

الفصل السابع

مفهوم التجديد ومظاهره

وسطية مجدّدة وتجديد وسطي:

بعد أن ألقينا الضوء على مفهوم (الوسطية)، بقي أن نقول كلمة عن مفهوم (التجديد). وقد أضحى مركز القرضاوي يحمل الأمرين معاً: الوسطية والتجديد. والحق أن التجديد داخل في مدلول الوسطية، كما ننشدها، وكما نفهمها، وكما شرحناها هنا، كما أن الوسطية داخلة في مدلول التجديد الحقيقي كما ننشده، وكما نفهمه. وأحد معالم الوسطية، كما عرضناها: تجديد الدين من داخله، والاجتهاد من أهله في محله. فهي وسطية مجددة، وهو تجديد وسطي.

تجديد المسرفين المتسيّبين:

فليس التجديد المقصود هو تجديد المسرفين والمُتسيّبين، الذين يريدون أن يبدلوا مرجعيَّة الأمة إلى غير القرآن، وزعامتها إلى غير محمد، وقبلتها إلى غير مكة، وقانونها إلى غير الشريعة. هؤلاء ليسوا بمُجدِّدين، بل هم مخرِّبون مبدّدون. وهم مقلِّدون لا مُجَدِّدون، هم تابعون للغرب، وليسوا سادة أنفسهم. إنهم يريدون أن يُجدِّدوا كل شيء، وكما قال الدكتور محمد إقبال لبعض هؤلاء: إنَّ الكعبة لا تُجدَّد بجلب حجارة لها من أوربا.

وقد ندَّد شوقي بهؤلاء الذين يرفضون كل قديم ولو كان نافعاً، ويرحِّبون بكل جديد ولو كان ضاراً، فقال في قصيدته عن (الأزهر):

دع عنك قول عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم أمر منكرا

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمّرا

من كل ساع في القديم وهدمه   وإذا تقدم للبناية قصّرا

خصوم التجديد بإطلاق:

وهناك جماعة يرفضون التجديد في الدين مطلقاً، وبعضهم علماء دين كبار. سمعت بعضهم يقول: كيف يجدّد الدين؟ هل يطبع القرآن طبعة منقّحة؟ إن الله قد أكمل لنا الدين، فلا معنى لتجديده. وأعتقد أن الدافع إلى هؤلاء هو خوفهم من استخدام كلمة (التجديد) ذريعة إلى تغيير حقيقة الدين من داخله، وهدمه بأيدي أهله. ولكن إذا صح الحديث بالتجديد، فلا معنى للخوف من أبنائه، وإنما الواجب تجديد مفهومه، وبيان مضمونه، حتى لا يتلاعب به المتلاعبون، ويعبث بتعاليمه العابثون. وهذا هو موقفنا.

التجديد الحق:

فالتجديد الحق هو الذي يبني على الأصول، ويرتبط بالجذور، ويستلهم التراث، ويستنطق التاريخ، ويصل اليوم بالأمس، ولا يتنكر لأسلافه. وإنما يضيف إليهم، وينمي تراثهم العلمي والحضاري، ينتقي منه أفضل ما فيه، ويدع ما لا خير فيه، أو كما قال السلف: خذ ما صفا، ودع ما كدر. يجمع بين العلم النافع والإيمان الراسخ، يحتفظ بكل قديم راشد، ويُرحِّب بكل جديد صالح، يؤمن بالثبات في الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والآليات.

هذا هو التجديد الحق: يرفض موقف (المتغرِّبين) الذين يُروِّجون للتغريب باسم التجديد، ويريدون أن يُغيِّروا هُويَّة الأمة تحت عنوان التحديث أو الحداثة. كما يرفض موقف الذين يريدون تجميد الأمة، فلا تبتكر في العلم، ولا تبدع في الأدب، ولا تجتهد في الدين، ولا تخترع في الصناعة، ولا تفكر تفكيراً مستقلاً في شؤون الحياة. هكذا التجديد في نظرنا يكمل الوسطية، بل هو جزء منها، كما نلمس ذلك في عدد من معالم الوسطية كما عرضناها. فالوسطية كما أشرنا عندنا مجددة، والتجديد عندنا وسطي.

القرآن والتجديد:

من قرأ القرآن الكريم لم يجد في سوره المائة والأربعة عشر، لفظة التجديد لا مصدراً ولا فعلاً، ومن الناس من يعتمد على هذا التتبع اللفظي فيجزم بأن القرآن لا يقر التجديد. ولكن الراسخين في العلم يعلمون أنَّ العبرة ليست للألفاظ والمباني، بل للمقاصد والمعاني، ولفظة التجديد لا توجد في القرآن حقاً، ولكن مضمون التجديد ومقصوده نجده في القرآن. إذ المقصود بالتجديد ليس مجرَّد أن تغيِّر الشيء القديم بآخر جديد، وإن كان الجديد مثل القديم، أو أدنى منه. بل المقصود أن تنتقل بالشيء من حالة إلى حالة أخرى أفضل وأرقى من الحالة السابقة. وهذا هو المقصود بالتجديد.

الارتقاء إلى الأحسن:

والقرآن يدعو دائماً إلى الارتقاء إلى (الأحسن)، ويعلق عين المسلم وقلبه (بالتي هي أحسن) في الجدال، وفي دفع السيئة، وفي قربان مال اليتيم. يقول تعالى: **{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل:125] **{وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [فصلت:34] **{وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [الأنعام:152] [الإسراء:34]. ويؤكّد القرآن أن الله خلق الناس ليبلوهم **{أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [الكهف:7]، **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }** [الملك:2]. كما بين القرآن أن الله خلق السموات والأرض **{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [هود:7].

فليس الابتلاء أو الاختيار هنا ليتميَّز الحسن من السيئ، بل ليتميز الأحسن من الحسن، كأنَّ المنافسة ليست بين السيئ والحسن، بل بين الحسن والأحسن. والقرآن يقول: **{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}** [الزمر:55]. ويقول: **{ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}** [الزمر:18،17].

تطلع المسلم إلى معالي الأمور:

ويقتضي هذا أنَّ المسلم الحق لا يرضى بالدون، ولا بالموقف الهُوْن، ويتطلَّع أبداً إلى معالي الأمور، ولا يتعلَّق بسفسائها. فهو يحبُّ وينشد دائماً أن يتحوَّل من الركود إلى الحركة، والضعف إلى القوة، ومن العجز إلى القدرة، ومن المرض إلى الصحة، ومن الهبوط إلى الصعود، ومن العوج إلى الاستقامة، ومن السيئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن، فهذا ما أرشده إليه القرآن. وهذا هو المراد من التجديد: الانتقال من حالة أدنى إلى حالة أعلى. فالقرآن يدعو إلى ذلك بقوة، ويُربِّي الأمة عليه، لأنه كما وصفه منزله سبحانه: {**يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** } [الإسراء:9].

ولذلك أنكر القرآن بشدَّة على الذين يُصِرُّون على اتِّباع آبائهم، وإبقاء الأمر على ما هو عليه، رافضين كلَّ دعوة جديدة تدعوهم إلى منهج أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً، وأصح دليلاً. ولكنهم يصمون آذانهم، ويغلقون أعينهم، فلا يسمعون ولا يبصرون إلا ما كان عليه الأجداد والآباء، أو السادة والكبراء. قال تعالى منددا بهم: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**} [البقرة:170]، {**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**} [الأحزاب:67].

فالمسلم ليس جامداً على الماضي، ولا متحجّراً على ما كان عليه سلفه الأقدمون، وإن كان حقاً أو باطلاً، بل هو مع الحق يدور معه حيث دار، مكاناً وزماناً، فإذا وجد حقاً أو خيراً، عضَّ عليه بالنواجد، فعمل به، ودعا إليه غيره، ليستفيد منه كما استفاد: {**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**} [فصلت:33]. فهذا هو ما نفهمه من موقف القرآن من التجديد، وهو موقف الترحيب والتأييد.

التجديد في السنة:

أما التجديد في السنة، فالأمر فيها واضح بلا ريب. وقد جاء في ذلك حديث أبي داود الشهير الذي رواه في كتاب الملاحم، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدِّد لها

دينها"[1]. وقد صحَّحه أئمة هذا الشأن، وتلقته الأمة بالقَبول، وحاولوا تطبيقه على الواقع التاريخي، وكان الغالب على أفهامهم أنَّ المجدِّد واحد، ولذا اتفقوا عليه في بعض القرون، واختلفوا في بعضها الآخر، لوجود عدد من الأئمة الذين لهم وزنهم وأثرهم في حياة الأمة.

ولكن هناك من العلماء من اتَّجهوا في شرح الحديث إلى مفهوم أوسع نطاقاً من المفهوم الشائع، وهو أن (مَنْ يُجَدِّد) الواردة في الحديث، تصلح للجمع، كما تصلح للمفرد، ولهذا رجَّحوا أن المجدِّد قد يكون أكثر من فرد، بل ربما يكون المجدِّد أفراداً عدة، بعضهم من الأمراء العادلين، وبعضهم من العلماء المتبحرين، وبعضهم من القادة العسكريين، وبعضهم من الزهَّاد المربِّين الصالحين. وحتى من كان منهم من العلماء، قد يكون بعضهم فقيهاً يبين الأحكام، وبعضهم محدثاً يدافع عن السنة، وبعضهم مفسراً يخدم القرآن، وبعضهم متكلماً يحامي عن العقائد، وبعضهم متصوفاً يزكِّي الأنفس، ويقاوم البدع.

بحثي عن التجديد في ضوء السنة النبوية:

وقد كتبت في أوائل القرن الخامس عشر الهجري بحثاً عن (التجديد في ضوء السنة النبوية) نشرته مجلة (مركز بحوث السنة والسيرة)، ثم ضمَّنته كتابي (من أجل صحوة راشدة تجد الدين وتنهض بالدنيا) يجمل بي هنا أن أنقل منه ما يناسب المقام.

وقد أوردتُ فيه ما ذكره شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في كتابه (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) وهو: ما نبَّه عليه البعض: أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل قرن واحد فقط، بل الأمر فيه كما ذكره النووي في حديث: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"[2] من أنه يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه، ومُحدِّث، ومفسِّر، وقائم بالأمر

---

1 – رواه أبو داود في الملاحم (512)، والحاكم في الفتن والملاحم (567/4)، والطبراني في الأوسط (522/4) عن أبي هريرة.

2– رواه مسلم في الإمارة (1920)، وأحمد في المسند (22403)، والترمذي في الفتن (2229)، وابن ماجه في المقدمة (10) عن ثوبان بهذا اللفظ. وسيأتي تخريجه متفقا عليه من حديث معاوي.

بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وتفرقهم في الأقطار، ويجوز تفرقهم في بلد، وأن يكونوا في بعض دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم، أولا فأولا، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا أتى أمر الله.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا مُتَّجِه، فإنَّ اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدمه فيها، ومن ثم ذكر أحمد: أنهم كانوا يحملون عليه الحديث (يعني الحديث الوارد في التجديد). وأما من بعده فالشافعي، وإن اتَّصف بالصفات الجميلة والفضائل الجمَّة، لكنه لم يكن القائم بشأن الجهاد والحكم بالعدل. قال: فعلى هذا كل من اتَّصف بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد، تعدَّد أم لا[1]. انتهى.

مناقشة وترجيح:

وهذا هو الذي أختاره هنا، هو ما ذهب إليه ابن الأثير والذهبي وغيرهما: أن (من) في الحديث المذكور، تصلح للجمع كما تصلح للمفرد. وذلك أن (من) في أصل وضعها صالحة لهذا وذاك، وفي القرآن الكريم: **{مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}** [النساء:124]، وغيرها من الآيات الدالة على ذلك، وهي كثيرة. إذا عرفنا هذا، فقد يكون المجدِّد فرداً، يهيئه الله ليقوم بمهمة الإحياء والتجديد كعمر بن عبد العزيز، وقد قيل: فرد ذو همة، يُحيي أمة! وقال الشاعر:

ليس على الله بمُسْتنكر   أن يَجْمَعَ العالم في واحد!

[1] – فيض القدير (11/1)، وانظر: فتح الباري (295/13) ط الدار السلفية، وشرح النووي على مسلم (583/4،584) ط الشعب بالقاهرة.

وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة: فكرية، أو تربوية، أو جهادية، يتواصى أهلها بالحق والصبر، ويتعاونون على البر والتقوى. وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة، كلٌّ في موقعه، ومجال اهتمامه واختصاصه. هذا في مجال العلم والفكر، وذاك في مجال السلوك والتربية، وثالث في مجال خدمة المجتمع، ورابع في مجال الحكم والسياسة، وآخرون في مجال الجهاد والمقاومة، وكلٌّ على ثُغْرة من ثغر الإسلام، اتَّحدت أهدافهم، ومبادئهم، وإن اختلفت مواقعهم وطرائقهم.

اختلاف مناهج العمل الإسلامي وتعدد الجماعات العاملة للتجديد:

وهنا أحبُّ أن أنبه على أمر ينبغي للعاملين للإسلام من الأفراد والجماعات أن يعُوه، وهو: أن اختلاف مناهج العمل الإسلامي، وتعدُّد الجماعات العاملة لتجديده، ليس ظاهرة مَرَضية، ولا أمراً مذموماً عند الله، ولا عند الذين آمنوا؛ بشرط أن يكون اختلاف تنوُّع وتخصُّص، لا اختلاف تَضَادّ وتناقض، بمعنى أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها أزْرَ بعض، وتجمعها القضايا الكبرى، والمواقف المصيرية، لِتُواجه العدو المشترك صفاً واحداً كالبنيان المرصوص.

أما أن يحاول كل منهم إثبات نفسه ونفي غيره، ويجعل أكبر همه بناء ذاته على أنقاض العاملين الآخرين، فإنه بذلك يؤدي إلى ضعف القوى الإسلامية كلها، وتآكلها من داخلها. كما يفتح ثُغرة للعدو المشترك، ليضرب الجميع، وهو آمن مستريح!

معنى (البعث) في الحديث الشريف:

ويكون معنى (البعث) في الحديث: تهيئة الأسباب المواتية، وإتاحة الظروف المناسبة، وخلق المناخ الملائم، لظهور حركة التجديد للدين، والإحياء للأمة، وَفْقَ سُنن الله تعالى التي لا تتبدَّل. وليس معنى (البعث) إذن إظهار مُجدِّد بخارقة من

الخوارق الكونية، يهبط من السماء بغتة، أو تنشق عنه الأرض فجأة، ليغيِّر ما بالناس، وإن لم يغيِّروا هم ما بأنفسهم.

وهذا الذي فهمناه من الحديث، هو الموافق لما جاءت به الأحاديث الأخرى، التي ناطت نُصرة الدين في الزمن بطائفةٍ تقوم على الحق، لا بفرد واحد، كما في الحديث الصحيح المعروف: "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم أو خالفهم حتى يأتيَ أمر الله وهم كذلك"[1] وقد ورد عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة.

بل هو الموافق لما في كتاب الله تعالى حيث يقول: **{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** [الأعراف:181]. وقد ورد: هذه الآية لكم، يعني المسلمين. وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها[2]. يشير إلى قوله تعالى في السورة: **{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}** [الأعراف:159].

وهذا الذي جاء به الخبر الإلهيّ، جاء بمثله الأمر الإلهي في مثل قوله تعالى: **{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [آل عمران:104]، ويؤكده مثل قوله تعالى: **{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى}** [المائدة:2]، وقوله: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** [العصر:3]، وقوله سبحانه: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}** [الصف:4]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "يد الله على الجماعة"[3]، وفي بعض الروايات (مع الجماعة).

حاجة الفرد إلى معونة غيره:

والحق أنَّ الفرد مهما تكن مواهبه، ومهما يكن عطاؤه، فهو محدود الطاقة والقدرة، ما لم يكن معه أعوان يشدُّون أَزْرَهُ، ويقوون أمره، فالمرء قليلٌ بنفسه، كثيرٌ

---

[1]– متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (3641)، ومسلم في الإمارة (1037)، كما رواه أحمد في المسند (16932) عن معاوية.

[2]– ذكره ابن كثير في تفسيره عن قتادة بلاغاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم (269/2)، طبعة الحلبي.

[3]– رواه الترمذي في الفتن (2166)، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم في العلم (116/1)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (1759) عن ابن عباس.

بإخوانه، ضعيفٌ بمفرده، قويٌّ بجماعته وأعوانه. ولهذا قال موسى عليه السلام – وهو القويُّ الأمين – حين كلفه الله بالرسالة: **{وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً}** [طه:29-35]، وقال الله تعالى في جوابه: **{سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً}** [القصص:35].

وهذا يدلّنا على أنَّ الفرد مهما قوي، يحتاج إلى معونة غيره، حتى يشتد عضده. وأصرح من ذلك وأوضح قول الله تعالى لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: **{هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ}** [الأنفال:62،63]. فقد منَّ الله عليه بأنه أيَّده بنصره وبالمؤمنين المؤتلفة قلوبهم على غاية واحدة وعقيدة واحدة، أي أيده بالجماعة المؤمنة المترابطة.

أخطاء في فهم الحديث:

وإذا فهمنا الحديث هذا الفهم، لم نعد في حاجة إلى انتظار (مُجدِّد) أو (مهديّ) فرد، يهبط من السماء في علبة مغلقة، دون أي جهد أو سعي منا. ولم نعد في حاجة إلى أن يدَّعي واحد من الناس: أنه مُجدِّد القرن الأوحد، فيقبل منه قوم ويرفضه آخرون، كما فعل الجلال السيوطي رحمه الله، حين ادَّعى أنه مُجدِّد المائة التاسعة، فأنكر عليه كثيرٌ من معاصريه، مع أنه أهل للتجديد كالذين عدّوا في المجدّدين. ولم نعد في حاجة إلى أن يدَّعي واحد، أو فئة لزيد أو عمرو من الناس أنه مُجدِّد المائة العاشرة أو الرابعة عشرة لا شريك له، ولا نظير له، فيقبله من كان على مذهبه أو مشربه، ويوسعه الآخرون تهكماً وسخرية.

ولم نعد في حاجة إلى أن ينتصب كل فريق لترشيح مُجَدِّد منه، فأهل الحديث يرشِّحون محدّثاً، وعلماء الكلام يقدِّمون متكلماً، ورجال الفقه لا يذكرون إلا فقيهاً، وكل جماعة يقدمون فقيهاً من مذهبهم، فالشافعية يقدمون شافعياً، والحنابلة يرشحون حنبلياً، وهكذا نجد المهتمين بالسياسة يرشحون خليفة أو أميراً، والمهتمين بالجهاد يرشحون قائداً عسكرياً.

اشتراك الأمة كلها بالتجديد المنشود:

إننا بهذا الفهم نشرك الأمة كلها في التجديد المنشود، فهي التي تفرز المُجدِّدين، وتَصْقلهم، وتحرِّكهم، وتهيئ الظروف المناسبة لظهورهم وحركتهم، وهي التي تساعدهم على تحقيق آمالهم، وإزالة العَقَبات من طريقهم، وتمدهم بالزاد والوقود في رحلتهم الطويلة إلى ما ينشدون .. وهي التي تُعطي كلَّ فرد موقعه في قافلة التجديد، ليحرسه ويرعاه كما قيل: كل رجل من المسلمين على ثُغْرة من ثغر الإسلام، الله الله لا يؤتى الإسلام من قِبَله[1]. وهنا يصبح سؤال كل مسلم: ماذا يكون دوري في حركة التجديد؟ وما واجبي نحوه؟ بدل أن يكون كل همه وسؤاله: متى يظهر المجدد، لأدعو له أو أسير من خلفه؟!

متى يقع التجديد؟

ولكن متى يقع التجديد؟ إنَّ الحديث حدَّد للتجديد وقتاً هو (رأس كل مائة سنة). ورأس الشيء أعلاه، ورأس السنة أولها. وقد تساءل الشرَّاح هنا عن بداية المائة، فقال المناوي: يحتمل من المولد النبوي، أو من البعثة، أو الهجرة، أو الوفاة، ولو قيل: بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث[2] (أي الهجرة).اهـ. وذلك أنهم في حديثهم عن المجددين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس، وهو معقول؛ لأنه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرخوا به دون غيره، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة.

ويلاحظ أنهم جعلوا العبرة بوفاة المجدِّد في رأس القرن، كما يوضح ذلك تاريخ وفيات الذين عيَّنوهم للتجديد، فعمر بن عبد العزيز (ت101هـ)، والشافعي (ت204هـ)، والباقلاني (ت403هـ)، والغزالي (ت505هـ) والرازي (606هـ)، وابن دقيق العيد (703هـ)، والعراقي (ت808هـ). ولم يذكروا إماماً مثل ابن تيمية برغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلامي بمختلف جوانبه؛ لأنه تأخرت وفاته عن رأس المائة (ت728هـ). والحديث لم يقل: إن الله يتوفَّى المجدِّد على رأس القرن،

---

[1] - رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب السنة (29) وإسناده حسن.

[2] – فيض القدير (10/1).

بل يبعثه على رأس القرن، ومعناه: أن مهمته تبدأ في رأس القرن، وليست تنتهي عنده.

وقد رأيت العلامة المناوي نبَّه على هذا المعنى، فقال: (وهنا تنبيه ينبغي التفطُّن له، وهو أنَّ كلَّ من تكلَّم على حديث: "إنَّ الله يبعث ..." إلخ، إنما يقرره بناءً على أنَّ المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه. وأنت خبير بأن المتبادَر من الحديث إنما هو: أن البعث . وهو الإرسال . يكون على رأس القرن، أي أوله. ومعنى إرسال العالم: تأهُّله للتصدِّي لنفع الأنام، وانتصابه لنشر الأحكام. وموته على رأس القرن أخذٌ لا بعث! فَتَدَبَّرْ بإنصاف. قال: ثم رأيت الطيبي قال: المراد بالبعث من انقضت المائة، وهو حيٌّ عالم مشهور مشار إليه.

والكرماني قال: قد كان قبيل كل مائة أيضاً من يُصحِّح ويقوم بأمر الدين، وإنما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه. بل ذكر المناوي: أنه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك، بل قد يكون أفضل من المبعوث على رأس القرن، وأن تخصيص رأس القرن، إنما هو لكونه مظنَّة انخرام علمائه غالباً، وظهور البدع، ونجوم الدجالين)[1]. وهو كلام وجيه.

والذي أراه: أنَّ الحديث يفيد أنه لا يبزغ قرن، إلا ويبزغ معه فجر جديد، وأمل جديد، وبعث جديد، حتى تستقبل الأمة المسلمة القرن بقلوب يحدوها الرجاء في غد أفضل، وعزائم مُصمِّمة على عمل أمثل، ونيَّات صادقة في تغيير الواقع بما يوافق الواجب، وخصوصا أنَّ المفروض في الأمة أن تقف على رأس القرن مع نفسها وقفة محاسبة وتقويم، محاولة أن تستفيد من ماضيها، وتنهض بحاضرها، وترقى بمستقبلها، مُبتهلةً إلى ربِّها أن يكون يومها خيراً من أمسها، وغدها خيراً من يومها.

ولم ينف الحديث وجود مُجدِّدين في أواسط القرن وأواخره، بل هذا هو الواقع الملحوظ لمن يقرأ تاريخ هذه الأمة، ويجد من المجددين أمثال الأئمة: أبي حنيفة

---

[1] – فيض القدير (13،12/1)

ومالك وابن حنبل، والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي، وإمام الحرمين، والعز بن عبد السلام، والقرافي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، وابن الوزير، وابن حجر، والدهلوي، والشوكاني، وغيرهم من الأعلام.

من المجدَّد له؟

أما المُجدَّد له، كما بيَّن الحديث، فهو (هذه الأمة)، وهي الجماعة المحمدية، كما قال المناوي: وأصل (الأمة) الجماعة، مفرد لفظاً، جمع معنى، وقد يختص بالجماعة الذين بعث فيهم نبي، وهم باعتبار بعثته فيهم، ودعائهم إلى الله، يسمون (أمة الدعوة)، فإن آمنوا كلاً أو بعضاً، سُمِّيَ المؤمنون (أمة الإجابة) وهم المراد هنا، بدليل إضافة الدين إليهم في قوله: "دينها"[1].

فكلمة (لهذه الأمة) إشارة إلى أمَّة الإسلام، أمَّة الإجابة، على امتداد قرونها وأجيالها، كأنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يستحضرها أمامه، ويشير إليها بقوله: (هذه الأمة). وهي الأمة المذكورة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: **{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً}** [البقرة:143]، **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [آل عمران:110].

أمة مسلمة واحدة:

ولا يعرف القرآن ولا السنة أمة غير الأمة الإسلامية، وهي أمة واحدة كما أمر الله تعالى، وإن اختلفت أجناسها وألوانها وأوطانها: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء:92]، **{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}** [المؤمنون:52]. ولا يجوز أن نقول كما يقول بعض الناس: (الأمم الإسلامية)، فليس في الإسلام (أمم)، بل (أمة) واحدة، ولكن هناك (شعوب إسلامية) داخل هذه الأمة.

التجديد المطلق الكامل:

[1] – فيض القدير (10/1).

والتجديد المطلق الكامل هو الذي يغطِّي مساحة الأمة الإسلامية كلها، ويؤثِّر فيها جميعاً، كما أنَّ التجديد الكامل هو الذي يشمل العلم والعمل معاً، وقد رأينا هذا في مثل عمر بن عبد العزيز والشافعي والغزالي ونحوهم، ممَّن أثروا في محيط الأمة المسلمة جمعاء، وإن كان تأثير كل منهم في جانب أو أكثر من جوانب الحياة الإسلامية. ولكن التجديد قد يكون جزئياً، خاصّاً بجانب من جوانب الحياة، أو بقطر من الأقطار، أو بفئة من الفئات، أو نحو ذلك، وقد يتَّسع لأكثر من جانب وأكثر من فئة، وأكثر من بلد.

ما الدينُ المُجدَّد؟!

أما (المُجدَّد) في الحديث فهو (الدين). ولكن ما المراد بـ(الدين) في الحديث؟ وكلمة (الدين) ومثلها كلمة (الإسلام) إذا أطلقت تعني أحد أمرين:

أولهما: المنهج الإلهيّ الذي بعث الله به رسوله، وأنزل به كتابه، من العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع، لينظِّم بها علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الناس بعضهم ببعض، وهو ما عبر عنه التهانوي بأنه: (وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم، إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل)[1]. وهذا المعنى – بالنظر إلى أسسه وأصوله – ثابت لا يقبل التغيير ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية.

والثاني: الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكراً وشعوراً، وعملاً وخُلقاً، وفي هذا المعنى يقال: فلانٌ ضعيف الدين أو قويه، حسن الإسلام أو رديء الإسلام. والدين هنا متغيِّر متحرِّك، فهو يزيد وينقص، ويضعف ويقوى، ويصفو ويكدر، ويستقيم وينحرف، بحسب فهم الإنسان له، وإيمانه به، والتزامه بتعاليمه. وهذا المعنى هو الذي يقبل التجديد، ولا غرو أن جاء الدين في الحديث الذي معنا مضافاً إلى الأمة، وليس مضافاً إلى الله "ليجدِّد لها دينها" فالتجديد ينصبُّ على دين الأمة، وليس على دين الله تعالى.

---

[1] – كشاف اصطلاحات العلوم والفنون للتهانوي ص 403.

معنى التجديد:

وبهذا نرى أنه لا معنى لإنكار بعض العلماء عبارة (التجديد) في الدين، وتوجسهم خيفةً أن يستخدمها بعض المنحرفين فيما لا يقبله الإسلام، فلسنا أحرص على الدين ممَّن بعثه الله به، وقد نطق بهذه الكلمة وصحَّ بها الحديث، فلم يعد يسع مسلماً أن يتخوَّف من استعمالها، وإنَّما المهم هو تحديد مدلولها حتى لا يستخدمها كل فرد أو كل فريق كما يحلو له، تبعاً لفكره أو هواه. فما معنى التجديد هنا؟

نقل العزيزي في شرحه للجامع الصغير عن العلقمي: أنَّ معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاها[1]، فجعل التجديد ينصب على (العمل).

وقال المناوي في معنى (يجدد): يبيِّن السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم[2]، فجعل التجديد مُنْصبّاً على (العلم). وفي مقام آخر قال: يُجدِّد ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة[3]. وهو يشمل العلم والعمل. والتجديد المطلق يشمل العلم والعمل جميعاً.

وأودُّ أن أُنبِّه هنا على معنى مهمّ في قضية التجديد، وهو: أن التجديد لشيء ما، هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وَهَى منه، وترميم ما بلي، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى.

فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء.

---

[1] – السراج المنير للعزيزي (411/1).

[2] – فيض القدير (10/1).

[3] – فيض القدير (282،281/2).

ولنأخذ لذلك مثلا في الحسيات؛ إذا أردنا تجديد مبنى أثري عريق، فمعنى تجديده: الإبقاء على جوهره وطابعه ومعالمه، وكل ما يبقي على خصائصه، وترميم كل ما أصابه من عوامل التعرية، وتحسين مداخله، وتسهيل الطريق إليه، والتعريف به .. إلخ، وليس من التجديد في شيء أن نهدمه، ونقيم عمارة ضخمة على أحدث طراز مكانه.

العودة بالدين إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر:

وكذلك الدين: لا يعني تجديده إظهار طبعة جديدة منه، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم بإحسان. وهذه العودة لا تُخيف، كما يتوهم بعض الناس، إنها في الحقيقة العودة إلى الأصل، إلى المنبع، إلى التيسير لا إلى التعسير، إلى التبشير لا إلى التنفير، إلى الاهتمام باللباب لا الوقوف عند القشور.

فقه الصحابة والتابعين:

إنَّ الذي يقرأ فقه الصحابة والتابعين يجد أنهم أفقه الناس لروح الإسلام ومقاصده، ولم يكونوا حرفيين، ولا شكليين. كانوا ملتزمين كل الالتزام بشرع الله، ومع هذا كانوا يجتهدون في أحكام الوقائع بروح سمحة، تُعلم الناس أن الله لم يشرع دينه إلا لمصلحة عباده، وأنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وكان منهجهم كما عبَّر عنه سيدنا علي رضي الله عنه ترجيح (النمط الأوسط) الذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي.

الفقه هو مفتاح التجديد للدين:

إنَّ مفتاح التجديد للدين هو: الوعي والفهم، وبعبارة إسلامية صميمة هو: الفقه، ولا أعني بالفقه المعنى الاصطلاحي المعروف، وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعية من الوضوء والصلاة والرضاع والزواج والطلاق فقط، وإن كان هذا مطلوباً ومحموداً، ولكن أعني بالفقه: مفهومه القرآني والنبوي، وهو المذكور في قوله تعالى: **{قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}** [الأنعام:98]، وهو الذي نفاه الله عن المشركين

وغيرهم من أعداء المسلمين حين وصفهم بأنهم **{قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ}** [الأنفال:65]، وقال عن أهل جهنم: **{لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا}** [الأعراف:179]، وقال تعالى: **{فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}** [التوبة:122]. وقال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"[1].

الفقه في الكون وفي الدين:

والفقه هنا كما يدل عليه القرآن والسنة فقهان: فقه في الكون، وفقه في الدين، فالأول: يعني الفهم عن الله فيما خلق، والثاني: يعني الفهم عن الله فيما شرع.

الفقه في الكون يُراد به: الفقه لآيات الله في الأنفس والآفاق، ولسننه التي لا تتبدَّل في الكون والإنسان، كما يدل على ذلك سياق الآيات الكريمة.

والفقه في الدين هنا يعني المعرفة الواعية التي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحّصة للإسلام من ينابيعه الصافية، ومن مصادره الربّانية، بحيث يُفهم فهماً سليماً، خالصاً من الشوائب، بعيداً عن غُلوِّ المتطرفين، وتقصير المُضيِّعين، مسترشدين بهدى الجيل الأول الذين كانوا أفهم الناس لمقاصد الإسلام، وأعرفهم بكليّاته، وأحرصهم على التزامه والعمل به .. غير غافلين عما تميَّز به الإسلام من الشمول والاعتدال والتيسير، مفرقين بين الكليات والجزئيات، وبين الأصول والفروع من الأحكام، مُميِّزين بين ما شأنه الثبات والخلود، وما شأنه المرونة والتغيُّر، مُفرِّقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع، حسنات كانت أو سيئات، فليست الأركان كبقية الفرائض، وليست الفرائض كالواجبات، ولا الواجبات كالسُّنن الرواتب، ولا الرواتب كالمستحبَّات.

ومن ناحية أخرى: ليس الكفر كالمعاصي وإن كانت كبائر، وليست كبائر المحرمات كصغائرها، وليست الصغائر المتفق عليها كالمشتبهات المختلف فيها،

---

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في العلم (71)، ومسلم في الزكاة (1037) عن معاوية بن أبي سفيان.

وليست المحرمات كالمكروهات، ولا المكروه تحريماً كالمكروه تنزيهاً، ولا المكروه تنزيهاً كخلاف الأَوْلى، ولكلِ عملٍ مرتبتُه، ولكلِ مرتبةٍ حكمُها.

خطورة تذويب الفروق بين مراتب الأعمال:

ومن أعظم الخطل والخطر: تذويب الفروق بين هذه المراتب والأعمال، واعتبار الجميع شيئا واحداً، فإن الجمع بين ما فرَّق الله، كالتفريق بين ما جمعه الله، كلاهما لا يجوز.

الحاجة إلى تجديد الاجتهاد بنوعيه: الترجيحي والإبداعي:

ونحن في القرن الخامس عشر الهجري في حاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق، تجديد يعيد للاجتهاد حياته ونشاطه من جديد، والاجتهاد بنوعيه: الترجيحي الانتقائي، والإبداعي الإنشائي. اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها من داخل شريعة الإسلام، ويصف لأدواء مجتمعاتنا أدويتها الناجعة من صيدلية الإسلام نفسه، لا من مصنوعات الغرب العلماني، أو الشَّرق الإلحادي.

واجب المجامع العلمية وكليات الشريعة:

وهذا يوجب على المجامع العلمية المعنيَّة بهذا المجال أن تُعين على ذلك، ولا تضيق صدراً بالآراء الاجتهادية، كما يجب على كليات الشريعة أن تجعل مناهجها وكتبها ودراساتها في الفقه وأصوله وتاريخه – وبخاصة فقه القرآن والسنة في ضوء المقارنة العلمية – قادرة على تكوين العقلية الفقهية المستقلة، المرشحة للاجتهاد في مجالاته الانتقائية والإنشائية، الكلية والجزئية، وأن تُنمِّي قدرات النابهين من طلابها، وتُقوِّي عزائمهم على المضيِّ في هذا الطريق.

عرض الإسلام بلغة العصر:

تجديد قادر على أن يعيد عرض الإسلام بلغة العصر، مخاطباً كل قوم بلسانهم، واعياً لخصائص العصر، وخصائص الإسلام، وخصائص الأقوام، مدركاً

المفهوم الأوسع والأعمق لقول الله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}** [إبراهيم:4].

فليس معنى الآية أن نكلم الإنجليز بالإنجليزية، والصينيين بالصينية فحسب، بل أن نعرف كيف ندخل إلى عقل الإنجليزي وقلبه، وكيف ندخل إلى عقل الصيني وقلبه، ولكلٍّ منهما مدخل قد يصلح له، ولا يصلح للآخر. وهذا يعني تطوير أجهزة الدعوة وأساليبها وقدرات رجالها، وَفْقاً لما يتطلَّبه العصر، ويوجبه الإسلام، ويحتِّمه ما يصنعه الآخرون. والحديث إلى قوم وصلوا إلى سطح القمر، غير الحديث إلى مَنْ يعيشون في الأدغال؛ فلهؤلاء لسان، ولأولئك لسان، ولا بد أن نعرف لسان كل قوم لنعقل عنهم، ونبيِّن لهم.

إعادة النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية :

تجديد يعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح، مستمد من فلسفة الإسلام الكلية، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ، ومستفيد من كل المدارس القائمة ومن نتائج بحوثها وتحليلاتها، دون أن يكون أسيراً لفلسفة واحدة منها، أو لفلسفاتها جميعاً. وهذا ما يقوم به إخواننا في (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) من الدعوة إلى (إسلامية المعرفة) ولاسيما في ميادين الدراسات الإنسانية والاجتماعية، حتى تقوم مدارس إسلامية في علم النفس والتربية والاجتماع والسياسة والاقتصاد والنقد الأدبي وغيرها. وقد أقاموا ندوات فكرية، وحلقات بحثية، ومؤتمرات علمية، وأصدروا عددا كبيرا من الكتب النافعة في مختلف الاختصاصات، كان لي شرف المشاركة في بعضها.

تحرّر الجامعات من ربقة التقليد للفكر الغربي:

وهذا يعني: أن تتحرر جامعاتنا من ربقة التقليد للفكر الغربي بشقيه الليبرالي والماركسي، وأن ترجع إلى الجذور والأصول في تراثنا الحافل. تأخذ منه وتضيف إليه، وتعدل فيه، وتنشئ أجيالاً مستقلة الفكر، تجمع بين الأصالة الإسلامية والحداثة العصرية.

وهذا واجب كل الجامعات في بلادنا العربية والإسلامية، وواجب الجامعات الإسلامية فيها على وجه الخصوص، مثل جامعة الأزهر، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وجامعة الإمام محمد بن سعود، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، والجامعة الإسلامية العالمية بكوالالمبور، ونحوها، ... وذلك بحكم تكوينها وانتمائها ورسالتها ونوعية القائمين عليها.

التفوق في فروض الكفايات من العلوم الكونية وتطوير مناهج التعليم:

تجديدٌ يتيح لأمة الإسلام التفوُّق في (فروض الكفايات) من العلوم الكونية والرياضية، وتطبيقاتها (التكنولوجية) في المجالات المدنية والعسكرية، ويجعل أمة (سورة الحديد) قادرة على تصنيع الحديد، وعلى استغلال ثرواتها المطمورة والمنشورة، بحيث لا تكون عالة على غيرها في القوت الذي يُحييها، وفي السلاح الذي يحميها، وهذا يَقْتضي تطوير مناهج التعليم وأجهزته وغاياته وأساليبه، وَفْقاً لما يطلبه العصر، ويفرضه الإسلام، ويُحتِّمه التطوُّر.

فليس التعليم الناجح أن تخرّج شباباً يحفظون المقررَّات عن ظهر قلب، بل شباباً يُحسنون الفهم، ويستقلون بالتفكير، ويقدرون على الإبداع.

وإذا كان أهل الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية تنادوا في أواخر القرن العشرين، بوجوب تطوير التعليم عندهم بما يتناسب وطفرات العصر، ورأوا أن الأمة على حافة الخطر، إذا لم تتدارك مسيرتها التعليمية ... فماذا يكون حالنا نحن...؟

التجديد يشمل كيان الإنسان كله:

والتجديد للدين ليس فكرياً فحسب، كما هو مفهوم الكثيرين، عندما يذكرون التجديد ويتحدثون عنه، فلا يكاد يدور بخلدهم إلا تجديد الاجتهاد، وإيقاظ العقل المسلم لمواجهة تطورات الحياة. ولا ريب في أن تجديد الفكر، وإحياء الاجتهاد، وتصحيح الفهم، يأتي في طليعة التجديد المنشود، فإن العلم يسبق العمل، والفكرة

تسبق الحركة. وحسبنا أن الله بدأ وحيه لرسوله صلى الله عليه وسلم بآية: {اقرأ} والقراءة هي مفتاح العلم والفكر والتأمل.

ولكن الإنسان ليس عقلاً فقط، بل هو عقل وقلب، وجسم وروح، فلا بد للتجديد أن يشمل كيان الإنسان كله، وهو ما رعاه الإسلام أعظم رعاية، فأعطى لكلٍّ منها حقه. لهذا كان وجوب العناية بالضمير والوازع الأخلاقي إلى جوار التجديد العقلي، أمراً لا بدَّ منه.

تجديد عمر بن عبد العزيز في ميدان الحكم:

وقد اتَّفق العلماء الذين عنوا بتحديد أسماء المجدِّدين في تاريخ الإسلام، على أن عمر بن عبد العزيز هو مجدد المائة الأولى (ت101هـ) على رغم قصر مدة خلافته، فلم تزد على ثلاثين شهراً. وتجديد عمر لم يكن في الجانب الفكري، أو العلمي – كتجديد الشافعي في رأس المائة الثانية أو تجديد الغزالي في المائة الخامسة – بل كان تجديدُه في مَيْدان العمل والحكم، حيث أبطل تقاليد الجور، وأحيا سنن العدل، وأزال المظالم، وردَّ الحقوق إلى أهلها، ورفض مطالب الطامعين من أهله، وأشاع جوَّ التقوى لله، والخشية منه، والرغبة فيما عنده، ولهذا اعتبروه خامس الراشدين.

فعل ذلك كله بلا ادِّعاء ولا تَظَاهر ولا تفاخر، بل كان يناجي ربه راجياً خائفاً، فيقول: اللهم إنَّ عمر ليس أهلاً أن ينال رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر!![1]. وقال له مرة أحد الناس بعد موقف من مواقفه المحمودة: جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً!![2]. فردَّ الحق لأهله، ووضع الأمر في نصابه، فالإسلام هو الذي صنع عمر وليس عمر الذي صنع الإسلام.

تجديد الإيمان:

---

[1] - رواه ابن عساكر في تاريخه (224/45).

2 – رواه الإمام أحمد في الزهد صـ 297 نشر دار الكتب العلمية – بيروت.

ونعني بالإيمان هنا: العقيدة الإسلامية وأساسها التوحيد، وعناصره ثلاثة أساسية: ألا نبغي غير الله رباً، ولا نتخذ غير الله ولياً، ولا نبتغي غير الله حكماً. وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

وبعد التوحيد يأتي الشق الثاني من العقيدة، وهو الإيمان بالرسالة: (وأن محمدا رسول الله) ليس إلهاً، ولا ابن إله، ولا ثلث إله، ولا محلاً حلّ فيه الإله؛ إنما هو عبد الله ورسوله، أنزل الله عليه كتابه، وبلَّغ ما أوحي إليه من ربه، لم يخن ولم يكتم، ولم ينطق عن الهوى: **{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}** [النجم:4].

ومن أركان هذه العقيدة التي بلَّغها محمد عن ربه: الإيمان بالآخرة والجزاء، وأن الموت ليس نهاية المطاف، وأن وراء هذه الحياة الفانية حياة أخرى باقية، تُوفَّى فيها كل نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}** [الزلزلة:7،8]. وقد روى الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الإيمان ليَخْلَق في جوف أحدكم، كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم"[1].

أهمية الإيمان في حياتنا:

والإيمان في حياتنا – نحن المسلمين – ليس شيئاً على هامش الحياة. إنه جوهر وجودنا، وسرُّ بقائنا، ولبُّ رسالتنا ... وبدونه لا معنى لحياتنا ولا مُبرِّر لوجودنا.. وإذا كان لكلِّ شخصية مفتاح، تستطيع إذا عرفته واستخدمته أن تعرف به مكنوناتها، وتُفَجِّر مخزون طاقاتها، فإن مفتاح شخصية الإنسان في أمتنا هو الإيمان.

وكما أنك بلمسة للمفاتح أو زر خاص للسيارة في البر، أو الباخرة في البحر، أو الطائرة في الجو ... تستطيع أن تحركها وتدفع بها إلى الأمام، وتقطع بها

[1] – رواه الحاكم في الإيمان (4/1)، وقال: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات، وقال الذهبي: رواته ثقات. وقال الهيثمي في المجمع (212/1): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وحسنه الألباني في الصحيحة (1585).

المسافات، فكذلك نستطيع بعامل الإيمان أن نُحرِّك كوامن هذه الأمة، ونصنع منها وبها العجائب وروائع البطولات، التي تُحكى كالأساطير.

لقد عزف عازفون على نغمات شتَّى لتحريك هذه الأمة، فما تحركت ولا استجابت. عزفوا على نغمة القومية، وعلى نغمة الاشتراكية، وعلى نغمة الديمقراطية، فما صنعوا شيئاً غير النكسات والوكسات! ولكن حين تقود هذه الأمة بالمصحف ترفعه، أو حين تصدع بصيحة (الله أكبر) وحينما تنادي: يا ريح الجنة هبي، ستجد الجماهير معك ووراءك بالملايين مستعدة للموت في سبيل الله.

وهذا الإيمان المرصود في فطرة الأمة، المذخور في كيانها المعنوي، أشبه ببذرة طيبة في أرض طيبة، يجب علينا أن نرعاها وننميها ونتعهدها ونُغذِّيها من ناحية .. وأن نحميها ونحافظ عليها من المواد السامَّة، والحشرات الضارة، من ناحية أخرى، حتى تنمو وتزهر وتثمر، وتُؤْتي أُكلها بإذن ربها.

حاجتنا إلى تربية إيمانية حقيقية:

ولهذا كنا في حاجة إلى تربية إيمانية حقَّة، تزرع في القلوب المعاني الربانية الأصيلة: الخشية من الله، والرجاء فيه، والأُنس به، والحب له، والرضا عنه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والطاعة لأمره، والتسليم لحكمه، وحكم رسوله، كما قال تعالى: **{فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}** [النساء:65]، **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [النور:51]. الإيمان بالله الذي ترجى رحمته، ويخشى عقابه **{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [المائدة:98].

ومن عناصر هذه التربية: استحضار معاني الآخرة وما يتعلق بها: الموت وسكرته، القبر وضمّته، البعث ورهبته، الحشر وزحمته، الموقف وشدّته، الحساب وسرعته، الكتاب وقراءته، الميزان وعدالته، الصراط ودقّته، الجنة ونعيمها، النار ولهيبها.

حاجتنا إلى الصوفية الربانية المعتدلة:

وبعبارة أخرى: نحن في حاجة إلى لون من الصوفية الربانية الإيجابية المعتدلة، التي عبَّر عنها بعضهم بأنها: الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخلق، وإليها يشير قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}** [النحل:128]. وهذا هو روح الدين الحق: التقوى لله، والإحسان للناس؛ فالتصوف الحقيقي تقوى وأخلاق، قبل كل شيء.

وينقل ابن القيم في (مدارج السالكين) عن بعض متقدِّمي الصوفية في تعريف التصوُّف قوله: التصوُّف هو الخُلق، فَمَنْ زاد عليك في الخُلق فقد زاد عليك في التصوف[1]. ويعلِّق ابن القيم قائلا: بل الدين كُّله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الدين، وكذلك التقوى.

فهذا هو التصوُّف الذي نريد: تصوُّف التربية والأخلاق القرآنية والنبويَّة، التصوف الذي يغذِّي الإيمان، ويرقِّق القلوب، ويُحرِّك الدوافع، ويشحذ الإرادة، ويُهذِّب النفس، ويقوِّي السلوك الخيّر للإنسان، في ضوء الكتاب والسنة، وهدي السلف الصالح، فهو الذي نحرص عليه، وندعو إليه، وهو الذي يقوم بمهمة (التزكية) التي أشار إليها القرآن في معالم الرسالة المحمديَّة: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ}** [الجمعة:2]. وهو (مقام الإحسان) الذي جاء في حديث جبريل المشهور، وعرَّفه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[2].

التصوف السلبي المرفوض:

---

[1] – مدارج السالكين (307/2).

[2] – متفق عليه: رواه البخاري (50)، ومسلم (9) كلاهما في الإيمان، كما رواه أحمد (9501)، وابن ماجه في المقدمة (64) عن أبي هريرة .

أما إذا كان التصوف سلبية كالتي عبَّر عنها بعضهم بقوله: دع الخلق للخالق، واترك الملك للمالك! يريد تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو مرفوض، ومثل ذلك قولهم: أقام العباد فيما أراد! فهو كلام حق يراد به باطل!

وإذا كان التصوُّف إلغاء شخصية المريد أمام شيخه، كما قالوا: من قال لشيخه: لِمَ؟ لم يفلح! وقالوا: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل! فهو كذلك مرفوض.

وإذا كان التصوُّف تفرقة بين الحقيقة والشريعة، كالذين قالوا: من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم! فلسنا منه في شيء.

وإذا كان التصوُّف كهانة وتجارة بالدين لدى العوام، الذين يقادون بالأساطير والمبالغات، وتصنع لهم التمائم والأحجية والتعاويذ، الحافلة بالتهاويل، وتقدّم لهم الثقافة المنوّمة للعقول، المخدّرة للعزائم، فهو باطل نبرأ منه.

وإذا كان التّصوف رفضا للعلم وطلبه من أهله بوسائله، واعتمادا على الذوق والوجدان، دون دليل من شرع، أو احتكام إلى كتاب محكم أو سنة صحيحة، فهو تصوف شيطاني لا رحماني، وهو مرفوض عندنا وعند كل مسلم حريص على دينه.

وبالجملة: إذا كان التصوُّف مباءة للخرافات في الفكر، والشركيات في العقيدة، والمبتدعات في العبادة، والانحرافات في الأخلاق، والسلبيات في السلوك، والإهمال للحياة، فنحن أول من يحاربه.

الفصل السابع

معالم ومنارات للوسطية والتجديد

وحتى لا يدَّعي هذا المنهج (الوسطية الإسلامية) و(التجديد الإسلامي) مَن لا يفقهه ولا يعيه، ولا يتحدَّث باسم هذا التيَّار من ليس من أهله، بل من الدخلاء عليه، ولا يخوض فيه كل مَن أمسك بالقلم، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير: وجدتُ لزاماً عليّ أن أضع للقارئ المسلم معالم أو ملامح أو منارات: تُحدِّد الأصول الفكرية والشرعية لهذا التيار أو هذا المنهج، لتكون مشاعل ومصابيح تهدي من أراد الاهتداء به، والسير في ضوئها على نور وبيّنة، **{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [الملك:22]. فمن الضروري هنا: أن لا نَدَع مفهوم الوسطية والتجديد مائعاً رجراجاً هلامياً، يفسِّره كل مَنْ شاء، بما شاء، ويدَّعيه كل فريق لنفسه، زاعمًا أن ما يدعو إليه هو الوسطية التي يدعو إليها الداعون، ويُنوِّه بها المنوِّهون.

وقد كنت منذ فترة وضعت (عشرين مَعْلمًا) – على سبيل الإيجاز لمنهج الوسطية، وزَّعتُها على الجمعية العامة التأسيسية للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، الذي انعقد في لندن في شهر يوليو سنة 2004م. وقد طلب مني أحد الإخوة من العلماء: أن يقوم بشرحها، فقلت له: أوْلى الناس بشرحها، هو صاحبها. فالمفروض أن أقوم بشرحها وتجْليتها، وتأصيلها وتفصيلها. وهي في الحقيقة مشروحة في كثير من كتبي، ولكنها منثورة فيها، فلا بدَّ من تجميعها، وترتيبها، والاستدلال عليها، وربط الفروع بأصولها، وردّ الجزئيات إلى الكُليات، حتى تستبين للقارئ الكريم، بلا لَبْس ولا غَبَش.

وقد نظرتُ في هذه المعالم العشرين – شأن كل مصنِّف دائماً يسعى إلى تحسين ما كتبه، حتى يصل به إلى أكمل ما يكون – فكرةً وعرضاً وأسلوباً، وأعدت صياغتها وترتيبها، وفصَّلتها بعض التفصيل، فبلغت الثلاثين مَعْلَماً، ثم اختصرتها، ليسهل حفظها لمن أراد.

وقد نشرها بصورتها الأولى مركز الوسطية بالكويت، ثم تراءى لي أن أعيد النظر فيها مرة أخرى على مهل: إعادة قلبتها رأسا على عقب، ولاسيما بعد أن أضيف مفهوم (التجديد) إليها، فأصبح مركزنا يحمل اسم (مركز القرضاوي للوسطيَّة الإسلامية والتَّجديد). فأضفتُ وبيَّنت، وغيَّرت وحَسَّنت، ورتَّبت، كما ذكرت في المقدمة. حتى غدت كتاباً جديداً على هذه الصورة بحمد لله. وقد أردت بهذا: أن يُعرف المنهج الوسطي التجديدي لطلابه ومريديه، وأن تتَّضح صورته وملامحه، وتتحدَّد أركانه ومقوماته، وتتجلَّى خصائصه ومزاياه، في صورة (معالم) محدَّدة، يرجع عند الخلاف لها، ويحتكم إليها.

وها هي معالم الوسطية المجدِّدة، في صياغتها الأخيرة، وقد ألفت من جديد. آملاً بعد ذلك أن يُيسِّر الله لي شرحها على الوجه الذي أُحب، وأدعو الله أن يوفِّقني إليه. وهاأنذا أسرد المعالم الثلاثين، مجرَّد عناوين، ثم أبدأ في بيانها واحدا واحدا. وبالله التوفيق

المعالم الثلاثون للمنـهج أو للتيـار الوسطي التجديدي

1. العلم الراسخ والفهم الشامل والمتوازن للإسلام.
2. الإيمان بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية.
3. تأسيس العقيدة على الإيمان والتوحيد.
4. التقرب إلى الله وحده بما شرع من العبادات.
5. تزكية النفس بمكارم الأخلاق.
6. الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
7. ترسيخ القيم الإنسانية والاجتماعية.
8. احترام العقل بجوار الوحي.
9. تجديد الدين من داخله، والاجتهاد من أهله في محله.
10. الدعوة إلى فقه جديد، فقه في الكون وفقه في الدين.
11. إنصاف المرأة وتكريمها والحفاظ على فطرتها.
12. العناية بالأسرة نواة للمجتمع.
13. تكوين المجتمع الصالح المتكافل.
14. الإيمان بوجود الأمة الإسلامية ووحدتها والولاء لها.
15. إقامة الدولة العادلة حاملة الدعوة.
16. تجنُّب التكفير والتفسيق إلا ببيّنة.
17. تقوية اقتصاد الأمة وإقامته على أسس إسلامية.
18. الإيمان بضرورة التعددية والتعارف والتسامح بين الشعوب.
19. إنشاء حضارة العلم والإيمان.
20. الرقي بالفنون وتوظيفها في خدمة رسالة الأمة.
21. عمارة الأرض وتحقيق التنمية ورعاية البيئة.
22. السلام مع المسالمين والجهاد مع المعتدين.
23. العناية بالأقليات الإسلامية في العالم.

24. العناية بالأقليات الدينية في مجتمعاتنا الإسلامية.
25. تبني منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة.
26. رعاية سنة التدرج وسائر سنن الله.
27. الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر.
28. وضع التكاليف في مراتبها الشرعية.
29. ضرورة الإصلاح الشامل والتغيير الجذري.
30. الانتفاع بتراثنا الغني بما فيه من علوم وفنون وآداب.

أضواء على معالم ومنارات الوسطية المجددة

يتميَّز المنهج أو التيار الداعي إلى الوسطية والتجديد بالتركيز على جملة مبادئ أو معالم أو قواعد فكرية، في فهمه للإسلام وعرضه لأصوله ومفاهيمه، عرف بها، وعرفت به، ونسبت إليه، وأصبحت معالم بارزة له، تجسِّد فكرته، وتوضِّح غايته، وتجلِّي منهجه، وتُحدِّد مفاهيمه. فصَّلناها في الثلاثين التي سردناها، وها نحن الآن نلقي ضوء على كل مَعْلَم منها، بما يُعطي للقارئ فكرة أو نبذة واضحة وكافية عنها، بلا إطناب مُملّ، ولا إيجاز مُخلّ.

1- العلم الراسخ والفهم الشامل والمتوازن للإسلام:

الفهم الشمولي التكاملي المتوازن للإسلام، كما أنزله الله على رسوله، بحيث تتجلى فيه خصيصتان: **الأولى: الشمول والتكامل**، بوصفه: عقيدة وشريعة، علماً وعملاً، عبادةً ومعاملة، ثقافةً وأخلاقاً، حقاً وقوة، دعوةً ودولة، ديناً ودنيا، حضارة وأمة.

ورفض كل تجزئة لأحكام الإسلام وتعاليمه، كدعوى الذين يريدونه: أخلاقاً بلا تعبُّد، أو تعبُّداً بلا أخلاق، أو عقيدة بلا شريعة، أو زواجاً بلا طلاق، أو سلاماً – أو استسلاما – بلا جهاد، أو حقاً بلا قوة، أو ديناً بلا دنيا، أو دعوة بلا دولة، وهو ما يرفضه الإسلام نفسه الذي يقول كتابه: **{وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ}**[المائدة:49]. وبهذا يقدم الإسلام على أنه رسالة الإنسان كله، ورسالة الكون كله، ورسالة الزمن كله، ورسالة الحياة كلها.

والخصيصة الثانية: هي المزج المتوازن بين المتقابلات، أو الثنائيات، التي يتوهم الكثيرون أنها متضادات لا يمكن الجمع بين بعضها وبعض، كالمزج بين الروحية والمادية، بين الربانية والإنسانية، بين الفكر والوجدان، بين المثالية والواقعية، بين الفردية والجماعية، بين نور العقل ونور الوحي، بين الدنيا والآخرة، بين حظِّ

النفس وحقِ الربّ، وحقوق الخلق، بين الإبداع المادي والاقتصادي والسمو الروحي والأخلاقي، بحيث يأخذ كل جانب منها حقَّه، بلا وكس ولا شطط، دون طغيان على الجانب الآخر، أو الجوانب الأخرى: **{أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن:8،9]. ومن هنا تتكامل العناية بالعبادة، والثقافة، والرياضة، والفنون، والعلوم. فالعبادة تُغَذِّي الروح، والثقافة تُغَذِّي العقل، والرياضة تُغَذِّي الجسم، والفنون تُغَذِّي الوجدان، والعلوم تُغَذِّي الحياة[1].

2- الإيمان بمرجعية القرآن والسنة:

الإيمان بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، للتشريع والتوجيه للحياة الإسلامية، حياة الفرد والأسرة والجماعة والأمة، التي تستمد من المصدرين المعصومين: عقائدها وعباداتها، وآدابها وأخلاقها، وأفكارها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها، وعاداتها وتقاليدها، وتشريعاتها وأنظمتها.

فالقرآنُ كلام الله تعالى، والسنة بيانُ رسوله. لا يصح الإيمان، ولا يقبل الإسلام إلا ممَّن آمن بهما، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [النور:51]، **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً}** [الأحزاب:36]. والذين ينكرون السنة، ويسمون أنفسهم (القرآنيين) هم أول من يخالف القرآن الذي أمر بطاعة الله وطاعة رسوله **{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [النور:63].

والمصادر الأخرى من الإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح وغيرها إنما تكتسب حُجيتها من القرآن والسنة. مع ضرورة فهم النصوص الجزئيَّة في ضوء المقاصد الكلية للإسلام وشريعته، ولا يجوز معارضة أحدهما بالآخر، أو الاكتفاء بالجزئي عن الكلي، أو بالكلي عن الجزئي. والحذر من الحرفية من جانب، ومن سوء التأويل من جانب آخر، ومن اتباع المتشابهات وترك المحكمات[2].

---

1 – انظر: كتابنا (شمول الإسلام) نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة، وخصيصة (الشمول) من كتابنا (الخصائص العامة للإسلام).

2 – انظر: كتابنا (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة) نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة. وانظر أيضا: كتابنا (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) و(كيف نتعامل مع السنة النبوية؟) نشر دار الشروق بالقاهرة.

3- تأسيس العقيدة على الإيمان والتوحيد:

تأسيس العقيدة السليمة على معاني الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وهذه هي أركان العقيدة، وأسس الأعمال الصالحة. والتركيز على عقيدة التوحيد، واليقين بالآخرة، وعلى نبوة محمد الذي ختم الله به الرسل والأنبياء. والتركيز على حقيقة التوحيد، كما صوَّرها القرآن في مقومات ثلاثة:

1- ألا يبغي غير الله تعالى رباً. وهو ربُّ كل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل شيء **{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}** [الأنعام:164].

2- وألا يبتغي غير الله ولياً. يواليه ويعبده وحده لا شريك له **{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [الأنعام:14].

3- وألا يبتغي غير الله حكما، يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه **{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً}** [الأنعام:114].

وبذلك تجتمع كل معاني التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الآلهية، وتوحيد الحاكمية، فهكذا يجب أن نؤمن به سبحانه: **{رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ}** [الناس:1-3].

وبهذا التوحيد الخالص يتحرَّر الإنسان من العبوديَّة للإنسان، ومن كل ما سوى الله، ولهذا كان يختم نبينا رسائله إلى ملوك النصارى بهذه الآية: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ}** [آل عمران:64][1].

كما لا يصحُّ إيمان المسلم إلا إذا آمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبيٍّ أُرسل، كما قال تعالى: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}** [البقرة:285].

وبهذا يعيش المسلم مع كوكب النبيين منذ آدم ونوح إلى خاتمهم محمد، ويرثهم جميعا، ويقتدي بما لديهم من فضائل، كما قال الله لرسوله محمد: **{أُولَئِكَ**

---

[1] – انظر: كتبنا (الإيمان والحياة) و(وجود الله) و(حقيقة التوحيد) و(الإيمان بالقدر) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ومؤسسة الرسالة في بيروت.

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام:90]. وللإيمان الإسلامي أثره في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع. فلا بد أن يُرعى ويُحمى ويُشاع.

4 - التقرُّب إلى الله بالعبادات ظاهرة وباطنة:

التقُّرب إلى الله جلَّ شأنه بعبادته وحده، وإقامة شعائره، وأداء فرائضه، وترطيب اللسان بذكره، وعمارة القلب بحبه، واستحضار خشيته تعالى وتقواه، التي هي من عمل القلوب، والتركيز على عبادة الله تعالى بوصفها الغاية التي خُلق لها الإنسان: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات:56]، وتوجيه هذه العبادة لله وحده. وهي تتجلَّى في الشعائر الأربع الكبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وهي العبادات المفروضة، وبجوارها عبادات أخرى مندوبة، مثل: تلاوة القرآن وذكر الله تعالى والدعاء والاستغفار. ويمكن للمسلم أن يجعل حياته كلها عبادة، حيث تتحوَّل المباحات والعادات إلى قُربات وعبادات بالنية الصالحة.

هذا بالإضافة إلى العبادات الباطنة؛ من صدق النية والإخلاص لله، والمحبة له، والخشية له، والحياء منه، والرضا عنه، والرجاء في رحمته، والخوف من عذابه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه، والتفكر في خلقه، وذكر لقائه، ومحاسبة النفس، ومجاهدة الشيطان، والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة. وهي أساس التصوُّف السنّي الحقيقي الذي يقوم على (الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلق). وهو كما سماه العلامة الندوي: ربّانية لا رهبانية. ومن الواجب غرس هذه المعاني الربَّانية عن طريق الدعوة والتربية والثقافة والإعلام.

ونرفض موقف الذين ينكرون التصوف كله ويعرضون عنه، بما فيه من مناهج رائدة، وتجارب صادقة، ووصايا نافعة في التربية الإيمانية. وموقف الذين يأخذونه كله بما فيه من شركيات في العقيدة، ومبتدعات في العبادة، وسلبيات في التربية، دون مراجعة ولا تمحيص[1].

5- تزكية النفس بمكارم الأخلاق:

1 – انظر: كتابنا (العبادة في الإسلام) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة في بيروت. وكذلك: سلسلة (فقه السلوك) أو (الطريق إلى الله) وقد صدر منها: الحياة الربانية والعلم .. النية والإخلاص .. التوكل .. التوبة إلى الله .. نشر مكتبة وهبة والرسالة. وسيصدر قريبا – بحول الله –: الزهد والورع، المراقبة والمحاسبة.

تزكية النفس، والسموُّ بها، عن طريق المجاهدة والرياضة، حتى تنتصر فيها حوافز التقوى على دوافع الفجور كما قال تعالى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** [الشمس:7-10]، **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** [العنكبوت:69].

وإنما تتزكَّى النفس حقاً بالتركيز على القيم الأخلاقية التي عُنِى بها الإسلام، وجعلها من شعب الإيمان، ودلائل رسوخ العقيدة، وجعلها من ثمرات العبادات التي فرضها الله، وجاء في الحديث النبوي:"إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"[1]، وفي رواية "مكارم الأخلاق"[2]. واعتبر الإخلال بها من خصال النفاق، سواء كانت أخلاقاً فردية مثل: الصدق، والأمانة، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، والإنصاف في الخصومة، والتواضع والحياء، والسخاء، والشجاعة، والعفة. أم أخلاقاً اجتماعية مثل: العدل والإحسان، وبر الوالدين، وصلة الأرحام والجيران، والرحمة بالضعفاء، والتعاون على البر والتقوى، ولزوم الجماعة، وإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، وعدم التبذير في إنفاق المال، والإسراف فيه، كمنع الشح والبخل به.

ورفض موقف الذين يعتبرون العبادات الشعائريَّة هي كل شيء، وإن لم تؤثِّر في أخلاقهم وسلوكهم، وموقف الذين يعتبرون الأخلاق كل شيء، وإن لم يؤدوا فرائض ربهم[3]. كما أن للأخلاق الإسلامية مزايا ومقوّمات وخصائص تميّزها عن غيرها من الأخلاق الوضعية، ومن أخلاق الديانات الأخرى، من الشمول والتوازن والواقعية ومخاطبة الفطرة والعقل وغيرها.

6 ـ الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومن المعالم الأساسية: تأكيد فرضية الدعوة إلى الله، والنصيحة في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وهي تعني: أن المسلم لا يكتفي بصلاح نفسه، حتى يعمل على إصلاح غيره، بدءاً بأهله

---

1 - رواه أحمد في المسند (8952)، وقال مخرّجوه: صحيح وهذا إسناد قوي، والبخاري في الأدب المفرد (104/1)، والبيهقي في الشعب (230/6)، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (191/10)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (2349) عن أبي هريرة.

2 - رواه الحاكم في تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين (613/2)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (191/10)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (45) عن أبي هريرة.

3 - انظر: فصل (الأخلاق) من كتابنا: (مدخل إلى معرفة الإسلام).

وولده، كما قال تعالى: {**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**} [التحريم:6]. ومروراً بالمجتمع من حوله، وانتهاءً بدعوة العالم كله، ليدخل في رحمة الله العامة لكل الناس: {**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**} [الأنبياء:107].

وقد وصف الله مجتمع المؤمنين بقوله: { **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**} [التوبة:71]. فهو مخالف لمجتمع المنافقين الذين وصفهم الله بقوله: {**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**} [التوبة:67].

وكلُّ مسلم مُخاطَبٌ بأمر الله تعالى: {**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} [النحل:125]، فهو يدعو الموافقين، ويحاور المخالفين، وهو داخل في قوله تعالى لرسوله: {**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**} [يوسف:108]، فكلٌّ من اتَّبع محمداً صلى الله عليه وسلم فهو داعٍ إلى الله، وداعٍ على بصيرة، ولكن كلٌّ يدعو بحسب طاقته وبما يلائمه.

والأمة المسلمة مُطَالَبة بالدعوة كالأفراد، كما قال تعالى: {**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**} [آل عمران:104]، {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**} [آل عمران:110].

وقد ذمَّ القرآنُ بني إسرائيل بقوله تعالى: {**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**} [المائدة:78-79].

والأمة المسلمة مسؤولة – بالتضامن – عن تبليغ دعوة الإسلام العالمية إلى الناس جميعا بأساليب العصر ووسائله حتى تقيم عليهم الحجة[1]!

7- ترسيخ القيم الإنسانية والاجتماعية:

الدعوة إلى المبادئ والقيم الإنسانية والاجتماعية، التي فرَّط فيها كثير من المسلمين، وتوهَّم بعضهم: أنها مبادئ وقيم غربية، وهي في الحقيقة من قيم الإسلام الأصلية، مثل: العدل في القضاء وفي السياسة والاقتصاد، ومثل: الشورى في

1 – انظر: كتابنا (خطابنا الإسلامي في عصر العولمة) نشر دار الشروق بالقاهرة.

المجتمع وفي الحكم، والحرية والكرامة، وحقوق الإنسان، ولاسيما حقوق الفئات الضعيفة في المجتمع، من المساكين واليتامى وأبناء السبيل وأشباههم، وتوفير الحريَّة المدنية والدينية والسياسية: التي هي شرط للرقي بالمجتمع، وإقامة العدل والمساواة بين أبنائه، بل شرط لتطبيق الشريعة على وجهها، حين يختارها الناس طَوْعاً بإرادتهم الحرة. فلا يجوز أن يهان إنسانٌ بغير حق، أو يسجن بغير جريمة، أو يُعَاقَب بغير حكم قضائي عادل، أو يقدَّم إلى محاكمة لا تتوافر فيها الضمانات، أو يحرم من حقه الطبيعي في الانتخاب أو الترشيح بلا جريرة، أو يقهر أو يُؤْذى بأي وسيلة.

ومن المطلوب: إقامة الجمعيات والأندية والمؤسَّسات المدنية الخيرية والتعليمية والاجتماعية والثقافية، التي تهتم بخدمة المجتمع والنهوض به، حتى يصعد ويرقى، ويخرج من سجن التخلُّف، ويقوم بواجبه نحو نفسه، ونحو أمته الكبرى، ونحو الإنسانية كلها من حوله.

وأساس هذا كله: الإيمان بالإنسان بوصفه مخلوقاً كرّمه الله، واستخلفه في الأرض، واحترام فطرته التي فَطَره الله عليها، وحريته التي وُلد عليها، والإقرار بحقوقه، التي يعتبرها الإسلام فرائض وواجبات له على غيره، والموازنة بين ما للإنسان من حقوق وما عليه من واجبات.

8- احترام العقل بجوار الوحي:

احترام العقل والتفكير، والدعوة إلى النظر والتدبُّر: في آيات الله الكونيَّة في الأنفس والآفاق، وآيات الله التنزيليَّة في القرآن، وتكوين العقلية العلمية التي ترفض الخرافات، ولا تقبل دعوى إلا ببرهان، وهي العقلية التي أنشأها القرآن بتعاليمه. ومقاومة الجمود والتقليد الأعمى للآباء أو للسادة والكبراء، أو لعامة الناس. واعتبار العقل أساس النقل وثبوت الوحي، وهو المخاطب بأحكام الشرع، والأداة الفذة في فقه الدين وفهم الدنيا. وتأكيد نفي وجود التعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح. أو بين الوحي الربَّاني، والعقل الإنساني، بل هما نور على نور. وإذا تعارض عقلي ونقلي: قُدِّم القطعيُّ على الظنيِّ منهما، وإذا كانا ظنيين: قُدِّم النقليّ، حتى يثبت

العقلي أو ينهار. ونرفض موقف الذين يعطلون العقل أو يجمّدونه باسم الشرع، وموقف الذين يقدِّمون العقل على الشرع أبداً، وباسمه يريدون تحريف شرع الله[1].

9- تجديد الدين من داخله والاجتهاد من أهله في محله:

تجديد الدين من داخله: تجديدُ الفهم له، وتجديدُ الإيمان به، وتجديدُ العمل به، وتجديدُ الدعوة إليه. تجديدُ العقول والأفكار، وتجديدُ القلوب والعواطف، وتجديدُ الإرادات والعزائم، وقد بيَّن لنا رسولنا الكريم في حديثه شرعية التجديد للدين حين قال: "إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدِّد لها دينها"[2]. والتجديد الحق يشمل جانب العلم والفكر، كما يشمل جانب العمل والسلوك.

وأبرز معالم تجديد الدين الفكري هو: إحياء مبدأ الاجتهاد الذي لا تحيا الشريعة إلا به، سواء كان اجتهاداً إنشائياً أم انتقائياً، كلياً أم جزئياً، فردياً أم جماعياً. على أن يكون الاجتهاد من أهله: الذين استجمعوا شرائطه المعروفة، العلمية والأخلاقية، وفي محله: أي في غير القطعيات، التي تجسِّد وحدة الأمة العقدية والفكرية والشعورية والعملية، وهي قليلة جداً، ولكنها مهمة جداً؛ لأنها تُمثِّل (الثوابت) التي لا يجوز اختراقها بحال.

إنَّ شعار الوسطية يدعو إلى تجديد منضبط، وإلى اجتهاد معاصر قويم، واضح الأهداف، بين المناهج، يرفض موقف الذين يغلقون باب الاجتهاد، ويوجبون التقليد على كل العلماء، وموقف الذين يفتحون أبوابه لكلِّ مَنْ هَبَّ ودب، بلا قيود ولا ضوابط. أولئك الذين سخر منهم الأديب الرافعي بأنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!![3]

10- الدعوة إلى فقه جديد:

ولكي يتم التجديد للدين حقاً – كما أشار إليه الحديث النبوي – لا بد من تأكيد الدعوة إلى تجديد (الفقه القرآني والنبوي)، وهو فقه في الكون، وفقه في الدين. ففي فقه الكون قال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**

---

1 – انظر: كتابنا (العقل والعلم في القرآن) نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة، وفصل (تقديم العقل على الشرع) من كتابنا (المرجعية العليا) و(ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق) نشر دار الشروق بالقاهرة.

2 – سبق تخريجه.

3 – انظر: فصل: التجديد في ضوء السنة من كتابنا (من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا) نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة، وكتاب (الاجتهاد بين الانضباط والانفراط) و(ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق) نشر دار الشروق بالقاهرة.

قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}[الأنعام:98]. وفي فقه الدين قال تعالى: { **فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}** [التوبة:122]، وقال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين"[1].

وفقه الآيات، والفقه في الدين أخصُّ وأعمق من مجرَّد العلم بالآيات، والعلم بالدين. إن الفقه يعني العلم بأسرار الشيء، وإدراك الغاية. وهو يضم عدة ألوان من الفقه المنشود: فقه سنن الكون، وفقه مقاصد الشرع.. وفقه المآلات.. وفقه الموازنات.. وفقه الأولويّات.. وفقه الاختلاف أو الائتلاف.. والفقه الحضاري.. وفقه التغيير.. وفقه الواقع[2]. والواجب على علماء العصر: أن يحيطوا علماً – كلٌّ على قدر سَعَة واديه– بهذه الأنواع من الفقه، حتى إذا دَعَوْا: دَعَوْا على بصيرة، وإذا أَفْتَوا: أَفْتَوا ببيِّنة، وإذا علّموا: علّموا على نور، وإذا قضوا: قضوا عن علم.

11- إنصاف المرأة وتكريمها:

توكيد ما جاء به الإسلام من إعطاء المرأة حقوقها ومكانتها وتكريمها: إنساناً، وأنثى، وبنتاً، وزوجة، وأماً، وعضواً في المجتمع، وتحريرها من رواسب عصور التخلُّف والتراجع الإسلامي، التي حَرَمتها من كثير من حقوقها، حتى الصلاة في المسجد، وحتى حقَّها في اختيار الزوج، ومن غوائل الغزو الحضاري الغربي الذي أخرج المرأة من فطرتها، ولم يُراعِ أنوثتها، والذي جعل المرأة المسلمة تسير وراء المرأة الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع. في حين يشكو النقاد والمصلحون من جناية هذه الحضارة على أنوثة المرأة، وعلى الفطرة الإنسانية، وعلى المرأة والرجل جميعا.

ونحن نرفض تفكير الغلاة الذين يريدون أن يسجنوا المرأة في البيت، ويحرموها من حقِّ العلم والعمل، والمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية كما قال تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}**[التوبة:71]. كما نرفض الذين يريدون أن يُذيبوا الفوارق بين الذكورة والأنوثة، مناقضين فطرة المرأة، وفطرة الكون كله، القائم على قاعدة الزوجية: **{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ**

---

1 – سبق تخريجه.

2 – انظر: كتابنا (أولويات الحركة الإسلامية) و(الصحوة بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) و(الصحوة من المراهقة إلى الرشد) و(دراسات في فقه مقاصد الشريعة) نشر مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة.

تَذَكَّرُونَ}[الذاريات:49] وليس على قاعدة (المثلية) التي يتبنّى الغرب إشاعتها اليوم، فالحياة إنما تستمر بالجنس ومقابله، لا بالجنس ومثله.

وقد أهلك الله قوم لوط حين خالفوا فطرةَ الله، وأمر الله، وأتوا فاحشةً لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فدمَّر الله عليهم قريتهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، {**مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**} [هود:83][1].

نريد للمرأة أن تؤدِّي واجباتها، وأن تأخذ حقوقها، وأن تؤدِّي رسالتها في الحياة جَنْباً إلى جنب مع الرجل، فلن يطير المجتمع بجناح واحد، وفي الحديث: "إنما النساء شقائق الرجال"[2].

12 - العناية بالأسرة وتوسيعها:

العناية بأمر الأسرة، باعتبارها الدعامة الأولى لقيام المجتمع الصالح، وإقامتها على الأسس الإسلامية الصحيحة، من حُسْن الاختيار، وشرعية الرؤية بين الخاطب والمخطوبة، والبُعْد عن الإسراف في المهور والاحتفالات، وكل مظاهر الرياء الاجتماعي، وتأسيس الحياة الزوجية على السكينة والمودة والرحمة، التي جاء بها القرآن، ورعاية حقوق كلٍّ من الزوجين على صاحبه، ومعاشرته بالمعروف، والصبر عليه، وإنْ أحسَّ بالكراهية، والتحكيم عند النزاع، وعدم اللجوء إلى الطلاق إلا إذا تعذَّر الوفاق. وشرعية تعدُّد الزوجات بقيوده وشروطه، دون توسع ولا تحريم. والإيمان بالأسرة الممتدة التي تشمل الأبوين، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأولادهم، بما لهم من حق في البر والصلة، ومن إيجاب النفقة عند الحاجة: {**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى...**} [النساء:36]، { **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**} [الأنفال:75]. وقد

---

1 – انظر: رسالتنا (مركز المرأة في الحياة الإسلامية) من رسائل ترشيد الصحوة. وانظر: (تحرير المرأة في عصر الرسالة) لعبد الحليم أبو شقة.

2 – رواه أحمد في المسند (26195) وقال مخرّجوه: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله وهو ابن عمر العمري، ورواه أبو داود في الطهارة (236)، والترمذي في الطهارة (113)، وأبو يعلى في المسند (149/8)، والبيهقي في الكبرى(268/1)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1983) عن عائشة.

أيد الإسلام نظام الأسرة المتكاملة بمجموعة من الأحكام في الميراث والوصية والنفقة والدية، لتبقى الأسرة متلاحمة متواصلة، في السراء والضراء[1].

13 - تكوين المجتمع الصالح المتكافل:

كما أنَّ الإسلام يسعى إلى تكوين الأسرة الصالحة، فهو يسعى كذلك إلى تكوين المجتمع الصالح، ذلك المجتمع الذي يقوم على الإخاء والتكافل والتراحم بين أبنائه، يحمل غنيُّه هَمَّ فقيره، ويأخذ قويُّه بيد ضعيفه، ويشدُّ بعضه أزْرَ بعض، فهو في تقاربه كالأسرة الواحدة، وفي ترابطه كالجسد الواحد، وفي تعاونه كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، يقوم على التكافل المعيشي، والتكافل الأدبي والعلمي والدفاعي، مؤمنوه ومؤمناته، كما قال تعالى: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [التوبة:71].

مجتمع يُكرم فيه اليتامى، وتُرحم فيه الأرامل، ويُواسى فيه الفقراء، ويُحْمَل فيه الضعفاء، ويُتواصى فيه بالصبر والمرحمة، كما قال تعالى: **{فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}** [البلد:13– 17]. وليس كالمجتمع الجاهلي الذي وصفه الله بقوله: **{كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً}** [الفجر:18–20].

بل هو كمجتمع المدينة الذي يتكوَّن من المهاجرين والأنصار، والذي أثنى الله عليهم بقوله تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر:8،9][2].

14 - الإيمان بوجود الأمة الإسلامية ووحدتها والولاء لها:

---

1 – انظر: فتاوانا حول المرأة والأسرة من كتابنا (فتاوى معاصرة) في أجزائه الأربعة، وكتابنا (مركز المرأة) من سلسلة ترشيد الصحوة.

2 – انظر: فصل (تكوين المجتمع الصالح) من كتابنا (مدخل لمعرفة الإسلام)، وانظر أيضا: كتابنا (ملامح المجتمع المسلم) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

الإيمان بوجود الأمة الإسلامية ورسالتها وخلودها، وأنها أمة لن تموت؛ لأنها حاملة الرسالة الخاتمة، **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران:110]. والإيمان بفرضية وحدتها، وبالأخوة الدينية بين أبنائها، على اختلاف مدارسها ومذاهبها، كما قال تعالى: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا}** [آل عمران:103]، **{وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}** [آل عمران:105]، واعتبار المسلمين حيثما كانوا أمة واحدة: "يسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يَدٌ على مَنْ سواهم"[1] قال تعالى: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}** [الأنبياء:92]، تجمعهم وحدة العقيدة، ووحدة القبلة، ووحدة الشريعة، ووحدة الآداب، ووحدة المصير.

ويجب اعتبار الفرق المختلفة كلها من الأمة الواحدة، ما استقام منها وما انحرف، ما دامت تُصلِّي إلى القبلة، وتؤمن بالقرآن الكريم، كتاباً محفوظاً لا زيادة فيه ولا نقصان. وبالسنة النبوية المشرفة، بياناً للقرآن، والسعي إلى التقريب بين فئاتها، بحيث تتعاون في المتَّفق عليه، وتَتَسامح وتتحاور في المختلف فيه، وتقف صفاً واحداً في القضايا الكبرى. والتأكيد على مبدأ الولاء للأمة؛ بمعنى المودة والنُّصرة لها ولا يكون لأمة أخرى من دونها، وتقديم الولاء لها على الولاء للطائفة أو المذهب[2].

ويعمل تيار الوسطية على تجميع كل القوى والجماعات والحركات العاملة لنصرة الإسلام وبعث أمته، في صف واحد، ووجهة واحدة. وليس من الضروري، بل لعله ليس من المفيد: أن يجتمعوا في حركة واحدة، أو جماعة واحدة، فهذا يقتضي أن تتوحَّد أهدافهم، وتتوحَّد برامجهم، وتتوحَّد قيادتهم، وهذا ليس بالأمر السهل. ويكفي أن يكون بينهم قدر معقول من التفاهم والتنسيق، وأن يقفوا صفاً واحداً في القضايا المصيريَّة، وأن يكونوا في مواجهة أعداء الأمة وأعداء دينها كالبنيان المرصوص. ولاسيما في أوقات الشدائد والأزمات، فالمصائب تجمع المصابين، والمحن تُوحِّد

1- رواه أحمد في المسند (6692) وقال مخرّجوه: صحيح وهذا إسناد حسن، وأبو داود في الجهاد (2751)، وابن أبي شيبة في المصنف كتاب الديات (28547)، والبيهقي في الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة (335/6)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (2390) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

2 - انظر: كتابنا (الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم) نشر مكتبة وهبة. وفصل (تكوين المجتمع الصالح) من كتابنا (مدخل لمعرفة الإسلام).

المختلفين، والأزمات تُقرِّب المتباعدين.. على أن الاختلاف والتعدُّد بين العاملين لا يضر إذا كان اختلاف تنوُّع لا اختلاف تناقض، وكان التعدُّد تعدُّدَ تخصُّص لا تعدُّد صراع.

15 - إقامة الدولة العادلة حاملة الدعوة:

ومما يعني به تيار الوسطية والتجديد: تكوين (الدولة الصالحة) التي تقود الأمة إلى الحق والخير، وتقيم عدل الله في الأرض، وتحتكم إلى ما أنزل الله من الكتاب والميزان، فتعدل في الرعية، وتقسم بالسوية، وتدعو إلى الخير، وتقاوم الشر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحمي الحق، وتطارد الباطل، حتى تستحق نصر الله وتمكينه لها في أرضه، كما قال تعالى: {**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ**} [الحج:40-41]. ومن هنا أوجبت الشريعة الإسلامية إقامة (الإمام العادل) عن طريق الاختيار والبيعة، واشترطت فيه صفات، وكلَّفته بواجبات، وجعلت له حقوقاً. والإمام رمز للدولة.

ومن الضروري احترام حق الشعوب – بل واجبها – في اختيار حكامها من الأقوياء الأمناء، الذين تثق بكفايتهم ودينهم، دون تزييف لإرادتها، أو فرض حاكم عليها، يقودها رغم أنوفها. فإذا اختارت هذا الحاكم فله عليها حق المعونة والنصيحة والطاعة في غير معصية. ولها – بل عليها – أن تُسائله وتُحاسبه، وتُرشده إذا أخطأ، وتقوِّمه إذا انحرف، وتَعْزله إذا تَمادى في غيِّه بالطرق السلمية. ويقوم نظام الحكم على العدل والشورى ورعاية الحقوق، والالتزام بشريعة الله وما أنزل من الكتاب والميزان. والاستفادة من النظام الديمقراطي بما فيه من آليات وضمانات ووسائل في مساندة الشعوب، وتقييد سلطان الحكام، دون أن نأخذ بكل ما فيها وما وراءها من فلسفات، من مثل إطلاق الحرية الفردية، ولو على حساب القيم الأخلاقية، والأحكام الشرعية. وبهذا نأخذ خير ما في الديمقراطية، ونتجنب شر ما فيها[1].

16 - تجنُّب التكفير والتفسيق:

---

1 – انظر: كتابنا (الدين والسياسة)، وكتابنا (من فقه الدولة في الإسلام) وكلاهما من نشر دار الشروق بالقاهرة.

ومن الواجبات الأساسية للإبقاء على وحدة الأمة والأخوة بين أبنائها: تحسين الظن بكلِّ مَنْ شهد الشهادتين، وصلى إلى القبلة، ولم يصدر منه ما يخالفها بيقين، والأصل حَمْلُ حال المسلم على الصلاح ما أمكن ذلك، وتجنُّب التفسيق والتكفير ما وُجِدَ إلى التجنُّب سبيل، وخصوصاً: فسق التأويل، وكفر التأويل. فمفتاح الدخول في الإسلام هو الكلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فلا يخرجه من الإسلام إلا جحود ما أدخله فيه، واليقين لا يزال بالشك.

والتكفير خطيئة دينية، وخطيئة علمية، وخطيئة سياسية، لا يحل لمسلم السقوط في هاويته، لما يترتَّب عليه من الحكم على المسلم بالإعدام المادي أو الأدبي أو كليهما، من المجتمع المسلم. لذا وَجَب الحذر كل الحذر من الوقوع فيه، إلا ما ثبت بيقين لا شك فيه، من تكذيب لقواطع القرآن، أو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، أو سبٍّ صريح لله ورسوله، كما جاء في الحديث :"إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان"[1]. والمقصود: البرهان القاطع. أما ما يحتمل التأويل، فإن الشك يفسَّر لصالح المتهم بالكفر[2]. وليس معنى هذا أن نتساهل في تكفير من يستحق التكفير، بل الواجب أن نخرج من الأمة من ليس منها، إذا ثبت لنا ذلك بالبيِّنة، حتى لا يبقى الجاحدون والمتطاولون على عقائد الأمة، والمُسْتخفّون بمقدساتها، والمُهدّمون لأسسها، على أنهم جزء منها وهم في الحقيقة أعداؤها.

17 ـ تقوية اقتصاد الأمة وإقامته على أُسس إسلامية:

تقوية اقتصاد الأمة، تقوية تقوم على العلم والخبرة، وعلى الإيمان والأخلاق كذلك، والعمل على تكاملها فيما بينها، حتى تكتفي اكتفاء ذاتياً، مدنياً وعسكرياً، بحيث تُكَوّن تكتلاً اقتصادياً عالمياً له خصائصه ومقوّماته، وبناء هذا الاقتصاد على فقه الشريعة ومقاصدها، على أن تراعي مقوِّماته وخصائصه المُميّزة، فهو اقتصاد ربَّاني، يقوم على فكرة الاستخلاف في مال الله، واقتصاد إنساني، فالإنسان غايته، والإنسان وسيلته، وهو اقتصاد أخلاقي، لا ينفصل عن الأخلاق بحال في كل خطواته، يقرّ الملكية الفردية، ولكنه يقيدها بقيود وتكاليف تحدّ من طغيانها، وهو

---

1 – متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (7055، 7056)، ومسلم في الإمارة (1709) عن عبادة بن الصامت.

2 – انظر: رسالتنا (ظاهرة الغلو في التكفير) نشر مكتبة وهبة. وكتابنا (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) نشر (كتاب الأمة) في قطر، ودار الشروق وغيرهما. وكتابنا تحت الطبع عن (التكفير).

اقتصادٌ تعاونيٌّ، لا يقوم على طبقة واحدة، بل تتعاون فيه الطبقات كلها، لمصلحة الأمة كلها، مع الانفتاح على العالم، والاستفادة من خير ما فيه. ويجب تشجيع إقامة المصارف والمؤسَّسات المالية الإسلامية، وتعميق أسسها الشرعية والفكرية الإسلامية، وتحريرها من الصورية والشكلية، والعمل على تطويرها وتحسينها حتى تُسهم بقوة في تنمية المجتمعات الإسلامية، وإنقاذ الاقتصاد الوضعي في العالم من رجس الربا والاحتكار، ورذائل الظلم والغش والمعاملات الفاسدة، التي أدت إلى أزمة العالم المالية والاقتصادية التي يعاني منها اليوم.

كما يجب التخطيط العلمي، والسعي العملي لتأسيس اقتصاد إسلامي عالميّ متميز، يقوِّي الضعفاء، ولا يضعف الأقوياء، يُغْني الفقراء، ولا يفقر الأغنياء، لا يقوم على الربا ولا الاحتكار، يتحقق فيه: زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، واستقامة التداول، وعدالة التوزيع. والإبقاء على وسطية الاقتصاد الإسلامي، فلا ينهج نهج النظام الرأسمالي الذي يُطْغي الفرد على حساب المجتمع، ولا النظام الشيوعي الذي يُطْغي المجتمع على حساب الأفراد. بل هو اقتصاد مقيد بالأخلاق، في إنتاجه واستهلاكه، وفي تداوله وتوزيعه، وهو يعلم المسلم ألا يأخذ المال إلا من حله، ولا ينفقه إلا في حقه. كما لا يبخل به عن حقه.

ومن أهم ما يميز الاقتصاد الإسلامي:

1 – إيجاب الزكاة، وهي من أركان الإسلام. وهي عنوان التكافل في المجتمع. وهي أول الحقوق في المال وليست آخرها. وهي فريضة يحرسها إيمان الفرد، وضمير المجتمع، وسلطان الدولة.

2 – وتحريم الربا، وهو من الموبقات السبع. وهو عنوان مقاومة الظلم في المجتمع. وقد لعن رسول الإسلام آكله ومُؤْكله وكاتبه وشاهديه، ليحاصره من كل جانب.

3 – كما أنه يقيم معاملاته على قواعد ومبادئ تضع من الضوابط والضمانات ما يمنع العالم من وقوع الأزمات الخطيرة التي تهدده بالدمار [1].

18 - الإيمانُ بضرورة التعدّدية والتعارف والتسامح بين الشعوب:

الإيمانُ بأنَّ البشريَّة أسرة واحدة، تنتمي من جهة الخلق إلى رب واحد، ومن جهة النسب إلى أب واحد، وعليهم أن يتعارفوا لا أن يتناكروا، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}** [الحجرات:13]. **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً}** [النساء:1].

كما يجب توكيد الإيمان بالتعددية الدينية، والتعددية العرقية، والتعددية اللغوية، والتعددية الحضارية(أو الثقافية)، والتعددية السياسية.

فمن الحقائق المسلّمة: أن الله سبحانه هو المنفرد بالوحدانية: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [الإخلاص:1]، وما عداه عز وجل فهو متعدِّد، يقوم على قاعدة الازدواج أو الزوجية، كما قال تعالى: **{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}** [الذريات:49].

ولذا كان من المهم ضرورة التعايش بين الحضارات، والتلاقح بين الثقافات، وتفاعل بعضها مع بعض، واقتباس بعضها من بعض، دون انكماش ولا استعلاء بالعرق، أو اللون، أو بالقوة أو بالكثرة أو بالمال. كما أن من اللازم: تهيئة الأجواء لإقامة حوار إيجابيّ بين أصحاب الأديان، ليتعاونوا في المشترك بينهم، ويقفوا صفاً واحداً في وجه منكري الأديان، والمتعدّين على كرامة الإنسان، وحقوق الإنسان، ودعاة التحلُّل من كل فضيلة وإحسان، وإشاعة القيم الإيمانية والأخلاقية، وغرس روح التسامح الذي دعا إليه الإسلام، وتميَّز به خلال تاريخه.

19 - إنشاء حضارة العلم والإيمان:

وممَّا يتطلَّع إليه تيَّار الوسطية الإسلامية: إنشاء حضارة متميزة يفتقر إليها العالم كله، حضارة ربانية إنسانية أخلاقية عالمية، تجمع بين العلم والإيمان، وتمزج

---

1 – انظر: كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي)، نشر مكتبة وهبة. وكتابنا (الزكاة وأثرها في حل المشكلات الاقتصادية)، وكتابنا (فوائد البنوك هي الربا الحرام)، وكتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام)، وكتابنا (مقاصد الشريعة)، وكتابنا تحت الطبع: (القواعد الحاكمة لفقه المعاملات).

بين الروح والمادة، وتوازن بين العقل والقلب، وتصل الأرض بالسماء، وتقيم الموازين القسط بين الفرد والمجتمع، وتُعلي قوة الحق على حق القوة.

والإسلام بقرآنه وسنته ينوّه بقيمة العلم، ويرفع من قدر العلماء **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}** [الزمر:9]. والعلم ما يكشف الحقيقة للناس في أيِّ مجال كان، دينياً كان أو دنيوياً، إنسانياً كان أو طبيعياً، المهم أن يكون هدفه خير الإنسان، وسعادة الإنسان.

وعلماؤنا يقررون: أنَّ التفوق في العلوم الطبيعية والرياضية، فرض كفاية على الأمة، بحيث إذا لم يوجد لديها في كل مجال من مجالات العلوم عدد كاف من العلماء والخبراء، يُلبِّي حاجة الأمة، ويُغْنيها عن غيرها، كانت الأمة كلها آثمة.

كما يجب على الأمة أن تكون لها مدارسها الفكرية الخاصة لدراسة العلوم الإنسانية، منطلقة من فلسفتها حول الوجود والمعرفة والقيم، ونظرتها الكلية لله وللإنسان وللكون وللحياة، فتكون لنا المدرسة الإسلامية في علم الاجتماع، ومثلها في علم النفس، وأخرى في التربية.. وهكذا، في مقابل المدارس الليبرالية والماركسية.

ومن المهم هنا: الإشادة بما قدَّمته أمتنا من منجزات حضارية تاريخية بَهَرت العالم، ومن فتوحات في زمن قياسي، كانت تحريراً للشعوب من مستعبديها، ولم تكن يوماً لإذلالها أو استغلالها. والتنويه بما أسَّسته أمتنا من حضارة شامخة تميَّزت عن الحضارات السابقة واللاحقة، بتكاملها وتوازنها ووسطيتها[1]. جمعت بين الواقعية والمثالية، بين الرقيِّ الماديِّ والسموِّ الأخلاقي، بين الاستمداد من نور الوحي، ونور العقل.

وقد شارك في صنع هذه الحضارة أناس من أديان وأعراق وأوطان مختلفة، لم تضق الحضارة الإسلامية بهم ذرعاً، وظلت هذه الحضارة أكثر من ثمانية قرون تعلم العالم، وتنشر النور، ومنها اقتبست أوربا المنهج التجريبي الاستقرائي، وتعلّمت من

1 – انظر: رسالتنا: (التعددية الدينية واللغوية)، وكتابنا (ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق)، ومقالة: (ثقافة التسامح).

ابن سينا والغزالي وابن رشد وغيرهم في الشرق وفي الأندلس، كما تأثرت بالمسلمين حين اصطدمت بهم وتعاملت معهم في الحروب الصليبية[1].

ولا ندَّعي أن تاريخ أمتنا وحضارتها معصومٌ من الأخطاء، ولكنه أقل تواريخ الأمم مثالب، كما لا نقبل أن يشوَّه تاريخنا، وخصوصاً القرون الثلاثة الأولى، وهي خير القرون فيه، التي أثنى عليها رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم[2]. وواجب الأمة أن تصل هذا الماضي المجيد بحاضر يكافئه، إن لم يزد عليه، ولا تكتفي بالتغنّي بأمجاده، والبكاء على مآسيه؛ بل واجبنا هو استلهام الماضي، والارتقاء بالحاضر، واسْتشراف المستقبل.

20 – الرُّقيّ بالفنون وتوظيفها في خدمة رسالة الأمة:

هذا المَعْلَم ربما يستغربه بعض الناس، لأنه قد كوّن لديه فكرة أن الدين عدو الفن. وهذا غير صحيح. فإنَّ روح الفن هو الشعور بالجمال، والتعبير عنه بطريقة جميلة. والإسلام يُحيي هذا الشعور في نفس المسلم، ويعلِّم المؤمن أن ينظر إلى الجمال مبثوثاً في الكون كله، في لوحات ربانية رائعة الحسن، أبدعتها يد الخالق المصور، **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** [السجدة:7] **{صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}** [النمل:88] **{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}** [الملك:3].

ومن تدبَّر القرآن، وجده يلفت الأنظار، و يُنبّه العقول والقلوب إلى الجمال الخاص بمفردات الكون وأجزائه، في السماء: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}** [ق:6]. وفي الأرض: **{وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}** [ق:7]. **{وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ}** [النمل:60]. وفي الحيوان، يقول بعد أن ذكر الأنعام ومنافعها: **{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}** [النحل:6]. وفي الإنسان: **{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ**

---

[1] – انظر: كتابنا (الإسلام حضارة الغد)، ورسالتنا: (من معالم الرسالة الحضارية لأمتنا) من رسائل ترشيد الصحوة، كلاهما نشر مكتبة وهبة بالقاهرة

[2] – انظر: كتابنا (تاريخنا المفترى عليه) نشر دار الشروق.

صُوَرَكُمْ} [التغابن:3] **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [التين:4]. والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ الله جميل يحبُّ الجمال"[1].

والقرآن نفسه معجزة أدبية فنية جمالية، استمع إليه العرب وهم مشركون، فقالوا: (إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة). وهو يتلى بأجمل الأصوات، فتضيف إليه جمالا إلى جمال، كما جاء في الحديث: "زيّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا"[2].

ولذا رحَّب الإسلام بالفن الراقي المسموع والمرئي والمصنوع، بقيود وشروط تنأى به أن يكون معبراً عن الوثنية التي سادت الحضارات المختلفة قبل الإسلام، أو مسانداً لها وداعياً إليها، بل المفروض في الفن الإسلامي وبكل أجناسه وألوانه أن يكون معبّراً عن التوحيد، وداعياً إلى التوحيد.

وكذلك يجب أن ينأى الفن كله في ظل الإسلام أن يكون أداة لإثارة الغرائز الدنيا، والدعوة إلى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، بل الواجب أن يُوظَّف الفن – كما يوظَّف العلم – لتزكية الأنفس، والسموّ بالإنسان، وحضّه على تقوى الخالق والإحسان بالمخلوق: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}** [النحل:128].

وفي هذا الإطار يدعم الإسلام الفنون ويرقى بها، كما شهدنا ذلك في عهود ازدهار الحضارة الإسلامية، وما حفلت به من فنون الهندسة والعمارة، وما اشتهرت أو تفرَّدت به من أعمال الزخرفة وكتابة الخط العربي والتفنُّن فيه، من ثلث، ورقعة، ونسخ، وفارسي، وديواني، وكوفي، وغيرها، وقد تجلى ذلك في القصور والمساجد والمصاحف والسيوف وغيرها.

ليس صحيحاً أن الحياة الإسلامية حياة قاتمة، لا مجال فيها لفم أن يضحك، ولا لقلب أن يفرح، ولا لفكه أن يمزح، ولا لأسرة أن تغني وتطرب بزفاف عروس، وتضرب على ذلك الدف والطبل. والحق أنَّ إظهار الإسلام بمظهر المتزمّت العبوس، ظلمٌ لحقيقة الإسلام، وقد أصدرنا عدة كتب في بيان أحكام الإسلام في

---

1 – رواه مسلم في الإيمان (91)، وأحمد في المسند (3789)، والترمذي في البر والصلة (1999) عن ابن مسعود.

2 – رواه أحمد في المسند (18494)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح، وأبو داود في الصلاة (1468)، والنسائي في الافتتاح (1015)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (1342)، والحاكم في فضائل القرآن (575/1) عن البراء، واللفظ للحاكم.

ذلك، مثل: (فقه الغناء والموسيقى) و(فقه اللهو والترويح) و(الإسلام والفن) ينبغي الرجوع إليها لمعرفة الموقف الإسلامي الوسطي، الذي لا طغيان فيه ولا إخسار في الميزان.

21- عمارة الأرض وتحقيق التنمية ورعاية البيئة:

ومن المعالم الأساسية لمنهج الوسطية المجدِّد: العناية بعمارة الأرض، فهي من المقاصد التي خلق الله من أجلها الإنسان، مثل عبادة الله، وخلافته في أرضه، قال تعالى: **{هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}** [هود:61]، ومعنى (استعمركم) أي: طلب منكم عمارتها وإصلاحها. وتحقيق التنمية المتكاملة، والدائمة، مادية وبشرية، ورعاية البيئة بكل مكوِّناتها، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وحمايتها من التلوث والفساد، الناشئ من تجاوز الإنسان في استخدام نعم الله ظلماً وكفراناً، والحفاظ على التوازن البيئي والتوازن الكوني، الذي أقام الله عليه خلقه، وأجرى به سننه، والتعاون على كل ما يُيسر المعيشة للناس، وكل ما يشيع الجمال في الحياة، واعتبار ذلك عبادةً وجهاداً في سبيل الله.

وعلى سكان الأرض: أن يتَّحدوا فيما بينهم ليحافظوا على أرضهم، ويواجهوا الأخطار المهدِّدة لهم، من الذين يفسدون في الأرض بعد إصلاحها، كما حذَّر نبي الله صالح قومه قائلاً: **{وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}** [الشعراء:151،152]، وعلى أهل الأرض جميعا أن يحافظوا على الميزان الكوني، **{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن:8، 9]. بدل أن يحارب بعضهم بعضا[1].

لقد خلق الله هذه الأرض منذ خلقها **{وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}** [فصلت:10]، وضمن فيها الرزق لكل خلقه: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}** [هود:6]، **{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ}** [الأعراف:10]، وبذلك تقوم حضارة متوازنة، تُكرم الإنسان، وتعتبره خليفة الله في الأرض، لا مجرَّد حيوان متطوِّر، وتساعده على أن يستمتع بطيبات ما خلق

---

1 – انظر: كتابنا (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) و(السنة مصدرا للمعرفة والحضارة) نشر دار الشروق بالقاهرة.

الله وما سخر له في الكون، وما ينزل من بركات السماء والأرض، التي يحرمها الإنسان بفجوره وعدوانه، وبُعده عن تقوى الله.

22- السلام مع المسالمين والجهاد مع المعتدين:

ومن معالم هذا التيار الوسطي التجديدي في فهم رسالة الإسلام: الدعوة إلى السلام مع كلِّ مَنْ بَسَط يده للسلام: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً}** [البقرة:208]، وتجنيب البشريَّة الحروب المدمِّرة بغير ضرورة، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية"[1]، والسعي إلى الصلح والمعاهدات بين الدول، ولهذا كان أول ما فعله النبي الكريم بعد الهجرة عقد معاهدة تكافل وتعاون ودفاع مشترك مع يهود المدينة، كما رحّب الرسول بصلح الحديبية مع محاربيه من قريش، وسماه القرآن فتحاً مبيناً.

ولهذا لا يدخل المسلون الحرب إلا مكرهين، كما قال تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ}** [البقرة:216]، فإذا تلاقى المسلمون وأعداؤهم ولم يقدر بينهم قتال، عقب القرآن على ذلك بما عقب به بعد غزوة الأحزاب: **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}** [الأحزاب:25]، فما أروعه من تعقيب! وقال تعالى عن المشركين: **{فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً}** [النساء:90] وإذا وقع القتال، فإن الإسلام يُرحِّب بالجنوح إلى السلم كلما تيسَّرت سبله: **{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}** [الأنفال:61].

هذا مع التمسك بفرضية الجهاد في سبيل الله للدفاع عن حرمة الدين والمقدَّسات، وعن أرض الإسلام، وأمة الإسلام، والمستضعفين في الأرض، والوقوف في وجه الفراعنة والمستكبرين في الأرض. وإعداد أقوى ما يستطاع من القوة العسكرية المادية والبشرية، لإرهاب الأعداء، وبيان أنواع الجهاد ومجالاته: من الجهاد النفسيّ، والجهاد الدعويّ، والجهاد المدنيّ، والجهاد ضد الظلم والفساد في

[1] – متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (3024)، و مسلم في الجهاد والسير (1742)، كما رواه أحمد في المسند (19114)، وأبو داود في الجهاد (2631) عن عبد الله بن أبي أوفى.

الداخل، إلى جانب الجهاد العسكري. ومن الجهاد الواجب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغيير المنكر باليد، أو باللسان، أو القلب حسب الاستطاعة.

والجهاد قد يكون فرض كفاية، وذلك بإعداد الجيوش القوية، المدرَّبة على القتال، المسلَّحة بما يُستطاع من قوة، وشحن الثغور والحدود بالقوات المسلحة المطلوبة، حتى لا يطمع العدو في بلاد المسلمين. وقد يكون الجهاد فرض عين على الأمة، لتحرير أرضها من كل سلطان أجنبي مسلَّط عليها. ولهذا كانت مقاومة الاحتلال الأجنبي فرضاً دينياً مؤكداً، حتى يطرد من أرض الإسلام.

وأول أرض يجب تحريرها اليوم هي أرض فلسطين، أرض الإسراء والمعراج، التي غزاها الاستعمار الصهيوني، القادم من خارج المنطقة، مؤيداً من الغرب كله، فاغتصب الأرض، وشرَّد أهلها، وسَفَك دماءهم، واستحلَّ حُرماتهم، و بنى دولته على أشلائهم. وبالحديد والنار والدم: استطاع الاستعمار الصهيوني الوحشي العنصري الاستيطاني الإحلالي أن يقيم دولته في قلب بلاد العرب والمسلمين، رغم أنوفهم.

ولم تكتف الدولة بحدودها المغتصبة، ففكرتها الأصلية: أن ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل، ومن الأَرْز إلى النخيل، فاحتلت فلسطين كلها، بل احتلت بعض أجزاء من بلاد عربية أخرى. ولا تزال تقتل وتدمِّر بغير حساب في فلسطين وما حولها، مؤيَّدة بالمال الأمريكي، والسلاح الأمريكي، والسياسة الأمريكية التي تستخدم إسرائيل في تحقيق أهدافها في المنطقة، التي تريد تغييرها من الجذور، حتى تغيِّر اسمها، فهي شرق أوسط كبير أو جديد. وعلى الأمة أن تتصدى لهذا الاستعمار المزدوج: الصهيوني الأمريكي، الذي جعل هدفه أمة الإسلام جمعاء. وهو يحارب الإسلام تحت عنوان محاربة الإرهاب[1].

23- العناية بالأقليات الإسلامية في العالم:

ومن معالم هذا التيار: العناية بالأقليات الإسلامية في العالم – وهي تقدر بمئات الملايين– باعتبارها جزءاً من الأمة المسلمة، قُدِّر لها أن تعيش وسط مجتمعات مخالفة لها في الدين. وعلى الأمة أن تعينهم على أن يعيشوا بإسلامهم في

---

1 – انظر: كتابنا الكبير (فقه الجهاد) ورسالة (القدس قصة كل مسلم) نشر مكتبة وهبة، وكتابنا (الإسلام والعنف) نشر دار الشروق.

مجتمعاتهم، عناصر حية فاعلة، تجسِّد الإسلام في سلوكها وتعاملها، تعيش به في نفسها، وتدعو إليه مواطنيها بأقوالها وأفعالها وأخلاقها.

ويجب على علماء الأمة ودعاتها حمايتهم من فكر الغلاة الذين يعيشون في هذه الأوطان وهم يضمرون لها العداوة، ويستحلون أموال أهلها، ولا يرعون لها حقاً ولا عهداً. وأن يبيّنوا لهم موقف الإسلام الصحيح، كما يقوم به المجلس الأوربي للإفتاء وغيره من المجالس.

ومن واجب هذه الأقليات: أن تتعاون فيما بينها مادياً وأدبياً، حتى تقيم مؤسساتها الدينية والتعليمية والاجتماعية والترويحية، كي يمكنها الاحتفاظ بهويتها وشخصيتها الدينية، فالمرء ضعيف بمفرده، قويٌّ بجماعته. على أن يكون لها فقهها الذي يراعي ظروفها في ضوء الشريعة، وأن يكون شعارها: استقامة على الدين بلا انغلاق، واندماج في المجتمع بلا ذوبان[1].

ومن واجب كل فرد من هذه الأقلية: أن يحافظ على إيمانه وشخصيته الدينية ويُنمّيها بالعلم النافع والعمل الصالح، والخُلق الفاضل، وأن يحافظ على ذريته وأهله كذلك، **{قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً}** [التحريم:6]، وأن يقوي صلته بإخوانه، فيمكنَهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم وأسرهم ودعوة غيرهم، وأن يظلوا على ارتباط بأمتهم الإسلامية، ولا ينسوا قضاياها، فهم رصيد سياسي لها في بلاد الغرب وغيرها، ليقاوموا تأثير اللوبي الصهيوني فيها.

24- حقوق الأقليات الدينية في مجتمعاتنا الإسلامية:

الاعتراف بحقوق الأقليات الدينية – يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو غيرها – ومعاملتهم بما أوجبه لهم الإسلام من تركهم وما يدينون، وعدم التدخل في شؤونهم العقدية أو التعبدية، أو أحوالهم الشخصية، والتأكيد على أنهم من (أهل دار الإسلام) بإجماع فقهاء الأمة، ومقتضى هذا: أنهم بلغة عصرنا (مواطنون) لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه التميُّز الديني، فلا تفرض عليهم عبادة إسلامية، ولا تقاليد إسلامية.

[1] – انظر: كتابنا (في فقه الأقليات) نشر دار الشروق.

ولا ينبغي للأكثرية المسلمة أن تضغط عليهم بحال بما يعنتهم في دينهم أو دنياهم، ولا تضيّق عليهم فيما يحله لهم دينهم، وإن كان الإسلام يحرمه مثل: أكل الخنزير، وشرب الخمر، وإن كان العالم كله اليوم يقاوم المسكرات، لأضرارها الجسيمة والملموسة على الفرد والأسرة والمجتمع، مادية ومعنوية.

وتسميتهم (أهل الذمة) ليس بلازم ديناً، فقد أسقط عمر رضي الله عنه: ما هو أهم من الذمة، وهو كلمة (جزية) المذكورة في القرآن، حين عرض بنو تغلب، وهم عرب نصارى: أن يدفعوا ما يطلب منهم – ولو مضاعفاً– باسم الزكاة التي يدفعها المسلمون، لأنهم عرب يأنفون من كلمة (جزية) فقبل منهم عمر، ووافقه الصحابة رضي الله عنهم. وهذا ما يعطينا سنداً لتؤخذ منهم ضريبة مثل ما يدفع المسلمون من زكاة، يدفعها المسلمون على أنها عبادة، ويدفعونها هم على أنها ضريبة، كما أنهم يمكنهم أن يجندوا في جيش الدولة المسلمة إذا رغبوا في ذلك.

ولم ينهنا القرآن أن نبر هؤلاء، ونقسط إليهم ما داموا لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على إخراجنا[1] **{لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}** [الممتحنة:8].

على أن الأقلية الدينية – ولاسيما المسيحية – في بلاد العرب لها خصوصيتها، التي تجعلها جزءاً من الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، بحكم تكلمهم بالعربية، فهم مسيحيون بالملة، مسلمون بالثقافة.

25- تبني منهج التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة:

ومن معالم الوسطية والتجديد: تبنِّي منهج التيسير والتخفيف في الفقه والفتوى، اتباعا للمنهج القرآني: **{يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}**[البقرة:185] **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}**[الحج:78]، وللمنهج النبوي: "يسروا ولا تعسروا"[2]، "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسِّرين"[3].

1 – راجع في هذا: كتابنا (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي) ورسالتنا (الأقليات الدينية والحل الإسلامي).

2 – متفق عليه: رواه البخاري في العلم (69)، ومسلم في الجهاد والسير (1734) عن أنس.

3 – رواه البخاري في الوضوء (220)، وأحمد في المسند (7255)، وأبو داود (380)، والترمذي (147)، والنسائي (56)، ثلاثتهم في الطهارة، عن أبي هريرة.

ومن ذلك: التضييق في الإيجاب والتحريم، والإفتاء بالرخص، ولا سيما عند الحاجة إليها، وبقاعدة: (الضرورات تبيح المحظورات) وقاعدة: (الحاجة تنزل منزلة الضرورة) والتوسُّع في مصادر التشريع فيما لا نصَّ فيه؛ من الأخذ بالاستصلاح، والاستحسان، ورعاية العرف، وسد الذريعة.. وإن كان ولا بد من التشديد، فليكن في الأصول لا في الفروع. وقد حذَّر الرسول الكريم من الغلو والتنطُّع والتَّشديد والتعسير.

وإذا كان التيسير مطلوباً في كلِّ زمان، فهو أشد ما يكون طلباً في هذا العصر، الذي غلبت فيه الماديات على المعنويات، وتعقدت فيه حياة الناس، وكثُرت العوائق عن الخير، والمغريات بالشر. والتيسير المطلوب هنا: لا يعني تبرير الواقع، أو مجاراة الغرب، أو إرضاء الحكام، بليّ أعناق النصوص حتى تفيد التيسير قسْراً، فيحلوا الحرام، ويبدّلوا الأحكام، فهذا موقف مرفوض، كموقف الذين يعسِّرون ما يسَّر الله، ويعرضون عن كلِّ اجتهاد فيه تخفيفٌ على عباد الله[1].

ويتمِّم التيسيرَ في الفتوى: التبشيرُ في الدعوة، وقد ربط بينهما المنهج النبوي، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأبي موسى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن: "يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرا"[2]، وكذلك روى عنه أنس: "يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا"[3].

ومن هنا ينبغي أن نعمل على تطوير مناهج هذه الدعوة المبشِّرة إلى الإسلام: للمسلمين: تفقيهاً للتعاليم، وتصحيحاً للمفاهيم، وتثبيتاً وتذكيراً للمؤمنين، وبياناً لحقائق الإسلام، ورداً على أباطيل خصومه.. ولغير المسلمين، باعتبار دعوة الإسلام دعوة عالمية موجهة للناس كافة **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}**[الأنبياء:107] مع ضرورة استخدام آليات العصر من الفضائيات والإنترنت وغيرها، في تبليغها إلى العالمين، بلغاتهم المختلفة، مع وجوب رعاية الأصول، بجانب رعاية روح العصر، وأسلوب العصر.

---

1 – راجع: كتابنا (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد) فصل: من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير.

2 - متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (3038)، ومسلم في الجهاد والسير (1733)، كما رواه أحمد في المسند (19742) عن أبي موسى.

3 - سبق تخريجه.

ودعوة المسلمين تكون كما رسمها القرآن – بالحكمة والموعظة الحسنة – ودعوة المخالفين عن طريق الحوار بالتي هي أحسن، سواء كانوا مخالفين في أصل الدين، أم مخالفين في المذهب داخل الدين أم مخالفين في غير ذلك. وتبنِّي منهج التبشير في الدعوة، إلى جوار منهج التيسير في الفتوى.

والتبشير في الدعوة: أن نذكّر بالرجاء مع الخوف أو قبل الخوف، وبالوعد مع الوعيد أو قبل الوعيد، ونؤكد بواعث الأمل بدل المثبِّطات والمحبطات، ونعرِّف بالإسلام: أنه دين التفاؤل لا التشاؤم، دين الأمل لا القنوط، دين الحب لا البغض، دين التعارف لا التناكر، دين الحوار لا الصِّدام، دين الرفق لا العنف، دين الرحمة لا القسوة، دين السلام لا الحرب، دين البناء لا الهدم، دين الجَمْع لا التفريق. والتركيز على بواعث الأمل، لا على مُوجبات الإحباط، وتأكيد المبشِّرات بانتصار الإسلام[1]، بدل التركيز على أحاديث الفتن وما تُوحي به من غربة الإسلام، وإدبار الإيمان.

26- رعاية سنة التدرُّج وسائر سنن الله:

ومن معالم الوسطية المجدِّدة: التدرُّج الحكيم: في الدعوة والتعليم والإفتاء والتغيير، وعدم استعجال الشيء قبل أوانه، والثمرة قبل نضجها. والتدرُّج سنة كونية، كما هو سنة شرعية. قال تعالى: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ }**[الأحقاف:35].

وقد أنزل الله القرآن في ثلاث وعشرين سنة على رسوله صلى الله عليه وسلم، ليقرأه على الناس على مُكْث، وليعايش الناس في تطوُّر حياتهم، ويجيبهم عن تساؤلاتهم كلما سألوا **{وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}**[الفرقان:33].

ومن اللازم هنا: وجوب رعاية سنن الله في الكون والمجتمع، فهي قوانين ثابتة لا تخضع للأهواء، ولا تُحابي أحداً، ولا تجور على أحد، كما قال تعالى: **{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}** [فاطر:43]. فمن رعى هذه السنن رعته، ومن ضيَّعها ضيَّعته.

[1] – انظر: رسالتنا (المبشرات بانتصار الإسلام) من رسائل ترشيد الصحوة.

ومن ذلك: سنته تعالى في النصر والتمكين، وسنته في التغيير والإصلاح، وسنته في قيام الأمم وسقوطها، وسنته في إمهال الظالمين دون إهمالهم، وسنته في ربط المسبّبات بأسبابها، فمن جَدَّ وجد، ومن زرع حصد، أيّا كان دينه أو عرقه، أو وطنه. إلى غير ذلك من السنن التي أقام الله عليها نظام هذا الكون.

27- الموازنة بين الثوابت والمتغيرات:

ومن معالم هذه الوسطية: الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، فلا يجوز إغفال الثوابت، ولا إهمال المتغيرات، ولا تحويل الثوابت إلى متغيِّرات، ولا المتغيِّرات إلى ثوابت، ولكن يجب ملاحظة أثر تغير الزمان والمكان والحال والعرف في تغيُّر الفتوى، وفي أسلوب الدعوة والتعليم[1]. مع ضرورة مراعاة الثبات في الأهداف والغايات، والمرونة والتطور في الوسائل والآليات، وكذلك الثبات في الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات[2].

وبهذا نقول: نعم (للتحديث)[3] ولمواكبة العصر في التقدُّم العلمي والتكنولوجي والتطور المحمود، الذي يرقى بالحياة والإنسان. كما نقول: لا (للتغريب) الذي يريد أن يسلخ الأمة من جلدها، ويجعلها تبعاً لأمم أخرى، باسم (الحداثة) أو (العولمة) أو غيرها.

ونرفض موقف الذين يريدون أن يجمِّدوا الدنيا باسم الدين، ويجمِّدوا المجتمع باسم الشرع، فلا مجال لتطوير ولا تغيير، شعارهم: ما ترك الأول للآخر شيئاً! كما نرفض موقف الذين يريدون أن يغيّروا كل شيء، فلا ثبات لعقيدة، ولا لقيم، ولا أخلاق، فكلُّ حق يمكن أن يصبح باطلاً، وكل باطل يمكن أن يمسي حقاً. وهذا ضابط مهم من ضوابط التجديد المنشود.

28- وضع التكاليف في مراتبها الشرعية:

ومن معالم الوسطية الإسلامية، وضوابط التجديد الإسلامي الذي نصبو إليه: فهم التكاليف والأعمال فهما متوازناً، يضعها في مراتبها الشرعية، وينزل كل تكليف منزلته وفق ما جاءت به النصوص، التي ميَّزت بين الأعمال: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ**

1 – انظر: كتابنا (موجبات تغير الفتوى). نشر دار الشروق بالقاهرة.

2 – انظر: فصل الجمع بين الثبات والمرونة في كتابنا (الخصائص العامة للإسلام).

3 – انظر: كتابنا (بينات الحل الإسلامي) فصل: نعم للتحديث، لا للتغريب. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ}[التوبة:19]، "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[1] فهناك أعلى وأدنى وما بينهما، فلا يجوز أن يُجعل الأعلى أدنى، ولا الأدنى أعلى، ولا أن يُكبَّر الصغير، ولا أن يُصغَّر الكبير، ولا يُؤخَّر ما حقُّه التقديم، ولا يُقدَّم ما حقُّه التأخير.

ومن هنا وجب تقديم العقيدة على العمل، والأصول على الفروع، والفرائض على النوافل، والفرائض الرُّكنية على غيرها من الفرائض، وفرائض العين على فرائض الكفاية، وفرائض الكفاية التي لم يقم بها أحد على الفرائض التي قام بها البعض. وفي جانب المنهيات يقدِّم الشرك على المعصية، والكبيرة على الصغيرة، والمحرَّم المجمع عليه على المختلف فيه.

كما يجب أن يقدَّم الكيف على الكم، والجوهر على الشكل، والباطن على الظاهر، وأعمال القلوب على أعمال الجوارح. وأيضاً يقدَّم القطعي على الظني، والثابت بالنص على الثابت بالاجتهاد، والمتفق عليه على المختلف فيه. وهو ما أطلقنا عليه اسم (فقه الأولويات)[2].

29- ضرورة الإصلاح والتغيير:

ومن معالم الوسطية والتجديد الإسلامي: ضرورة الاستجابة لما تُنادي به فئات الأمة كلها من التغيير الجذري، والإصلاح الشامل، لا الإصلاح الجزئي ولا الوقتي، ولا الترقيعي ولا السطحي، الذي يقف عند السطوح، ولا يغوص في الأعماق، أو يكتفي بالمسكِّنات دون اقتلاع الأدواء من جذورها. وحثُّ دعاة الإصلاح والتغيير على مقاومة التخلف والفساد، فالتخلُّف يُعطِّل عقل الأمة، والفساد يُعطِّل ضميرها.

عوائق التقدم الحضاري للأمة:

وأول عائق للتقدم الحضاري للأمة: الفساد السياسي، والفساد الاقتصادي، والفساد الإداري، والفساد الأخلاقي. وعلى هؤلاء الدعاة أن يتعاونوا لإقامة إصلاح حقيقي؛ يشمل هذه المجالات كلها. ولا يكون الإصلاح حقيقياً إلا إذا تمَّ بإرادتنا

---

1 – رواه الجماعة: البخاري (9)، ومسلم (35)، كلاهما في الإيمان، وأحمد في المسند (9361)، وأبو داود في السنة (4676)، والترمذي (2614)، والنسائي (5005)، وابن ماجه (57)، ثلاثتهم في الإيمان عن أبي هريرة.

2 – راجع: كتابنا (في فقه الأولويات) وكتابنا (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

وبأيدينا، ومن منظورنا، ولتحقيق أهدافنا ومصالحنا. أما الإصلاح الذي يفرضه الآخرون علينا، لتحقيق أهدافهم، ولينفَّذ بأيديهم أو أيدي عملائهم، فيستحيل أن يكون إصلاحاً.

إصلاح الأنظمة السياسية المستبدة:

ومدخل كل إصلاح هو إصلاح الأنظمة السياسية المستبدة التي تحكم شعوبنا، وتتحكَّم في مصايرها، وتخرس كل لسان حر، وتكسر كل قلم حر، وتسجن كل داعية حر، وتُزوّر الانتخابات، وتقهر الخصوم بقوانين أحكام الطوارئ، والمحاكم العسكرية. فلا علاج لهذا الفساد إلا بتغيير جذريّ، يأتي بحكام يختارهم الشعب بكل حُريته، يحسُّون بآلامه، ويُجسِّدون آماله، ويستطيع أن يحاسبهم ويسائلهم، ويقوّمهم ويعزلهم إذا تمادوا في السوء.

وأساس كل تغيير هو تغيير الإنسان من داخله، فهو يُقاد من باطنه لا من ظاهره، ومن عقله وضميره لا من أذنه أو رقبته، وشعار الإصلاح هنا: قوله تعالى: {**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**}[الرعد:11][1].

30- الانتفاع بتراثنا الغني بما فيه من علوم وفنون وآداب:

ومن معالم الوسطية والتجديد: أن نصل حاضرنا بماضينا، فلسنا أمة بلا تاريخ، بل نحن أمة لها تراثها وأمجادها، ولها جذورها الضاربة في أغوار التاريخ. ومن الواجب: الانتفاع بأفضل ما في تراثنا الرحْب المتنوِّع: من ضبط الفقهاء، وتأصيل الأصوليين، وحفظ المحدِّثين، وعقلانية المتكلمين، وروحانية المتصوفين، ورواية المؤرخين، ورقَّة الأدباء، وأخْيلة الشعراء، وتأمل الحكماء، وتجارب العلماء. مع العلم بأنَّ هذا التراث كله – حتى ما له صلة بالدين ومصادره – من صنع العقل الإسلامي، وهو بالطبع غير معصوم، فهو قابل للنقد والمراجعة والمناقشة، والترجيح أو التضعيف. ولكن الأمة في مجموعها لا تجتمع على ضلالة. ويجب النظر إلى التراث في ضوء قواطع الوحي الإلهي، وقواطع العلم البشري.

---

1 – انظر في فقه التغيير كتابنا: (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة في بيروت.

ويجب التمييز جيداً بين المستوى الإلهي (المعصوم) من التراث مثل القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، والمستوى البشري منه، ويشمل هذا شروح العقل الإسلامي للمستوى المعصوم. ومنه الفقه الإسلامي وأصوله، ولكن لا يجوز رفض هذا التراث كله بما فيه شرح الجانب المعصوم، لأنَّ هذا يعني رفض المعصوم أيضاً.

كما يجب العمل على إحياء هذا التراث وخدمته بأساليب العصر وآلياته، وانتقاء الملائم منه لتعميمه ونشره على جماهير الأمة، وإبقاء الأشياء الأخرى – بما فيها ممَّا يعاب – لدراسة المتخصصين في الدائرة الأكاديمية. وبذلك يستطيع أن يقوم التراث بوظيفته في رُقيّ الأمة، وقيامها برسالتها الخالدة[1].

1 – انظر: كتابنا (ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة) نشر مكتبة وهبة، وفصل (أصالة لا رجعية وتحديث لا تغريب) من كتابنا (بينات الحل الإسلامي) طبعة مؤسسة الرسالة ومكتبة وهبة.

خاتمة

مختصر معالم ومنارات الوسطية والتجديد

1. العلم الراسخ والفهم الشامل والمتوازن للإسلام، بحيث تتجلَّى فيه خصيصتان: الأولى: الشمول والثانية: التكامل، بوصفه: عقيدة وشريعة، علماً وعملاً، عبادةً ومعاملة، ثقافة وأخلاقاً، حقاً وقوةً، دعوةً ودولة، ديناً ودنيا، حضارةً وأمة. والخصيصة الثانية: هي المزج المتوازن بين المتقابلات، أو الثنائيات كالمزج بين الروحية والمادية، بين الربانية والإنسانية، بين الفكر والوجدان، بين المثالية والواقعية، بين الفردية والجماعية ...
2. الإيمان بمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، للتشريع والتوجيه للحياة الإسلامية، مع ضرورة فهم النصوص الجزئية في ضوء المقاصد الكلية.
3. تأسيس العقيدة على الإيمان بالله، وباليوم الآخر، والتوحيد الخالص: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الحاكمية، فيتحرَّر الإنسان من العبودية للإنسان، ومن كلِّ ما سوى الله. والإيمان بأن محمداً رسول الله، المبعوث بالرسالة العالمية الخالدة، ختم الله به النبيين.
4. التقرُّب إلى الله وحده بما شَرَع من العبادات، والتركيز على عبادة الله تعالى بوصفها الغاية التي خُلق لها الإنسان، وهي تتجلى في الشعائر الأربع الكبرى، وما يليها من ذكر الله، والدعاء، والاستغفار، هذا بالإضافة إلى العبادات الباطنية: من صدق النية والإخلاص لله، والخشية له، .. وغيرها، وهي أساس التصوف الحقيقي الذي يقوم على (الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلق).
5. تزكية النفس ومجاهدتها، حتى تتحلَّى بمكارم الأخلاق،التي عني بها الإسلام، سواء كانت أخلاقاً فردية أم اجتماعية، ورفض موقف الذين يعتبرون العبادات الشعائرية هي كل شيء، وموقف الذين يعتبرون الأخلاق كل شيء.

6. تأكيد فرضية الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

7. ترسيخ القيم الإنسانية والاجتماعية، مثل: العدل والشورى والحرية والكرامة، وحقوق الإنسان.

8. احترام العقل بجوار الوحي، والدعوة إلى النظر والتفكر، وتكوين العقلية العلمية، ومقاومة الجمود والتقليد الأعمى للآباء أو للسادة والكبراء، أو لعامة الناس. ونفي التعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح.

9. تجديد الدين من داخله، بتجديد الفهم له، وتجديد الإيمان به، وتجديد العمل به، وتجديد الدعوة إليه. وإحياء مبدأ الاجتهاد الذي لا تحيا الشريعة إلا به، على أن يكون الاجتهاد من أهله، وفي محله.

10. الدعوة إلى فقه جديد، فقه في الكون، وفقه في الدين، وهو يضمُّ عدة ألوان من الفقه المنشود: فقه سنن الكون، وفقه مقاصد الشرع، وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفقه الاختلاف، والفقه الحضاري، وفقه التغيير، وفقه الواقع.

11. إنصاف المرأة وتكريمها، والحفاظ على فطرتها، وتوكيد ما جاء به الإسلام من إعطاء المرأة حقوقها ومكانتها وكرامتها، وتحريرها من رواسب عصور التخلف والتراجع الإسلامي، ومن غوائل الغزو الحضاري الغربي الذي أخرج المرأة من فطرتها، ولم يراع أنوثتها.

12. العناية بالأسرة نواة للمجتمع، والدعامة الأولى لقيام المجتمع الصالح، ورعاية حقوق كلٍّ من الزوجين على صاحبه، وعدم اللجوء إلى الطلاق إلا إذا تعذَّر الوفاق، وشرعية تعدُّد الزوجات بقيوده وشروطه، دون توسع ولا تحريم. وتوسيع نطاق الأسرة حتى تشمل العصبة والأرحام.

13. تكوين المجتمع الصالح المتكافل، المجتمع الذي يقوم على الإخاء والتكافل والتراحم بين أبنائه، يحمل غنيُّه همّ فقيره، ويأخذ قويُّه بيد ضعيفه، ويشدُّ بعضه أَزْرَ بعض.

14. الإيمان بوجود الأمة الإسلامية ورسالتها والولاء لها، وخلودها، والإيمان بفرضيّة وحدتها، وبالأخوة الدينية بين أبنائها، على اختلاف مدارسها ومذاهبها، واعتبار الفرق المختلفة كلها من الأمة الواحدة، ما دامت تصلِّي إلى القبلة، وتؤمن بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية المشرفة.
15. إقامة الدولة العادلة حاملة الدعوة، التي تقود الأمة إلى الحق والخير، وتقيم عدل الله في الأرض، وتحتكم إلى ما أنزل الله من الكتاب والميزان، واحترام حق الشعوب في اختيار حكامها، دون تزييف لإرادتها، أو فرض حاكم عليها يقودها رغم أنوفها، ولها – بل عليها –أن تُسائله وتحاسبه، وتعزله إذا تمادى في غيه بالطرق السلمية.
16. تجنُّب التفسيق والتكفير ما وجد إلى التجنُّب سبيل، ولاسيما ما كان سببه التأويل، وتحسين الظن بكلِّ من شهد الشهادتين، وصلى إلى القبلة، ولم يصدر منه ما يخالفها بيقين، والأصل حمل حال المسلم على الصلاح ما أمكن ذلك.
17. تقوية اقتصاد الأمة، تقويةً تقوم على العلم والخبرة، وعلى الإيمان والأخلاق، والعمل على تكاملها فيما بينها، وبناء هذا الاقتصاد على فقه الشريعة ومقاصدها، والسعي العملي لتأسيس اقتصاد إسلامي متميِّز عن الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الشيوعي.
18. الإيمان بضرورة التعدديَّة والتعارف والتسامح بين الشعوب، وبأن البشريَّة أسرة واحدة، وضرورة التعايش بين الحضارات، والتلاقح بين الثقافات، وتفاعل بعضها مع بعض، واقتباس بعضها من بعض، دون انكماش ولا استعلاء.
19. إنشاء حضارة العلم والإيمان، حضارة ربانية، إنسانية، أخلاقية، عالمية، تجمع بين العلم والإيمان، وتمزج بين الروح والمادة، وتوازن بين العقل والقلب، وتصل الأرض بالسماء، وتقيم التوازن والقسط بين الفرد والمجتمع، وتعلي قوة الحق على حق القوة.
20. الرقي بالفنون وتوظيفها في خدمة رسالة الأمة: فروح الفن هو الشعور بالجمال، والتعبير عنه بطريقة جميلة. والإسلام يُحْيي هذا الشعور في نفس

المسلم، ويعلِّمه النظر إلى الجمال في الكون والإنسان، باعتباره من صنع الله الذي أتقن كل شيء. وهو رحَّب بالفن الراقي المسموع والمرئي والمصنوع. ويوظفه في خدمة الحق والخير، وينأى به أن يكون أداة لإثارة الغرائز والشهوات الدنيا.

21. عمارة الأرض وتحقيق التنمية ورعاية البيئة، والتعاون على كل ما يُيسِّر المعيشة للناس، وكل ما يشيع الجمال في الحياة، واعتبار ذلك عبادةً وجهاداً في سبيل الله.

22. السلام مع المسالمين، والجهاد مع المعتدين، وتوعية الأمة بأن الجهاد مفروض عليها فرض عين، لتحرير أرضها من كلِّ سلطان أجنبي مسلط عليها. والعمل على تجميع كل القوى والجماعات والحركات العاملة لنصرة الإسلام، وبعث أمته، في صف واحد، ووجهة واحدة.

23. العناية بالأقليات الإسلامية في العالم، باعتبارها جزءاً من الأمة المسلمة، وعلى الأمة أن تُعينهم على أن يعيشوا بإسلامهم في مجتمعاتهم، عناصر حيَّة فاعلة، وأن يكون لهم فقههم الخاص، وأن يكون شعارها: استقامة على الدين بلا انغلاق، واندماج في المجتمع بلا ذوبان.

24. العناية بالأقليات الدينية في مجتمعاتنا الإسلامية، ومعاملتهم بما أوجبه لهم الإسلام من تركهم وما يدينون، والتأكيد على أنهم من (أهل دار الإسلام) ومقتضى هذا: أنهم بلغة عصرنا (مواطنون) لهم ما لنا وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه التميُّز الديني.

25. تبنِّي منهج التيسير في الفتوى، والتخفيف في الفقه والفتوى، وإن كان ولا بد من التشديد، فليكن في الأصول لا في الفروع. والتيسير المطلوب هنا: لا يعني تبرير الواقع، أو مجاراة الغرب، أو إرضاء الحكام. وكذلك تبني منهج التبشير في الدعوة، ودعوة المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعوة المخالفين عن طريق الحوار بالتي هي أحسن، مع ضرورة رعاية روح العصر، وأسلوب العصر.

26. رعاية سنة التدرج وسائر سنن الله، التدرج الحكيم في الدعوة والتعليم والإفتاء والتغيير، وعدم استعجال الشيء قبل أوانه، والثمرة قبل نضجها. مع وجوب رعاية سنن الله في الكون والمجتمع، فمن راعى السنن راعته، ومن ضيّعها ضيّعته.

27. الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، مع ضرورة مراعاة الثبات في الأهداف والغايات، وفي الأصول والكليات، والمرونة والتطور في الوسائل والآليات، وفي الفروع والجزئيات. ومن الخطر تغيير الثوابت، أو تثبيت المتغيّرات.

28.وضع التكاليف في مراتبها الشرعية، بفهمها فهماً متوازناً، وإنزال كل تكليف منزلته وَفْق ما جاءت به محكمات النصوص والمقاصد، فلا يتقدَّم ما حقُّه التأخُّر، ولا يتأخَّر ما حقُّه التقدُّم، وهو ما أطلقنا عليه اسم (فقه الأولويات).

29. ضرورة الإصلاح الشامل، والتغيير الجذري، إصلاح لا يقف عند السطوح، ولا يغوصُ في الأعماق، ولا يكون الإصلاح حقيقياً إلا إذا تمَّ بإرادتنا وبأيدينا، لا أن يفرض علينا، ومدخل كل إصلاح هو إصلاح الأنظمة السياسية المستبدة، وأساس كل تغيير هو تغيير الإنسان من داخله.

30. الانتفاع بتراثنا الغني بما فيه من علوم وفنون وآداب، مع العلم بأن هذا التراث كله غير معصوم، فهو قابل للنقد والمراجعة والمناقشة والترجيح أو التضعيف. ولكن الأمة في مجموعها لا تجتمع على ضلالة. كما يجب العمل على إحياء هذا التراث وخدمته بأساليب العصر وآلياته، وانتقاء الملائم منه لتعميمه ونشره على جماهير الأمة، وإبقاء الأشياء الأخرى لدراسة المتخصصين.